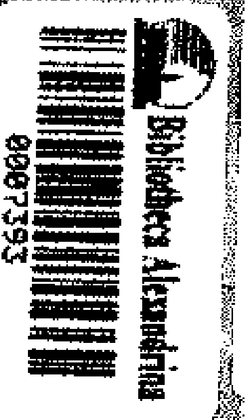
مع المصطفى

صلى الله عليه وسلم

دكتورة عائشة عبد الرحمن

بنت الشاطئ





صلى الله عليه وسلم

دكتورة عائشة عبد الرحمن
بنت الشاطئ
أستاذ التفسير والدراسات العليا
كلية الشريعة بجامعة القرويين

طبعة جديدة
مُعدلة ومنقحة



دار المعارف

تصميم الغلاف : منال بدران

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بسم الله الرحمن الرحيم

لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾

صدق الله العظيم

دليـــل

(١)

قبل المبعث : الدار والأهل

(٢)

مع المصطفى ﷺ فى دار مبعثه

(٣)

بوادر التحــول

(٤)

مع المصطفى ﷺ فى دار هجرته

(٥)

﴿ودخل الناس فى دين الله أفواجًا﴾

باسم الله ، والحمد لله ،
له الأمر من قبل ومن بعد

نجـــوى . . وإهـــداء

ابنى الفقيد الغالى، المهندس أكمـل أمين الخـولى

فقدُتك فجأة فى عِزِّ شبابك يا ولدى الحبيب، وأنا هامـةُ اليوم أو غد . حين كنت أُعِدُّ هذه الطبعة الجـديدة من كتابى (مع المصطفى ﷺ) فتصدع كيانى وأوحشت دنياى وكأنى فقدت إرادة البقاء .

وفيما كنت تحت وطأة المحنة الصعبة أطوى أوراقى وأنطوى على نفسى الضائعة، إذا بطيفكَ حيًّا شاخصا ماثلا أمامى ملء بصرى وسمعى، ملء قلبى وخـواطرى ورؤاى، يشـد أزرى بصحبة الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام، فأجمع شتات نفسى الضائعة وكيانى المتداعى، لأرفع إليه صلوات الله عليـه وسلامه هذا الكتاب : زكاة وقربى ونجوى . .

أحتسبك عند الله يابنى رضى الله عنك . .

وسلام أنت وسلام عليك،

ووداعا، إلى أن نلتقى،

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين . .

مصر الجديدة : ربيع الآخر ١٤١٢هـ
أكتوبر ١٩٩١م

أمك.. عائشة

هذا الكتاب

مع المصطفى ﷺ عشت من يوم مولدى،

آيات معجزته كانت أول ما يصل إلى سمعى مع نور الفجر، يتلوها والدى التقى العابد رضى الله عنه، فى تهجده وصلاته.

وأحاديثه الشريفة كانت مع آيات القرآن، الزادَ الروحى الذى تعيش به بيتى المتدينة، من قبل أن أعرف الدنيا.

وسيرته الزكية العطرة، كانت أُنس دنيانا، من قبل أن تُحَلَّ عنى تمائم الصبا.

والمدائح النبوية والأناشيد الصوفية، كانت أول ما لمس وجدانى وأرهف احساسى، من يوم أن بدأت خطوتى الأولى على درب الحياة..

* * *

ومع المصطفى ﷺ عشت وأنا أستقرئ ما وعى التاريخ من تراجم سيدات بيت النبوة، رضى الله عنهن فأجتلى ملامح شخصيته صبيًّا فى (أم النبى) وزوجًا فى (نساء النبى) وأبًا فى (بنات النبى) صلى الله عليه وعلى آله وسلم

ثم، مع المصطفى نبيًّا رسولاً، أمضيت حياتى العلمية منذ استشرف بى أستاذى «أمين الخولى» إلى الأفق الرحب الذى طمحت إليه فى دراساتى القرآنية، وقاد خطاى على الطريق الصعب لأجتلى أسرار البيان المعجز..

* * *

وإذ يسَّر الله وأعان، فقدمت إلى المكتبة الإسلامية محاولتى المنهجية فى (التفسير البيانى للقرآن الكريم) ودراساتى القرآنية: (مقال فى الإنسان، والشخصية الإسلامية، والقرآن وقضايا الإنسان) وأتممت دراستى لما شغلنى أعوامًا من (الإعجاز البيانى للقرآن الكريم). وما تعلقت به من تحقيق أعز ذخائرنا فى علوم مصطلح الحديث: (مقدمة ابن الصلاح ومحاسن الاصطلاح)..

استروحت إلى صحبة المصطفى عليه الصلاة والسلام، فإذا بى فى فيض من سناه، قد طويت أبعاد المكان وآماد الزمان، إلى مسرح الأحداث الكبار التى بدأ بها عصرٌ جديد للإنسان،

وعشت بوجدانى وفكرى مع المصطفى ﷺ من مهد مولده إلى غار حراء، ثم فى مثواه فى المدينة المنورة.

ولم أشأ، بل لم أستطع، أن أنصرف عن هذه الصحبة مع المصطفى صلوات الله عليه وسلامه، فكأنى إذ أعكف على كتابتها أطيل مدى أنسى بها، وألتمس من مشاركة أصدقائى القراء، ما يضاعف لى عطاءها السخى..

* * *

وما أقدمه إلى أبنائى وأصدقائى القراء، من حديث هذه الرحلة (مع المصطفى، عليه الصلاة والسلام) ليس التاريخَ وليس السيرةَ، وإنما هى مشاهد مما اجتليتُ سيطرتْ على وجدانى، ومواقفُ شدَّت إليها تأملى بجاذبية آسرة، وارتبط فيها الماضى الحىُّ بالحاضر المشهود، فما تتجلى لنا رؤى الماضى ومشاهده، إلا لتؤنس وحشتنا وتهدى خطانا، ولنذكر نعمة الله الكبرى أن أعزنا بالإسلام وبعث فينا المصطفى ﴿شاهدًا ومُبَشِّرًا ونذِيرًا، وداعيًا إلى اللَّهِ بإذنِهِ وَسِرَاجًا مُنيرًا﴾

مصر الجديدة

١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م

عائشة عبد الرحمن
(بنت الشاطئ)

(١)
قبل المبعث
الدار، والأهل

- أم القرى والبيت العتيق
- اليتيم الهاشمى: المولد
- من مهد مولده إلى غار حراء

أُمُّ القُرَى، وَالبَيتُ العَتِيق

﴿ .... وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ ﴾

صدق الله العظيم

* * *

فى مكة المكرمة كان مهد مولد المصطفى ﷺ ومنزل آياته من عهد إسماعيل عليه السلام، الجد الأعلى للعرب العدنانية.

وتاريخ الأديان يعى، ما سبق الإسلام من بوادر آذنتْ بوشك فجرٍ جديد لابد أن ينسخ ما تراكم على أفق الدنيا من ظلمات ليلٍ طال...

وقضت المشيئة العليا أن تكون مكة مبعثًا لخاتم الرسل الأنبياء عليهم السلام، ومكة وقت المبعث كانت دار شرك ومركز الوثنية العربية، وليست فى ظاهرِ الحال أَوْلى من بلادٍ أُخرى كانت مهدًا للأنبياءِ من قبل، ومبعثًا لرسالاتٍ دينية سبقت الإسلام.

المؤمنون لا يترددون فى أن يتلوا كلمته تعالى ﴿اللَّهُ أَعلَمُ حيثُ يجعلُ رسالتَه﴾.

ثم لا يجدون حرجًا فى أن يتدبروا، كما أمرهم دينهم، حكمتَه تعالى فى سُننه، وأن ينظروا فى واقع الحياة قبل المبعث، وموضع منزل الوحى فى عالَمٍ كان، حينذاك، يريد أن ينقض.

وتاريخُنا الدينى يمكن أن يعطينا ما ندرك منه الحكمة فى اصطفاءِ مكة لمبعث خاتم المرسلين، وقد كانت من قديم العصور والآباد حرمًا مقدسًا، وعلى أرضها قام أول بيتٍ عُبد فيه اللهُ سبحانه على الأرض.

ولا ندرى تمامًا، الظروف التى تداعى فيها بنيان ذلك البيت العتيق، وتسربت إليه ظلالٌ وثنية دنَّست حرمه، حتى تلقى «إبراهيم الخليل، وولده إسماعيل» عليهما السلام، العهد من الله

تعالى بأن يرفعاه القواعد من البيت ويطهراه للطائفين والعاكفين والركع السجود.

وبأمر الله تعالى، أذّن إبراهيم فى الناس بالحج إلى البيت العتيق، فأتوه رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فجٍّ عميق.

ومن ذلك الزمن الموغل فى الماضى السحيق، رسخت مكانة مكة فى تاريخنا الدينى، ولكن الوثنية عادت فتسللت إلى حرمها، مع أوثان وأصنام كانت فى أول الأمر رموزًا للخالق المعبود، ثم فقدت رمزيتها وصارت معبودات.

قال «ابن إسحاق» فى السيرة النبوية:

«ويزعمون أن أول ما كانت عبادة الحجارة فى بنى إسماعيل - أهل مكة - أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم، حين ضاقت عليهم، والتمسوا الفُسَح فى البلاد، إلا حمل معه حجرًا من حجارة الحرم تعظيمًا للحرم، فحيثما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم بالكعبة، حتى آل ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة، حتى خلَف الخلوف ونسوا ما كانوا عليه، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره، فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم قبلهم من الضلالات، وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم يتمسكون بها، من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة والوقوف على المزدلفة وهدى البُدن والإهلال بالحج والعمرة، مع إدخالهم فيه ما ليس منه».

وكانت عبادتهم مشوبة برواسب من قديم ما قبل الطوفان، كما يظهر ذلك فى أسماء أصنام لهم، بأسماء الأصنام التى اتخذها الكفار من قوم نوح آلهة لهم، وذكرها الله تعالى فى سورة نوح: ﴿وقالوا لا تَذَرُنَّ آلهتكم ولا تَذَرُن وَدًّا ولا سُوَاعًا، ولا يَغوث ويعوق ونسرًا﴾.

فكان لهذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر صنمها «سواع» ولقبيلة كلب بن وبرة القضاعى، صنمها «وَدّ» واتخذت بطون من طيئ ومذحج صنمها «يغوث» واتخذت خَيوان، بطن من همدان «يعوق» وأما «نَسر» فكان لذى الكلاع بأرض حمير»[1].

وظل لمكة مع ذلك، مركزها الدينى لا تنازعها فيه بلدة أخرى، وبقيت مثابة حج العرب فى الجاهلية الوثنية، على مر الحقب، وكأنما كان البيت العتيق فيها، ذكرى شاخصة من عهد إيمانها القديم، يحمى بقية من الوعى كامنة فى العمق الغائر من ضمير الجاهليين، عبدة الأوثان والكواكب، قال تعالى:

---

(١) ابن إسحاق، السيرة الهشامية، مع الروض الأنف ١/١٠٧ والأصنام للكلبى ط دار الكتب المصرية.

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰواتِ والأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ والقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾.

ومع رسوخ الوثنية العربية فى مكة إبان الجاهلية، لم تستطع قط أن تطوى تمامًا ذكريات ماضيها الدينى وتلقى به فى متاهة النسيان. وكان الزمن كلما تقدم بها هزتها رجفة الوعى فيخامرها ريب فى تلك الأوثان التى تكدست فى حرم بيتها العتيق، لم تنس بها خالقها، وإن أشركتها معه، سبحانه، فى التعبد.

وكانت القبائل العربية تحج إلى الكعبة فى الموسم، وتطيف كل قبيلة بوثنها ضارعة ملبية، فتذكر الله من حيث تدرى أو لا تدرى، وترفع إليه الضراعة والنجوى، إما بمنطق الشرك: يبدؤون بالتلبية لله وحده ثم يشركون به أصنامهم وإن جعلوا أمرها لله، كتلبية كنانة وقريش:

لبيك اللهم لبيك ... لبيك إن الحمد لك
والملك لا شريك لك ... إلا شريك هو لك
تملكه وما مَلَكْ

أو على وجه الملاذ إليه وحده، وترك أصنامهم فى منازل القبيلة، والحج إليه، ابتغاء رضوانه، كتلبية «همدان» فى الجاهلية:

لبيكَ ربَّ همدانْ ... من شاحطٍ ومن دانْ
جئناك نبغى الإحسان ... بكل حَرْفٍ مذعانْ
نطوى إليك الغيطانْ ... نأمل فضل الغفرانْ

* * *

لبيكَ معْ كل قبيلٍ لبُّوكْ ... همدانُ أبناءُ الملوك تدعوكْ
قد تركوا أصنامهم وانتابوك ... فاسمع دعاءً فى جميع الأملوكْ[1]

ومؤرخو الإسلام، يذكرون ما راج فى المنطقة قبيل المبعث، من إرهاصات عن نبى آن مبعثه، ولا نجادل من يستريب من أبناء هذا الزمان فى هذه المرويات، ويحملها على منحولات الرواة وإضافات السمار، غير أن الواقع التاريخى يؤكد أنها، على أى وجه رضيناه لها وحملناه عليها، تكشف عن تطلع الحياة قبيل الإسلام، إلى تحول جديد وحاسم.

---

(١) تجد فى (رسالة الغفران) نصوصا مع هذه، من تلبيات العرب فى الجاهلية: ص ٥٣٤ وما بعدها. ط خامسة. ذخائر العرب وانظر معها (كتاب الأصنام للكلبى).

وتاريخ الأديان العام، يمكن أن يضيف إضاءة أخرى إلى ما قدمه مؤرخونا عن أرض المبعث:

الجزيرة العربية عرفت بصورة أو بأخرى، كل الملل والنحل والعقائد التى كانت البشرية تعتنقها قبل الإسلام.

عرفت المسيحية فى نجران والحيرة وغسان وتخوم الحبشة، واليهودية فى يثرب وما حولها من مستعمرات يهود شمالىّ الحجاز، وعرفت الصابئة عبدة النجوم والكواكب، فى سبأ، وسمعت عن المجوسية بحكم اتصال إمارة المناذرة العربية بالفرس...

وتلاقت هذه الأديان الوافدة، مع الوثنية العربية، ومع بقيةٍ من دينِ إبراهيم قاومت الضياع قرونًا وأدهارًا، فتمثلت فى قلة من الحنفاءِ رفضوا عبادة الأوثان فى أخريات الجاهلية، وتجد أخبارهم بتفصيل، فى الجزءِ الأول من (السيرة النبوية لابن إسحاق رواية ابن هشام).

والتقاءُ هذه الأديان والعبادات فى المنطقة الواحدة، يمنحها فرصة التنبه إلى ما بينها من مظاهر التشابه والخلاف، ومثار الخصومة والتنازع.

كما أن توزع أهل الجزيرة العربية بين مختلف الملل والنحل، فى فترة من حياتهم كانت تقتضى التجمع والترابط لمواجهة التهديد الخارجى من فرس وروم وحبشة ويمن، أرهف حسهم لما داخلَ تدين كلِ طائفة من شوائب الانحراف والتعصب، فإن لم يصل بعرب الجزيرة إلى مستوى التمييز، فأدنى أثره أن يجعل المنطقة فى حيرة وتردد، لا تدرى أى تلك الطوائف على حق وأيها على باطل.

ولم تكن الفطرة العربية، قد أفسدها ما تسلط على الفرس والروم من ترف باذخ وانحلال منهك، ولا قهرها ما تسلط على شعوب المناطق حولها – فى الشام ومصر وما وراءها من أقطار الشمال الإفريقى – من وطأة الاحتلال الذى جثم عليها قرابة ألف عام، لم تنج منه سوى الجزيرة العربية التى اعتصمت بمنعتها الطبيعية، وحمتها بواديها الجرداءُ من مطامع الغزاة.

وإنما ألقت الوثنية غشاوة على بصيرة العربى، فتابع آباءَه على دينهم تعصبًا وتوقيرًا، لا يريد أن يتصور أن أسلافه الكرام كانوا جميعًا على سَفَهٍ وضلال.

وتراث الشعر الجاهلى لقرنين قبل الإسلام، يؤكد مع ذلك، ما كان يجتاح الوجدان العربى من قلق وحيرة، وتطلع إلى نور جديد يمزق الغشاوة، ويسقط أقنعة الزيف عن عقم الوثنية ومهانة الشرك وخلل الأوضاع.

لا فى ديوان المتحنفين فحسب، ولكن فى ديوان تلك الفترة بوجه عام، وفيها كان «قس بن ساعدة» يقف فى سوق عكاظ بالموسم، فيهز الضمير العربى بحكمته ومواعظه، وفيها كانت آفاق الجزيرة ترجِّع ما يأتيها من أسواق أم القرى فى مواسم الحج، من مثل قول «زهير بن أبى سلمى والد كعب وبجير رضى الله عنهما:

فلا تكتمُنَّ اللَّهَ ما فى نفوسكم ... ليخفى، ومهما يُكتم اللَّهُ يعلمِ
يؤخَّرْ فيوضع فى كتابٍ فيدخرْ ... ليوم الحساب أو يُعجَّلْ فينقمِ
وأعلمُ علم اليوم والأمس قبله ... ولكننى عن علم ما فى غدٍ عَمِ
ومن هاب أسبابَ المنايا ينلنه ... ولو رام أسباب السماء بسُلَّمِ
ومن يوفِ لا يُذمَمْ ومن يُهدَ قلبُه ... إلى مطمئن البرِّ لا يتجمجمِ
ومهما تكن عند امرئٍ من خليقة ... وإن خالها تخفى على الناس تُعلَمِ

* * *

ألا ليت شعرى هل يرى الناسُ ما أرى ... من الأمر أو يبدو لهم ما بدا ليا
بدا لِىَ أن اللَّهَ حق فزادنى ... إلى الحق تقوى الله ما كان باديا
وأنى متى أهبطْ من الأرض تلعةً ... أجدْ أثرًا قبلى، جديدًا وباليا
أرانى إذا ما بِتُّ بِتُّ على هوى ... وأنى إذا أصبحت أصبحت غاديا
إلى حفرةٍ أهدَى إليها مقيمة ... يَحُثُّ إليها سائق من ورائيا
كأنى وقد خُلِّفت تسعين حِجَّةً ... خلعت بها عن منكبىَّ ردائيا
أرانى إذا ما شئت لاقيت آيةً ... تذكرنى بعد الذى كنت ناسيا
ألم تر أن الله أهلك تُبَّعا ... وأهلك لقمانَ بن عادٍ وعاديا
وأهلك ذا القرنين من قبل ما ترى ... وفرعون جبارًا طغى والنجاشيا
ألا لا أرى ذا إمَّة أصبحتْ به ... فتتركه الأيام وهْىَ كما هيا
ألم تر للنعمان كان بنجوة ... من الشر لو أن امرءًا كان ناجيا
فغيَّر منه ملكَ عشرين حجةً ... من الدهر يومٌ واحد كان غاويا
فلم أر مسلوبا له مثلُ مُلكه ... أقلَّ صديقًا باذلاً أو مواسيا

* * *

وقول «النابغة الذبيانى» فى اعتذاره للنعمان بن المنذر:

حلفتُ فلم أترك لنفسك ريبة ... وليس وراء اللَّهِ للمرءِ مذهبُ

لئن كنت قد بُلِّغتَ عني وشاية	لمبلغك الواشي أغشُّ وأكذبُ

وقول «لبيد بن ربيعة» في الجاهلية، قبل إسلامه:

بَلينا وما تَبلى النجوم الطوالعُ	وتبقى الديار بعدنا والمصانع
وما المرءُ إلا كالشهاب وضوئه	يحور رمادًا بعد إذ هوَ ساطع
وما المال والأهلون إلا ودائع	ولا بد يومًا أن تُردَّ الودائع

* * *

وكانت حرمة البيت العتيق تفرض على العرب جميعًا حرمة حماه في أُم القرى، ورسخ في اعتقادهم «أن مكة لا تقر فيها ظلمًا ولا بغيًا، ولا يبغي فيها أحد على أحد إلا أخرجته، ولا يريدها ملكٌ يستحل حرمتها إلا هلك مكانه. فيقال إنها ما سميت «بَكَّة»، إلا لأنها كانت تبك - تكسر - أعناق الجبابرة إذا أحدثوا فيها شيئًا»[1].

وبلغ من حرمة مكة عند القوم، أن تناقلت الأجيال إلى عصر المبعث ما أسنده ابن إسحاق من حديث السيدة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها، قالت:

«ما زلنا نسمع أن أسافا ونائلة - من أصنام العرب في الجاهلية - كانا رجلًا وامرأة من جرهم، أحدثا في الكعبة فمسخهما الله تعالى حجرين»[2].

ويذكر الرواة من أقدم تاريخها المعروف لنا، أن نبع زمزم لما انبثق لإسماعيل استأذنت قافلة من جرهم، - من عرب الجنوب العارية الرُّحَّل - السيدة هاجر أم إسماعيل عليه السلام في النزول معها حول نبع زمزم. فأذنت لهم، والماء ماؤها. وشب إسماعيل وتعرب في جرهم وأصهر إليهم، «ثم إن جرهما بغوا بمكة واستحلوا خِلالاً من حرمتها فظلموا مَنْ دخلها من غير أهلها وأكلوا مال الكعبة الذى يهدى إليها، فلما رأت ذلك بنو بكر من كنانة، وبعض بني خزاعة، أجمعوا لحربهم، وإخراجهم من مكة، فاقتتلوا فغلبتهم بنو بكر وخزاعة، فنفوهم من مكة، وكانت مكة في الجاهلية لا تقر فيها ظلمًا، ولا بغيًا ولا يبغي فيها أحد إلا أخرجته، ولا يريدها ملك يستحل حرمتها إلا هلك مكانه، فيقال إنها ما سُميت «بَكَّة» إلا لأنها كانت تبك أعناق الجبابرة إذا أحدثوا فيها.

---

(١)، (٢) السيرة لابن اسحاق، الهشامية: الجزء الأول. وانظر معه (الروض الأنف) للسهيلي: ٢٧/١ ط الجمالية بالقاهرة.

« فلما أُخرِجَتْ جرهم من مكة حزنوا على ما فارقوا من أمن مكة وملكها حزنًا شديدًا، وقال شاعرهم «عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمي من بكائية له شجية:

وقـائـلةٍ والـدمـعُ سَـكْـبٌ مـبـادرٌ . وقـد شرقتْ بـالـدمـع منهـا المحـاجـر
كـأن لم يكن بـين الحجـون إلى الصفـا أنيس ولم يـسـمـر بمكـة سـامـرٌ
فـقـلت لهـا والـقـلب مـنى كـأنمـا يلجلجـه بـين الجنـاحـين طـائـر
بـلى نحن كـنـا أهلهـا فـأزالنـا صـروف الليـالى والجـدود العـواثـر
وكنـا ولاة البيت مـن بعـد نـابـت نطوف بـذاك البيت والخير ظـاهـر
ملكنـا فعـززنـا فـأعـظِمْ بملكنـا فـليس لحـى غـيـرنـا ثـم فـاخـر
فـأخـرجنـا منهـا المليـك بقـدرة كـذلـك، يـا للنـاس، تجـرى المقـادرُ
وصـرنـا أحـاديثًـا وكنـا بـغبـطة بـذلـك عضتنـا السنـون الغـوابـر
فسحَّت دمـوع العـين تبكـى لبلدة بهـا حـرم أمْن وفيهـا المشـاعـر

قال ابن اسحاق: ثم إن قبيلة من خزاعة استبدت بولاية البيت، يتوارثون ذلك كابرًا عن كابر، فقام لهم «قصى بن كلاب» ورأى أنه – وهو من صريح ولد إسماعيل – أولى بالكعبة وبأمر مكة من خزاعة وبنى بكر. فكلم رجالاً من فهر وبنى كنانة ودعاهم إلى إخراج خزاعة وبنى بكر من مكة، فقاموا لنصرته حتى غلب على أمر مكة وجمّع قريشًا وأنزلهم منازلهم وولى ما كان من وظائف دينية بها، واستحدثِ وظائف الحجابة والرفادة والسقاية واللواء، فحاز شرف مكة كله، ودانت له قريش، وتيمنت بأمره فكان فى حياته ومن بعد موته كالدين المتبع، واتخذ لنفسه دار الندوة وجعل بابها إلى مسجد الكعبة، ففيها كانت قريش تقضى أمورها فإذا وقعت حرب بينهم فى شهر حرام لم يُنسأ، كانت حربَ فجار».

* * *

«قُصَىُّ بن كلاب بن مرة» هو الجد الرابع للمصطفى الهاشمى ﷺ، والجد الثالث لأمه السيدة آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن قصى. وإلى عام المولد» كانت الشواهد تترى بما للبيت العتيق من حرمة، وما يصيب الذى يستحل حرمته من هلاك، على ما يأتى من خبر أصحاب الفيل فى موضعه من سياق الأحداث. ثم ما كان من ذلك بعد المولد، وقبيل مبعث المصطفى ﷺ.

فى هذه البلدة المرهفة الحس الدينى، المضناة بالقلق والحيرة، المتطلعة إلى حياة جديدة، كان مولد محمد بن عبد الله، ومبعث نبى الإسلام عليه الصلاة والسلام: اصطفاه الله تعالى من بنى

هاشم، واصطفى بنى هاشم من قريش، وقريشًا من كنانة، وكنانة من بنى عدنان صريح ولد إسماعيل عليه السلام، والتقى نسبه الزكى من جهة أبيه، مع نسب أمه عند «قصى بن كلاب»، وهو قريش، فكان ﷺ أزكى الناس نسبًا، أبًا وأمًا[1].

* * *

(١) بتفصيل فى كتابى (أم النبى ﷺ) مستخلصا من أوثق المصادر.

اليتيم الهاشمى : المَولِد

«لم يزل الله ينقلنى من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام
الطاهرة لا تتشعب شعبتان إلا كنت فى خيرهما»
(محمد بن عبد الله)

* * *

فى مكة كان مولده،

وضعته أُمه بشرًا سويًّا فى دار أبيه «عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم القرشى الهاشمى» بجوار البيت العتيق،

ونور الفجر يبشر بصبح جديد.

والدنيا تتفتح لموكب الشروق، وتستقبل مع أنفاس الصبح أنفاس أُلوفٍ وأُلوف من بنى البشر، ولدتْهم أمهاتهم من مختلف الأجناس وشتى البقاع، فى تلك الليلة القمراء من ربيع الأول.

منهم من وُلدوا فى قصور مصر والشام وفارس والروم واليمن.
ومنهم مَن وُلدوا فى مجاهل القفر ونجوع البوادى وأدغال الغابات وكهوف الجبال..
تباعدت بهم الأُصول والأنساب.
وتفاوتت الألوان والأجناس، وتناءت الطبقات.
وجمعتهم بنوتهم للبشر.
وتماثلت فيهم آية الخلق،
وتشابهت مخاطر الحمل وآلام المخاض.
ولم تر فيهم الفطرة الإنسانية إلا انتصارًا لإرادة البقاء وامتدادًا للحياة،
على ما بينهم من تفاوت بعيد..

* * *

وما كان أحد ليلتفت إلى وليد منهم، وضعته أمه يتيمًا فى حىٍّ بنى هاشم بجوار الحرم المكى، فى تلك الليلة التى بوركت به..

لولا أن حفَّت بمولده ظروف غير مألوفة، جعلت أُم القرى تتلقى البشرى بكثير من التأمل والتفكير، ثم تحرص على أن تستوعب كل ماحفَّ بها أو لابسها من ظروف، وأن تتابع سير الحياة بهذا الوليد إلى أن بلغ أشده واصطُفِى خاتمًا للأنبياء عليهم السلام.

وحين آن للتاريخ العام أن ينصرف عن أحداث الدنيا فى فجر المبعث ليرقب هذا المصطفى للنبوة، وجد فى ذاكرة أم القرى ما يملأ صفحات المرحلة ما بين مولده ومبعثه..

* * *

الليلة من بدئها كانت مقمرة واعدة.

ينيرها قمر أوشك أن يكتمل بدرًا.

وتؤنسها أطياف ورؤى، ظلت تتجلى لآمنة بنت وهب القرشية الزهرية، طوال شهور حملها، فتعينها على احتمال تجربة المخاض.

فمنذ حملت بهذا الجنين، وهى لا تكف عن التفكير فيما كان من أمرها وأمره، بعد أن مات أبوه «عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم» فى طريق أوبته إليها من رحلة صيف إلى بلاد الشام.

ولم يكن حين ودَّعها، قبل بضعة أشهر، يتوجس خيفةً من عائق يطيل أمد غيابه فى رحلته، عن ميعادها الموقوت.

ولا كانت «آمنة» فى هواجس وحشتها لفراقه، تتوقع أمرًا يحبسه عنها بعد انتهاء الرحلة.

فى عِزِّ شبابه ونضرة حيويته، مضى مع قافلة قريش إلى الشام.

ومكة ما تزال تتجاوب بأصداء الاحتفال المشهود بعرسه، وتجتر مشاهد القصة المثيرة لافتدائه من الذبح قربانًا لرب الكعبة، وفاء بنذر أبيه عبد المطلب بن هاشم.

كان عبد المطلب منذ ولى شرف السقاية والرفادة لوفود الحجيج إلى البيت العتيق، يشغله همُّ التفكير فيما يتجشم ويتجشمون فى الموسم، من شح الماء فى الوادى الأجرد غير ذى زرع.

وذكر بئر زمزم التى أنقذت جده «إسماعيل بن إبراهيم الخليل» عليهما السلام، من الهلاك ظمأً، وجذبت إلى مكة القوافل من العرب، فعمرت بهم بعد أن كانت قفرًا جرداء.

وقد طمَرت زمزمَ رمالُ الزمن، فلو أن عبد المطلب عثر على موضعها، لكانت لسقاية الحجيج موردًا مباركًا.

وقوى تعلقه بالأمل فى الاهتداء إلى موضعها، حتى صار مشغلة تفكيره ليل نهار. وخايلته الرؤى فى منامه، تبشره بتحقيق أمله، وتوجه خطاه نحو موضع بعينه، بين وثنى «أساف ونائلة».

وغدا ذات صباح بمعوله إلى الموضع الذى وجَّهته إليه رؤياه، ومعه ابنه «الحارث» ليس له يومئذ ولد غيره، فلما همَّ بالحفر تصدت له قريش تأبى عليه أن يحفر بين وثنيها، ويطمعها فى ردِّه، أن لم يكن له غير ولد واحد. لكنه تابع الحفر حتى انبثق ماء زمزم.

يومَها نذر عبد المطلب: لئن وُلد له عشرة أبناء ثم بلغوا معه بحيث يمنعونه، لَيَنْحَرَنَّ أحدهم عند الكعبة قرباناً.

وتوافى بنوه عشرة[1] وكان أصغرهم «عبد الله» فتلبث أبوهم زماناً حتى بلغوا، ودعاهم إلى الوفاء بنذره، وخرج بهم إلى الكعبة وقد حمل كل منهم قِدحًا عليه اسمُه. وقدموها إلى صاحب القداح هناك، وأبوهم يُنقِّل بصره بينهم، فتستقر نظراته لحظة على أصغرهم «عبد الله» فيفيض قلبه رقة ورحمة، ويتمنى أن يخطئه السهم.

حتى ضرب صاحب القداح على بنى عبد المطلب، فخرج القدح على «عبد الله» وأبوه قائم يدعو فى ضراعة وخشوع.

ولم يملك الشيخ أن يتراجع، بل أمسك بيد صغيره الغالى وتقدم يريد الوفاء بنذره، ثم لم يكد يدنى الشفرة من منحره حتى تكاثرت عليه قريش، وقد هالها أن يضع عبد المطلب بتضحية ولده، تقليدًا يؤثَر ويتبع، «فما بقاءُ الناس على هذا؟».

وما زالوا به حتى قبل أن يستشيروا فى أمره عرَّافةً لهم بخيبر.

سألتهم العرافة بعد أن سمعت القصة:

– كم الدية فيكم؟ قالوا: عشر من الإبل.

فكانت مشورتها أن يرجعوا إلى الكعبة فيضربوا القداح على عبد الله وعلى عشر من الإبل، فإن خرج القدح عليه زادوا عشرًا، ثم عشرًا حتى يرضى ربهم، وإن خرجت على الإبل نحروها عنه.

وعادوا ففعلوا، فما زالوا يزيدون الإبل عشرًا بعد عشر، والقدح يخرج على عبد الله، إلى أن بلغت الإبل مائة، وخرج القدح لأول مرة عليها.

---

(١) أبناء عبد المطلب فى السيرة الهشامية مع الروض الأنف ١/١٧٩. وفى نسب قريش للمصعب الزبيرى. وجمهرة أنساب العرب لأبى محمد ابن حزم القرطبى.

صاح الجمع من قريش:

– قد انتهى، رضى ربك يا عبد المطلب.

لكنه ، لصدق إيمانه، أبى إلا أن يكرر التجربة ثلاث مرات، والقدح يخرج على الإبل، وعندئذ اطمأن قلبه، ونحرت الإبل المائة ثم تركت فى حِمى الحرم، لا يُصد عنها إنسان ولا سبع[1].

* * *

وانصرف عبد المطلب بولده عبد الله، فمضى إلى سيد بنى زُهرة نسبًا وشرفًا «وهب بن عبد مناف بن زهرة»[2] فخطب إليه ابنته «آمنة» عروسًا لعبد الله المفتدى.

وكانت قصة الفداء قد هزت قلوب المكيين تعلقًا بالشاب الهاشمى الذى مست الشفرة منحره وهو صابر مستسلم، حتى إذا لم يبق بينه وبين الذبح إلا أن تتحرك الشفرة، أنقذه رب الكعبة بأغلى فدية عرفها العرب.

وأضيئت المشاعل فى أم القرى، وسهرت مسامر البلدة المباركة تسترجع ذكرى قصة الذبيح الأول «إسماعيل بن إبراهيم» حين مضى به أبوه إلى قمة الجبل لكى يذبحه طاعةً وتعبدًا، فكان من أمره ما نتلوه من آيات الصافات ١٠١-١١١:

﴿ .... قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١١﴾ ﴾

---

(١) القصة بتفصيل فى: السيرة ١٦٢/١ وتاريخ الطبرى ١٧٣/٢.

(٢) السيرة النبوية لابن اسحاق ١٦٥/١ – ونسب قريش للزبيرى ١٤ وجمهرة أنساب العرب لابن حزم: ١١٩/١٢ ط الذخائر. وانظر مع ماهنا كتابى «أم النبى ﷺ» ط الهلال بالقاهرة، ومع كتابى (تراجم سيدات بيت النبوة طبعة الأهرام – الجزء الأول.

إنها القصة التي تناقلتها العرب العدنانية، بنو إسماعيل، طبقة بعد طبقة وجيلاً من بعد جيل، تعود فتتكرر على ساحة البيت العتيق الذى رفع القواعد منه إبراهيم وإسماعيل، وطهراه للطائفين والعاكفين والركع والسجود.

والمفتدى هذه المرة الأخرى، من صريح ولد إسماعيل، جيرة الحرم المكي.

وغيرُ مستبعدٍ أن يكون من السمار مَن ربطوا فى ليلة العرس بين الذبيحين «إسماعيل بن إبراهيم، وعبد الله بن عبد المطلب» وأن يتوقع ذوو الحس المرهَف منهم والرؤية الوجدانية الصافية، أمرًا جليلاً لعبد الله، كالذى كان لجدِّه الأعلى إسماعيل عليه السلام، بعد الفداء.

وغيرُ مستغربٍ كذلك، فى مثل هذا المناخ الديني للبلد العتيق، أن تهفو قلوب نساءٍ من قريش إلى «عبد الله» وأن يلمحن على وجهه مخايلَ غده الموعود، فيعرضن له فى طريقه من الكعبة إلى بيت سيد بنى زهرة، وكل منهن تحاول أن تهبه نفسها أو أن تظفر به زوجًا.

عرضت لهُ بنت نوفل الأسدية القرشية، أُخت ورقة، فقالت له:

– لكَ مثلُ الإبل التى نُحرت عنك اليوم إن قبلتَ أن أهب نفسى لك.

ودَعته «فاطمة بنت مر» إلى نكاحها، وكانت من أجمل النساءِ وأعفهن، وفى بعض الروايات أنها كانت كاهنة من خثعم[1].

وكذلك عرضت «ليلى العدوية» نفسها عليه، وهي تتحدث عن النور الذى فى وجهه.

وفى الخبر أنه مرَّ بهن بعد أن تزوج «آمنة بنت وهب الزهرية» فانصرفن عنه زاهدات فيه، فعجب لأمرهن وبدا له أن يسألهن فيه، فكان جواب بنت نوفل:

«فارقك النور الذى كان معك بالأمس فليس لى بك اليومَ حاجة».

وقالت فاطمة بنت مر: «قد كان ذلك مرةً فاليومَ لا، واللهِ ما أنا بصاحبة ريبة، ولكنى رأيت فى وجهك نورًا فأردت أن يكون لى، فأبى الله إلا أن يجعله حيث أراد».

وردَّت ليلى العدوية: «مررتَ بى وبين عينيك غرة بيضاءُ فدعوتك فأبيْت علىّ، ودخلتَ على آمنة فذهبتْ بها»[2].

وقد وصلت أخبارهن وأقوالهن إلى مسمع عروسه «آمنة بنت وهب» وبلغ من تأثرها بها، بعد

---

(١) ابن إسحاق: السيرة الشامية مع الروض ١٧٨/١، وتاريخ الطبرى: ١٧٤/٢

(٢) السيرة لابن هشام: ١٦٥/١ وتاريخ الطبرى: ١٧٤/٢. مع كتابى (أم النبى ﷺ).

الذى كان من قصة الفداء، أن رأت فى منامها ليلة عرسها، كأن شعاعا من النور يشع من كيانها اللطيف فيضئ الدنيا حولها، وسمعتْ هاتفًا يبشرها بأنها حملت بسيِّد البشر.

وحين ودعها عبد الله بعد أشهر فى رحلته إلى الشام، كان لها من رؤياها ما يؤنس وحشة فراقٍ لم يدر العروسان أنه فراق لا لقاء بعده، ولا خطر لهما على بال أنها رحلة بغير مآب...

* * *

فى طريق الإياب أَلمت بعبدالله وعكة طارئة، فتخلف عن قافلة قريش فى دار أخوال أبيه بنى النجار بيثرب، ريثما يسترد صحته وعافيته. فلم يلبث إلا قليلاً حتى غاله الموت، ودفن هناك فى ثرى يثرب.

ولم يُقبل فيه هذه المرةَ أى فداء...

ولبست مكة ثوب الحداد على الفتى الهاشمى، وضحلت من النواح عليه حلوق بُحَّتْ من الهتاف له حين احتفلت أم القرى بفدائه وعرسه، قبل نحو أشهرٍ ثلاثة.

وترملت زهرةُ قريش: آمنة بنت وهب، ولما يزل فى كفَّيها خضاب العرس.

وانفض المأتم، لكن القوم لم يفرغوا من صاحبه الثاوى فى لحده بعيدًا فى ثَرى يثرب.

من كان يظن، حين نُحرت عنه الإبلُ المائة، أن المنايا واقفة بالمرصاد لهذا المفتدى؟

وخيف على آمنة من وطأة الحزن، وقد رفضت أن تقبل فى فقيدها العزاء، ولبثت مكة شهرًا وبعض شهر، ترقب فى قلق إلى أين ينتهى الحزن بالأرملة العروس...

حتى كانت ليلة من ليالى شوال، أحاط فيها العُواد من آل هاشم وعبدالمطلب وبنى زهرة بفراش آمنة، وهى لا تفتأ تسأل كل عائد منهم وعائدة:

– فيم كان فداؤه والموت منه وشيك؟ وفيم كان العرس المشهود ويد القدر تخط له لحده بيثرب، والمنايا تحث خطاها نحوه؟

وأغفت مجهدة من إعياءٍ، وعيون الساهرين عليها.

ولم تطل غفوتها، أيقظتها منها انتفاضة مرهفة، وقد أحست خفقة حياة جديدة فى أعماقها، فأشرق وجهها بنور الإلهام، وكأنها عرفت سر الذى كان:

إن عبد الله لم يُفتد من الذبح عبثًا..

كانت مهلة، ما بين فدائه وموته، أودع فيها عروسه آمنة هذا الجنين الذى تحس نبض حياته

فى رحمها، والذى من أجله يجب أن تتجلد وتعيش.

ومن تلك اللحظة، أنزل الله سكينته عليها فطوت حزنها وشجنها، وبدأت تفكر فى هذا الجنين الذى يعطى حادث الفداء تفسيره ومنطقه، ويجعل لوجودها بعد عبد الله، قيمة ومعنى...

* * *

مضت فترة الحمل والجزيرة العربية تموج بإرهاصات عن نبى منتظر حان زمانه، وما أرتاب فى أن آمنة ألقت إليها كل سمعها وفكرها، فما نسيت قط أن زوجها هو الذى أوثر من دون بنى عبد المطلب، صفوة العرب العدنانية، بمجد الفداء الذى لم يتكرر منذ افتدى جدُّهم الأعلى إسماعيل بن إبراهيم الخليل. عليهما السلام.

وفى سمعها كذلك صدى لم يغب من حكاية النساء اللائى عرضن أنفسهن على عبد الله يوم فدائه - وفيهن الكاهنة من خثعم، وأخت ورقة بن نوفل الذى قرأ الكتب وبشر بنبى منتظر - وكلامهن عن النور الذى انتقل من عبد الله إثر زواجه، والغرة التى ذهبت بها بنت وهب فلم تدع لغيرها من النساء فى عبد الله مأربًا...

ثم هى قبل هذا كله، سيدة من صميم البيت القرشى الذى يحظى بالسيادة فى أم القرى، وينفرد بشرف الوظائف الدينية الكبرى فى مثابة حج العرب ومهوى أفئدتهم...

ومن شأن النساء فى هذه البيئة أن يرجون للأجنة فى بطونهن، مجدًا لم يكن لأحدٍ من قبل.

وعلى مدى شهور الحمل، لم تغب عن السيدة آمنة رؤاها فيما سيكون لابن عبد الله من شأن عظيم، ولم تتخل عنها هواتف البشرى بأمومتها لهذا اليتيم الهاشمى الذى لم يزل يتنقل من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفى مهذبًا، وتلقى ميراث آبائه الهاشميين وأخواله الزهريين، واجتمع له عِزُّ المنافَيْن «عبدِ مناف بن قصى بن كلاب» جده الثالث لأبيه، و«عبدمناف بن زهرة بن كلاب» جد أمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب[1].

وكُتاب السيرة النبوية ومؤرخو الإسلام الأولون، ينقلون أخبار تلك الهواتف والرؤى عمن لا يتهمون من الأخباريين والرواة.

وقد يتشكك فيها بعض المحدِّثين، وقد يرفضها آخرون منهم رفضًا عقيمًا، فلا نجادل هؤلاء

---

(١) نسب قريش: ١٤، وجمهرة أنساب العرب: ١٢ ذخائر.

ولا هؤلاء، إلا أن يتكلموا باسم العصرية والعلم فيعدوها من «الخرافات التي لا يقبلها عقل» كما قال «بودلي في كتابه (الرسول)[1] - ﷺ.

ومن عجب أن ينكروا على «السيدة آمنة، أم محمد» ما جاز على سائر الأمهات من البشر، وكأن ليس من حقها أن تستشرف رؤاها لجنينها، حفيد المنافين وابن الذبيح المفتدى، إلى أقصى ما تسعف عليه بيئة يعرف تاريخ العرب عزّها وشرفها وعراقتها، وظروف فريدة حفّت بهذا الجنين، لم تعرف دنياه لها مثيلاً.

وإنما الذي يرفضه العقل حقًا، هو أن نجرد «آمنة» من بشريتها وأماني أمومتها، وكل الحوامل قبلها وبعدها عرفن ويعرفن الهواتف والرؤى في فترات الحمل، وإنما يتفاوت مدى الطموح فيها، بقدر ما تسعف عليه ظروف كل حامل، وتحتمله بيئتها وتستشرفه آمالها.

* * *

من نبض حياته في كيانها، كانت تستمد طاقة الحياة.

ومن هواتف البشرى في تأملاتها ورؤاها، كانت تجد ما يؤنس وحشتها ويهون عليها تجربة الحمل الأولى.

حتى إذا أوشك حملها أن يتم أجله، رُوِّعت كما روِّعت الجزيرة كلها، بغزو «أبرهة الحبشي الأشرم» لأم القرى، يريد أن يصرف عنها حجَّ العرب، إلى كنيسة بناها في «صنعاء» وجلب إليها «الرخام المجزع والحجارة المنقوشة بالذهب، من بقايا قصر بلقيس، وكان على فراسخ من موضع الكنيسة، وفيه البقايا من آثار مملكة سبأ. ونصب أبرهة الأشرم في كنيسته صلباناً من الذهب والفضة، ومنابر من العاج والآبنس، وكتب إلى مولاه نجاشي الحبشة يسترضيه: إني قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها لمليك كان قبلك، ولست بمنتهٍ حتى أصرف إليها حج العرب»[2].

وإذ رأى أمير مكة «عبد المطلب بن هاشم» ألا قِبَل لأهلها بالجيش الزاحف، رأى أن يتحرز

---

(١) ص ٢٥ من الترجمة العربية للسحار، وقد ناقشت هذه القضية مزيد تفصيل في الفصل الخامس من كتابي (أم النبي ﷺ) ط دار الهلال بالقاهرة، وطبعة الأهرام لكتابي (تراجم سيدات بيت النبوة: الجزء الأول).

(٢) انظر سبب غضب النجاشي - وكان له ملك اليمن - على أبرهة الذي عدا على عامله «أرياط» وانتزع منه اليمن، وما كان من محاولته استرضاء النجاشي، في. السيرة لابن إسحاق، رواية ابن هشام، مع الروض الأنف ٦١/١ ومابعدها.

بهم فى شعف الجبال والشعاب تخوفًا من معرة الجيش الذى جاء به «أبرهة» من اليمن.

وشقَّ على «آمنة» أن تضع وليدها بعيدًا عن الحرم المكى، وعن دار أبيه عبدالله بن عبدالمطلب، ولاذت بإيمانها بأن الله مانع بيته، فليس لطاغية الأحباش إليه من سبيل. فقرَّ عزمها على ألا تبرح مكانها فى جوار الحرم، إلى أن يقضى الله أمره.

وفيما كانت تحسب حسابًا لما يُتوقع من مجرى الأحداث، جاءتها البشرى بأن الله سلَّط على الغزاة أصحاب الفيل نقمته، فانتشر فيهم وباء غريب حاصد، رمتهم بجراثيمه المهلكة طير أبابيل ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾.

ولم تكن أرض العرب قد شهدت وباءَ الحصبة والجدرى قبل ذلك العام المشهود، فيما روى «ابن هشام» فى (السيرة النبوية) عن «ابن اسحاق».

«وقد ولى الأحباش مذعورين يتساقطون بكل طريق ويهلكون بكل مهلك... وأبرهة معهم ينتثر جسمه وتسقط أنامله أنملةً أنملةً»[1].

وأقبلت قريش على كعبتها المقدسة تطيف بها ملبيةً عابدة، وتجاوبت آفاق البلد الأمين بدعوات المصلين وتلبيات المحتفلين وأناشيد الشعراء.

وآمنة فى بيت عبد الله، تصغى إلى ما يبلغ سمعها من دعاءٍ وهتاف، فتحس سكينة وغبطة: أن استجاب الله لها فلن تضع وليدها بعيدًا عن الحرم الآمن.

* * *

بعد فترة قصيرة من هلاك أبرهة عام الفيل، ذاعت فى أم القرى بشرى المولد، فجر «يوم الاثنين، لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول عام الفيل» فى رواية ابن إسحاق.

حدد قوم هذه الفترة بخمسين يومًا «وهو الأكثر والأشهر» على ما نقل «السهيلى» فى (الروض الأنف)[2].

واكتفى آخرون بأن المولد كان فى عام الفيل.

* * *

جاءها المخاض فى وقت السحَر من تلك الليلة المقمرة، فأرهف شعورها بالترقب والتطلع،

---

(١) بتفصيل فى كتابى (أم النبى ﷺ) مستخلصا من أصول المصادر

(٢) وانظر الزرقانى فى المولد: ١/١٣٠، والنويرى فى نهاية الأرب ٦/٦٨ دار الكتب المصرية.

مع إحساس مرهف بتجربة الوضع التي طالما سمعت الأمهات يتحدثن عن آلامها ومخاطرها «وإن كانت تُحدِّث أنها لم تجد حين حملت به ما تجده الحوامل من ثقل ولا وَحَم»[1] لكنها ما لبثت أن صرفت بالها كله إلى ما يغمر الدنيا حولها من نور بازغ، وصرفت سمعها كله إلى هواتف البشرى، فتجلدت للحظة الحاسمة.

وما كاد نور الفجر يهل على الأفق، حتى كانت قد وضعت وليدها كما تضع كل والدة من البشر.

وتألقت دنياها نورًا وأُنسًا، وهى ترنو إلى وليدها المبارك، وتذكر به أباه الحبيب الذى أودعها إياه ثم ودعها ورحل...

* * *

وكانت مكة حين ذاعت فيها بشرى مولد ابن عبد الله، ما تزال تحتفل بما أُتاح الله لها من النجاة من أصحاب الفيل، من حيث لا تحتسب، فرأى القوم فى مولد محمد آنذاك، آيةً تذكر بأخرى، يوم اختير أبوه عبد الله قربانًا لرب الكعبة، ثم افتدى بالإبل المائة.

وإن لم يتوقع أحد فى مكة، أو فى الدنيا كلها يومئذ، أن تلك الليلة المقمرة الغراء من شهر ربيع الأول عام الفيل، التى وُلد فيها أُلوف وأُلوف من شتى الأجناس والألوان ومختلف الملل والمذاهب ومتفاوت الطبقات والدرجات، قد خلدت وبوركت بمولد يتيم هاشمىٍّ فى أُم القرى، ابن امرأة من قريش تأكل القديد، يُصطفى للنبوة فتكون رسالته ختام رسالات الدين كله، وتغدو أقواله وأفعاله وتقريره، سُنَّةً وشريعة لملايين الناس على امتداد الزمان والمكان...

* * *

(١) أسنده ابن عبد البر فى الاستيعاب، كتاب النساء، والطبرى فى (التاريخ) عن عثمان بن أبى العاص عن أمه «أم عثمان الثقفية – واسمها فاطمة بنت عبد الله – وقد حضرتْ مولد المصطفى الهاشمى. مع (الروض الأنف: فصل فى المولد)

مِن مَهدِ مَولِده إلى غَارِ حِرَاء

﴿ وَٱلضُّحَىٰ ① وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ② مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ③ وَلَلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ④ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ⑤ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ⑥ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ⑦ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ⑧ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ⑨ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ⑩ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ⑪ ﴾

صدق الله العظيم

* * *

ومضى التاريخ لم يطل الوقوف بمكة مهد مولده.

شغلته عنها وعن يتيمها الهاشمي، أحداث جسام كانت تجرى على مسرح الدنيا فى الثلث الأخير من القرن السادس لميلاد المسيح عليه السلام.

وراح يرصد نذُر الانهيار فى عالَمٍ يريد أن ينقضَّ،

ويتابع الجولاتِ الأخيرةَ للصراع بين قطبى ذلك العالَم القديم، حيث كانت دولتا الفرس والرومان تخوضان حربًا طاحنةً، على مراكز القوى والسلطة والاستغلال والنفوذ.

وإحدى الدولتين قد أعشت نار المجوسية بصرها وبصيرتها، فما عاد يعنيها سوى أن تجعل من ساحة الشرق كله معبدًا لتلك النار، تصلاها شعوب المنطقة بالعسف والإكراه.

والأخرى قد أثخنتها جراح الحروب وهدَّتها أمراض الشيخوخة، واستنزفت بقايا قوتها فتنةُ الصراع الطائفي بين القائلين بناسوتية السيد المسيح والقائلين بلاهوتيته، فتهاوى النسر الروماني على الأرض يجثم على أنفاس خلق الله، ويتسلط على مستعمراته فى الشرق الأوسط، والشمال الإفريقي، بالإرهاب والطغيان، فى محاولة يائسة تستبقى له من الهيبة ما يستر وهَنه، ويعوضه عن قواه المستنزفة.

* * *

حتى بلغ ذلك اليتيم الهاشمي المكي الأربعين من عمره، وتلقى رسالة الوحي في شهر رمضان بعد ستة قرون ونحو من عشر سنين من ميلاد المسيح عليه السلام، فالتفت التاريخ إلى مكة، وتوقف برهة يجمع كلَّ ما وعت ذاكرتها عن ذلك المصطفى وآبائه وعشيرته، وعاد يصحبه من مهد مولده في دار أبيه عبد الله بجوار البيت العتيق.

ولم تكن ذاكرة مكة قد أفلتت شيئًا ذا بال، من أخبار يتيمها الهاشمي من مولده إلى مبعثه، وقد تعلقت به تتابع خُطاه على درب الحياة.

وهي التي أعطت التاريخ ما احتاج إليه بعد المبعث، من أخبار سيرته في المراحل الأولى من حياته، إذ تفد المراضع من بني سعد بن بكر ليحملن رضعاءَ قريش بعيدًا عن جو مكة القاسي، ويُعرَضُ عليهن «محمد بن عبد الله» فيزهدهن فيه يُتمه، وأنْ لم يكن ذا ثراء يكافئ نسبه الشريف في البيت الهاشمي القرشي، وقد مات أبوه في مقتبل العمر قبل أن يتأثل لنفسه مالاً، لم يترك لولده اليتيم وأمه، سوى جاريته الحبشية «بركة، أم أيمن» وقطعة يسيرة من الإبل والغنم.

وأحزن «آمنةَ» أن ترى المراضع يوشكن أن يرجعن إلى البادية زاهدات في وليدها الشريف اليتيم، مؤثراتٍ عليه أطفالَ أثرياءِ الأحياءِ ممن يُرجى منهم الخير الوافر.

غير أن واحدة منهن: «حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية، زوج الحارث بن عبدالعُزّى، من سعد بن بكر بن هوازن»، رجعت إلى أم محمد تطلبه رضيعًا لها، بعد أن انصرفتْ عنه أول ذاك النهار كسائر المراضع. وحفظت مكة من قصة الرضاعة، ما نقله التاريخ بعد المبعث، من رواية عبد الله بن جعفر الطيار الهاشمي رضي الله عنهما – فيما أسند عنه محمد بن إسحاق – قال:

«كانت حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية أم رسول الله ﷺ التي أرضعته، تحدث أنها خرجت من بلدها، بادية بني سعد، مع زوجها وابنٍ لها صغير ترضعه، في نسوة من بني سعد بن بكر تلتمس الرضعاءَ. قالت: وذلك في سنة شهباءَ لم تبق لنا شيئًا. فخرجتُ على أتانٍ لي – عجفاءَ – معنا شارفٌ لنا – ناقة مسنة – والله ما تبضّ بقطرة، وما ننام ليلتنا أجمع من صبيِّنا الذي معنا، من بكائه من الجوع، وما في ثَدْيَيَّ ما يغنيه، وما في شارفنا ما يغذيه. ولكنا كنا نرجو الغيث والفَرج. فخرجتُ على أتاني تلك، حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاءَ، فما منا امرأة إلا وقد عُرِض عليها محمد – رسول الله ﷺ – فتأباه إذا قيل لها إنه يتيم، وذلك أنا إنما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي فكنا نقول: يتيم؟ وما عسى أن تصنع أمه وجدُّه؟

«فما بقيتْ امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعًا، غيري، فلما أجمعنا على الانطلاق قلتُ

لصاحبى: والله إنى لأكره أن أرجع من بين صواحبى ولم آخذ رضيعًا. والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه...

«قال: لا عليكِ أن تفعلى، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة.

«فذهبت إليه فأخذته، وما حملنى على أخذه إلا أنى لم أجد غيره. فلما أخذته رجعت به إلى رحلى، فلما وضعته فى حجرى أقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن، فشرب حتى رَوِىَ، وشرب معه أخوه حتى روى. ثم ناما وما كنا ننام معه قبل ذلك. وقام زوجى إلى شارفنا تلك فإذا هى حافل، فحلب منها ما شرب، وشربت معه حتى انتهينا رِيًّا وشبعًا، فبتنا بخير ليلة...

«يقول صاحبى حين أصبحنا: تعلَّمى والله يا حليمة، لقد أخذتِ نسمة مباركة.

فقلت: والله إنى لأرجو ذلك.

ثم خرجنا وركبت أتانى وحملت محمدًا عليها معى، فوالله لَقطعتُ بالركب ما يقدر عليها شىء من حُمُرهم، حتى إن صواحبى ليَقُلن لى: - يا ابنة أبى ذؤيب، ويحك، اربعى علينا؛ أليست هذه أتانك التى كنت خرجت عليها؟

فأقول لهن: بلى والله، إنها لهى هى...

فيقلن: والله إن لها لشأنًا.

«ثم قدمنا منازلنا، من بلاد بنى سعد، وما أعلم أرضًا من أرض الله أجدب منها. فكانت غنمى تروح علىَّ، حين قدمنا بمحمد معنا، شباعًا لبنًا فنحلب ونشرب، وما يحلب إنسان غيرنا قطرة لبن، ولا يجدها فى ضرع. حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم: ويلكم، اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب!

فتروح أغنامهم جياعًا ما تبض بقطرة لبن، وتروح غنمى شباعًا لبنًا. فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير، حتى مضت سنتاه وفصلته».

* * *

وحفظت مكة للتاريخ من أخبار صباه، رحلته مع أمه إلى يثرب فى السادسة من عمره: كانت متشوقة إلى زيارة قبر والده الثاوى هناك، وقد طال عليها الانتظار ريثما جاوز صغيرها مرحلة الطفولة الغضة، ليحتمل مشقة الرحلة، وفى يثرب تُعرِّف إلى أخواله بنى النجار، وانطلق مع لداته من صبيتهم فى دروب المدينة التى ستكون دار هجرته.

وأمضت أمه أيامها على قبر الحبيب، تبث طيفه أشجانها ومواجدها ونجواها، وتتزود لفراق لا تدرى كم يطول.

فى طريق العودة إلى مكة، ألمت بها وعكة طارئة لم تطل: انطفأت فيها الحياة بين يدى صغيرها اليتم، وعلى مرأى منه أضجعوها فى لحد حفروه لها بقرية «الأبواء» وهالوا عليها الرمال...

واستأنف سيره، مع «بركة» مولاة أبيه، إلى مكة محزونًا مضاعف اليتم، ليروع بعد قليل بموت جده عبد المطلب الذى كان له أبًا، وينتقل إلى دار عمه «أبى طالب» فيجد فيه العوض عن جده وأبيه، ولا عوض عن الأم!

وتمضى الأعوام وقلبه ينزع نحو مرقدها الأخير بالأبواء، ولم يستطع ضجيج الحياة فى أم القرى أن ينسيه مشهد موتها الفاجع، أو يبعد عن مسمعه حشرجة احتضارها فى الفلاة[1]..

ويبلغ مع عمه مبلغ السعى، فيصحبه معه فى رحلة قريش إلى الشام، ثم يقترح عليه بعدها أن يخرج إلى الشام فى مال «السيدة خديجة بنت خويلد» فتبدأ مرحلة جديدة من حياة الشاب الهاشمى، تملأ أعوامه ما بين الخامسة والعشرين، والأربعين، بنعمة الزوجية السعيدة الهانئة، وتقر عيناه بثمرتها المباركة القاسم وعبد الله وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة[2].

وأرخى الزمن للزوجين السعيدين خمسة عشر عامًا، ارتوى فيها الشاب الهاشمى من نبع الحنان معوضًا حرمان ماض ظامئ، ومتزودًا لغد مقبل، حافل بالجهاد والشواغل الجسام.

ووعت مكة من أخبار تلك المرحلة، مشهد محمد بن عبد الله إذ يدخل البيت العتيق ذات يوم، وهو فى نحو الخامسة والثلاثين من عمره، فإذا الأحياء من قريش هناك فى ساحة الحرم، قد احتدمت بينهم خصومة أنذرت بشر:

كانت الكعبة، قبل ذلك اليوم، قد مستها شرارة تطايرت من مجمرة إحدى النساء، فأحرقت ستائرها وأوهت بنيانها... ووقفت قريش تجاه حرمها الأقدس مكتوفة الأيدى لا تدرى ماذا تصنع، حتى شاع خبر عن سفينة رومية جنحت إلى جدة، فسعى إليها رجال من قريش، وعادوا بأخشاب السفينة، ومعهم رجل قبطى من مصر، كان فيها، نجار بناء.

(١ ، ٢) بتفصيل فى كتابىْ: (نساء النبى، وبنات النبى - صلى الله عليه وعلى آله وسلم) منفردَيْن، وفى مجموعة (تراجم سيدات بيت النبوة، رضى الله عنهن) الجزأين الثانى والثالث: مطابع الأهرام بالقاهرة

وتم الاستعداد لتجديد الكعبة، ولكن قريشًا عادت فتهيبت أن تهدم بقايا البناء القديم، حتى قام «الوليد بن المغيرة المخزومي» فأخذ المعول وقال:

«اللهم لم نزغ، اللهم إنا لا نريد إلا الخير».

ثم أهوى بالمعول والقوم ينظرون إليه مرتاعين، خائفين عليه وعلى أنفسهم جميعًا. فلما لم يُصبه سوء، أبوا إلا أن يتربصوا به ليلتهم تلك ليروا عاقبة ما كان.

وأصبح «الوليد» بخير لم يمسسه سوء، فهدم وهدم الناس معه.

وتنافست القبائل فى العمل، وشارك «محمد» فيه فكان ينقل الحجارة مع الناقلين. حتى إذا تم البناءُ، اختلفت أحياءُ قريش، فيمن يكون له شرف رفع الحجر الأسود إلى موضعه، ومكثت على الخصومة أربع ليال أو خمسا، ونذر الخطر تشتد منذرة بحرب، لولا أن اقترح عليهم «أبوأمية بن المغيرة المخزومي» - زاد الركب، والد أم سلمة رضى الله عنها، وهو يومئذ أسنّ قريش - أن يحكّموا بينهم أول مَن يدخل من باب المسجد الحرام. فقبلوا، وتعلقت عيونهم بالباب، فكان محمد بن عبد الله أول من دخل.

قالوا جميعًا حين رأوه:

«هذا الأمين، هذا محمد بن عبد الله الهاشمي، رضينا بحكمه».

وحدثوه عما اشتجر بينهم من خلاف، فطلب ثوبًا ثم تناول الحجر الأسود فوضعه بيده فى الثوب وقال:

«لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوه جميعًا»

ولما بلغوا موضع الحجر، وضعه الأمين بيده، نقلًا من الثوب.

ثم آب إلى بيته، فكان أول ما استقبله هناك، بشرى مولد ابنته فاطمة، فاقترن مولدها بنجاة قريش، على يد الأمين، مما كان يُخشى عليها من صدام وحرب[1].

* * *

بعد ذلك المشهد فى البيت العتيق، يرهف التاريخ سمعه مستوعيًا أخبار مكة وبشريات المبعث رانية إلى «محمد» قبيل بلوغه الأربعين من عمره، ويمعن النظر فى آثار خطاه ما بين بيته

---

(١) ابن إسحاق: السيرة النبوية، رواية ابن هشام. مع الروض الأنف: ١/٢٥٥، ١/٢٠٩.

في جوار الحرم، وغار حراء بظاهر أُم القرى، حيث اعتاد الأمين أن يعتزل الناس ليخلو إلى تأملاته، بعيدًا عن ضجيج المجتمع وصخب الزحام.

وآن للتاريخ أن يمضي مع المصطفى في عصر المبعث، على معبر التحوّل الخطير ما بين ليل الجاهلية وفجر الإسلام....

* * *

(٢)
مع المصطفى ﷺ فى دَارِ مَبعَثِه

- مع المصطفى ﷺ فى ليلة القدر.
- السابقون الأولون.
- والليل إذا يغشى ..
- أم يقولون افتراه ؟
- هجرة إلى الحبشة.
- الحصار... وعام الحزن.
- الإســــراء.

مع المصطفى ﷺ فى ليلة القَدر

﴿ .... سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝ ﴾

صدق الله العظيم

* * *

غشي الكون ليلٌ ثقيل، ولفَّ أمَّ القرى صمتٌ مكدود لا يكاد يُسمَعُ فيه غير أنفاس الليل مختلطةً بهمهمة صلواتٍ وثنية، كانت ما تزال تتردد فى البيت العتيق...

وقمرُ رمضان قد توارى واحتجب، فليس على الأُفق المعتم سوى ضوء شاحب تكاد تحجبه عن مكة جبالُها الصخرية التى تبدو كأنها كتل ماردة من ظلمات متكاثفة متراكمة...

ونامت الدنيا، لا تلقى بالاً إلى رجل من بنى هاشم، ابن امرأة من قريش تأكل القديد، قد أوى إلى غارٍ هناك مستغرقًا فى تأمله، يلتمس فى العتمة الداجية شعاعًا من نور الحق، وينشد فى خلوته أُنسَ الهدى وراحةَ اليقين، وخواطره تحوم حول البيت العتيق الذى رفع إبراهيم القواعدَ منه وإسماعيل وطهراه للطائفين والعاكفين والركع السجود، فلم يلبث أن صار مع الزمن مثوى لأوثان شائهة ممسوخة، لكل قبيلة من العرب وثنها تحج إليه وتطيف به وتلبى عنده، وترفع إليه الدعاة وتقدم القرابين....

وغير بعيد من غار حراء، هجعت مكة تجتر ذكريات مجدها الدينى الغابر طوته وثنية عمياء، وتساورها من حين إلى حين رجفة من قلق الوعى، لا تلبث أن تهمد تحت وطأة الكابوس الجاثم؛ لا تحسب حسابًا لهذا المختلى فى غار حراء، وقد أَلِفت أن تراه ينسحب من زحام المجتمع المكى، عازفًا عن تلك الأوثان التى يعبدها قومه، لأنهم وجدوا آباءَهم لها عابدين...

وماذا على القوم أن عزف «محمد بن عبد الله» ﷺ عن أوثانهم وأَبَى أن يعبدها؟ كذلك فعل نفر غيره من الحنفاء، ليس عددهم بالذى يدخل فى الحساب بزيادة أو نقصان، فى الحشود من الحجيج الذين يتثالون إلى مكة من كل فج عميق، ليطيفوا بأوثانهم فى البيت العتيق ويؤدوا طقوس عبادتهم ومناسك حجهم...

وأوغل الليل قبل أن يطلع فجرُ هذه الليلة من رمضان، وينتشر نـوره البهى على القمم والسفوح والأودية والقيعان، فيضيء الظلمة الداجية.

ومع نور الفجر الوليد من الليلة الغراء، تجلى الوحى للمختلى فى الغار، وألقى إليه الكلمة: ﴿اقرأ﴾

وما كان محمد بقارئ، وما كان يتلو من قبله من كتاب ولا يخطه بيمينه.

وتكررت كلمة الوحى الأولى ﴿اقرأ﴾ وهو لا يدرى ماذا يقرأ حتى قال أمين الوحى:

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤ ﴾

* * *

وبدأ تاريخ جديد:

الرجلُ الذي سرى فى الليل إلى غار حراء، على مألوف عادته منذ أنكر موضع الأصنام فى البيت العتيق، وأيقن أن حياة الناس لا يمكن أن تمضى هكذا على سفهٍ وضلال، خرج مع الفجر من الغار، نبيًّا مبعوثًا بختام الرسالات.

والكلماتُ الأولى التى تلقاها فى تلك الليلة من وحى ربه، كانت بداية كتاب معجز، وآية نبىٍّ بشر، ولواء عقيدة وجّهت التاريخ وحررت الإنسان، وصنعت أمة وقادت حضارة...

خرج المصطفى ﷺ من الغار، واتجهت به خطاه نحو بيته، والكون من حوله ساج خاشع، وعلى الأفق الأعلى نور الفجر الجديد ينسخ ظلمات ليل طال، ويوشح البيت العتيق بسنىً وضاء، يكشف عما تكدس فى رحابه من أصنام وأوثان، فتبدو على حقيقتها العارية، ممسوخةً شائهة بلهاء...

وكان لها من ظلام الليل سِترٌ كثيف أصمٌّ، يخدع البصر ويزيّف الرؤية....

* * *

النور ملءُ قلبه وبصيرته، والكلمات ملءُ فكره ومسمعه...

---

(١) حديث بدء الوحى بطوله، متفق عليه من رواية الزهرى عن عروه عن السيدة عائشة رضى الله عنها، وانظر رواية ابن إسحاق فى السيرة الهشامية مع الروض الأنف: (مبعث النبى ﷺ).

ولكنه فى حيرة من أمره، يُعنيه أن يستوعب السر الأعظم الذى تجلى له، ويأخذه من جلاله ما يشبه الدوار، فيكاد لفرط دهشته وعجبه وانبهاره، لا يدرى ما إذا كان فى وعى يقظته، أم تلك رؤيا بصيرة أرهفها طول التأمل فى آيات القدرة، وطول التطلع إلى اجتلاء سر هذا الكون وخالقه؟

وأحس وطأة العبء الثقيل تجهده وترهقه، فما بلغ بيته حتى بدا مكدودًا مرتعدًا شاحبًا، كأنه عائد من سفر شاق طويل...

ولمحها هناك فى انتظاره: «خديجة» التى كانت له على مدى خمس عشرة سنة زوجًا وأمًا، وكانت له منذ تزوجها ملاذًا وسكنًا...

ودون تفكير أو تردد، ألفى نفسه يفضى إليها بما رأى وما سمع، وهو يمعن النظر فى ملامحها إذ تصغى إليه بسمعها وقلبها، محاولاً أن يستبين وقع هذا الأمر على أقرب أهله إليه، وأعزهم عليه، وأصفاهم له ودًا وأرشدهم نصحًا ورأيًا...

وقالتها على الفور، بصدق اليقين والثقة:

«الله يرعانا يا أبا القاسم. أبشِرْ يا ابنَ عمٍّ واثبُتْ، فوالذى نفسُ خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبيَّ هذه الأمة. واللّهِ لا يخزيك اللّهُ أبدًا، إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق».

فتفذ صوتها الواثق إلى قلبه، وأحس راحة الأمن والطمأنينة، وزوجه تقوده فى رفق وحنو إلى مضجعه فتدثره وتبقى إلى جانبه رانية إليه حانية عليه حتى ينام...

* * *

«نبيّ هذه الأمة»؟!

ما الذى ألقى إلى بال «السيدة خديجة بنت خويلد الأسدية القرشية»، بتلك الكلمة الكبرى، حين كانت الوثنية غاشية، والعرب قبائل شتى والناس طوائف وأممًا متناحرة متناكرة؟

أهى من تعبير التاريخ الإسلامى عن إدراك أم المؤمنين الأولى لجلال الأمر وبُعد نظرها لما بعده، بمجرد أن سمعت زوجها المصطفى ﷺ يحدثها عن أول الوحى؟

أم كانت الكلمة تعبيرًا عن واقع -لم يكن قد انجلى بعدُ تمامًا فى تلك الليلة من رمضان- يمثل موقف زوج المصطفى الأولى، فى ضوء الواقع التاريخى بعد ليلة القدر؟

لا أرى الكلمة غريبة على الموقف، فما كانت السيدة خديجة وهي من صميم قريش وجيرة الحرم، بحيث يفوتها شيء مما ماجت به بيئتها قبيل المبعث من تطلعات إلى تحول خطير رنا إليه حكماءُ العرب وحنفاؤهم وشعراؤهم، ومن إرهاصات عن نبي جديد حان مبعثه تناقلها الرواة والأخباريون عن رهبان النصارى في الشام ونجران، وأحبار يهود في يثرب وما حولها، شماليّ الحجاز.

ومكة على الخصوص، كانت المركز الذى تتلاقى فيه تلك التطلعات والإرهاصات، وتتجمع روافدها من هنا ومن هناك وهنالك، لتصب حول البيت العتيق، وتحوم حول حيٍّ بعينه من أحياء قريش هو حي بني هاشم بن عبد مناف بن قُصي، وترنو إلى شخص بذاته من الهاشميين، هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم.

وقد كان لمكة من واقعها ورؤاها وذكرياتها، ما تضيفه إلى تلك الإرهاصات الوافدة من شمال وجنوب وشرق...

فمن عهد إبراهيم وإسماعيل، وبيتها العتيق مثابة الحج والعبادة، يرتفع منه الدعاءُ «لبيك اللهم لبيك» فتتجاوب به أوديتها والبطاح، وتخشع له جبالها الصخرية، وتعنو هامات البدو الصلاب أبناءِ الصحراء.

ومع الزمن تأصلت حرمة ذلك البيت العتيق، ورسخت تقاليد إعظامه وطقوس إجلاله، ومنه أخذت قريش مكانة السيادة لجوارها الحرم المكي، واستأثرت بوظائف الشرف الدينية، وراثة عن جدها قصي بن كلاب المضري العدناني[1].

وإذا كانت مكة قد استرجعت بفداءِ عبد الله بن عبد المطلب، ذكرى الفداءِ الأولى لإسماعيل جد العرب العدنانية، فليست بحيث يفوتها غداة ليلة القدر، أن تربط ما بين محمد بن عبدالله، وإسماعيل بن إبراهيم، برباط نسجته يد الزمن على مدى قرون وأدهار...

وتربطها كذلك، في وعي السيدة خديجة، بما آنست من شمائل زوجها وما رأت من ميله إلى التأمل والخلوة في غار حراء، وما عرفت من رفضه الأصنام التي تكدست في الحرم، ومن حيرته في أمر قومه : كيف ضلت عنهم أحلامهم فنسوا أنهم الذين صنعوا الأوثان بأيديهم، وجعلوا منها آلهة وأربابًا مع الله!

---

(١) انظر ما استحدثه «قصي بن كلاب» من وظائف دينية للحرم، في مطلب (غلبة قصي على أمر مكة وجمعه أمر قريش) في سياق النسب الزكي من السيرة الهشامية، مع الروض الأنف: ١٤٧/١

في هذا كله كانت «السيدة خديجة رضي الله عنها» تفكر، وهي تخرج من البيت إثر سماعها بشرى الوحي، ساعية إلى ابن عمها «ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي» تلتمس لديه الرأي، وترجو أن تجد من علمه بالكتب والأديان ما تطمئن به إلى حقيقة الفكرة الملهمة التي سيطرت على وعيها المرهف وبصيرتها الثاقبة: أن يكون زوجها المصطفى نبي هذه الأمة.

وقال ورقة بن نوفل، وهو لا يتهم سمعه:

«قدوس قدوس» والذي نفس ورقة بيده، لئن كنت صدقتني يا خديجة، لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى وعيسى، وإنه لنبي هذه الأمة، فقولي له فليثبت».

* * *

السَّابقونَ الأوّلُونَ

﴿ .... وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

(صدق الله العظيم)

* * *

أصبحت مكة غداة ليلة القدر، وليس على وجه الأرض كلها من يدين برسالة النبي المصطفى ﷺ، سوى زوجه السيدة خديجة بنت خويلد القرشية الأسدية، أم المؤمنين الأولى رضي الله عنها[1].

ثم آمن ثلاثة:

اثنان منهم فتيان في مستهل الصبا، كان محمد عليه الصلاة والسلام ينزلها من بيته وقلبه منزلة الأبناء:

«علي بن أبي طالب» وكان محمد، بعد زواجه من خديجة واستقرار حياته المادية، قد ضمّه إليه ليخفف العبء عن كاهل أبيه العم أبي طالب، برًا بعمّه ووفاءً ببعض حقه عليه، وهو الذي كفله بعد وفاة جده عبد المطلب، وأسبغ عليه من رعايته وحنانه ما لم يحظ بمثله بنوه...

و«زيد بن حارثة» ولده بالتبني. وكانت أم زيد قد خرجت به صبيًا تزور أهلها، فضلّ منها في الطريق فالتقطه من باعه رقيقًا في إحدى أسواق العرب، واشتراه «حكيم بن حزام بن خويلد الأسدي» لعمته السيدة خديجة. فطابت لزيد الحياة في البيت الكريم. حتى جاء أبوه «حارثة بن شراحيل الكلبي» ينشد ولده بعد أن طال بحثه عنه. فترك «محمد بن عبد الله» الأمر كله لزيد: إذا شاء بقي حيث هو في بيت محمد على الرحب والسعة، وإن أراد ذهب مع أبيه حارثة.

---

(١) ترجمتها، رضي الله عنها، في المبحث الأول من كتابي (نساء النبي، ﷺ، منفرداً، وفي مجموعة (تراجم سيدات بيت النبوة رضي الله عنهن، الجزء الثاني) طبع الأهرام بالقاهرة.

واختار زيد محمدًا، فما لبث أن انطلق به إلى الملإ من قريش، وأشهدهم على أن زيدا ولده بالتبنى[1].

وأسلم كذلك «أبو بكر بن أبي قحافة: عبد الله بن عثمان التيمى» وكان له وضع آخر: إذ ليس هو من عشيرة المصطفى وذوى قرباه، ولا كان فى فتوة الصِّبا كعلى وزيد، وإنما هو من رجال بنى تيم بن مرة بن كعب، وقد بلغ سن الرجولة وأخذ مكانته فى المجتمع المكى القرشى، سيدًا مهيبًا وقورًا، مشهودًا له بالفضل والمروءة ودماثة الطبع ورجحان العقل، وكان أنسبَ قريش لقريش وأعلمها بأخبارها[2]. فلما سبق إلى الإسلام بمجرد أن دعاه المصطفى إليه، أظهر إسلامه ودعا إليه، فتوقعت قريش أن يكون لهذا الأمر ما بعده...

وصحَّ ما توقعتْ: استطاع أبو بكر بجاذبية شخصيته ووقار سِنه وسداد رأيه، أن يكسب للدين الجديد خمسة من رجال قريش الأعلام:

عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس؛ والزبير بن العوام بن خويلد الأسدى؛ وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وَقَّاص الزهريين، وطلحة بن عبيد الله التيمى...

فهؤلاء النفر الثمانية، هم طليعة السابقين الأولين الذين اختاروا لواءَ المصطفى وبدأ بهم الإسلام خطوته الأولى على الطريق الطويل.

ومنهم تأسست الكتيبة الأولى لحزب الله فى مستهل الدعوة، ليلقى العصبة الباغية من المشركين، وحزب الشيطان من المنافقين واليهود، فى صراعٍ مرير بين حق وباطل.

ولقد تهيب المصطفى عليه الصلاة والسلام فى أول الأمر أن يلقى قريشًا بدعوته جهرًا، فأسرَّ بها إلى من آنس فيهم الاستعداد لقبولها والإيمان بها.

وما أسرع ما استجاب له الموالى الأرقاءُ الذين وجدوا فى الإسلام ملاذًا لهم من الوضع المهين الذى مسخ آدميتهم وأهدر إنسانيتهم.

وكذلك أسلم عدد من أحرار المكيين، الرجال والنساء.

وكانوا إذا أرادوا الصلاة تحاشوا الكعبة، وتحاشوا كذلك أن يُصلوا فى بيوتهم، وذهبوا فى

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ١/٢٦٢. مع ترجمة زيد بن حارثة، رضى الله عنه، فى الإصابة.
(٢) انظر مناقبه فى (الصحيحين) وأوائله فى (كتاب الأوائل من مصنف أبي بكر بن أبي شيبة) مع ترجمته فى الإصابة.

الشعاب فاستخفوا بصلاتهم عن قومهم، إذ كانوا قلة، وفى دورهم مَن لا يدينون بغير ما وجدوا عليه آباءهم.

لكن أمر الإسلام لم يكن بحيث يخفى طويلًا بعد أن فشا. وتلقى الرسول المصطفى أمر الله سبحانه[1] فجهر بالدعوة وبادى قومه بها. ولعلهم استخفوا به أول الأمر، وكبُر عليهم أن يظهروا غيظهم منه. حتى ذكر المصطفى ﷺ آلهتهم وعابها، فناكروه وأجمعوا خلافه وعداوته، إلا القلة التى ترددت فيه...

ماذا تستطيع قريش، لمن آمنوا بمحمد - عليه الصلاة والسلام - من صميم بيوتها وسادة عشائرها ؟

لئن أعياها أن تثب عليهم أو تنالهم بأكثر من السخرية والمقاطعة والوعيد، لقد بقى المستضعفون من الموالى والعبيد تنفس فيهم عن قهرها وغيظها، وتتسلط عليهم بأبشع ضروب التعذيب والفتنة.

ولم يفتها وهى ترى مواليها يسارعون إلى الاستجابة للإسلام، أن تلمح ما وراءَ هذه البادرة من خطر يهدد الوضع الطبقى الذى قامت عليه حياة قريش جيلًا بعد جيل...

وقامت قائمة قريش، وائتمروا فيما بينهم فوثب كلُّ حيٍّ من أحيائها على من فيه من الموالى والعبيد الذين أسلموا، فكانوا إذا حميَت الظهيرة يخرجونهم إلى بطحاءِ مكة فيطرحونهم على ظهورهم، ثم يأمرون بالصخرة الضخمة فتُلقى على صدر الرجل منهم، ويقول له سيده:

- لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللاّتَ والعُزّى.

فيرد العبد المؤمن وهو فى هذا البلاءِ:

«أَحَد أَحَد».

فى الخبر أن رسول الله ﷺ مرَّ بآل ياسر وقد أخرجهم سادتهم من بنى مخزوم إلى بطحاءِ مكة وتفننوا فى تعذيبهم، فلم يستطع عليه الصلاة والسلام أن يدفع البلاءَ عن هذه الأسرة المؤمنة، وقال مواسيًا:

«صبرًا آلَ ياسر».

---

(1) فى سورة المدثر، رابعة السور فى ترتيب النزول، على المشهور. وانظر السيرة: ١/٢٨٠ هشامية، مع تاريخ الطبرى: ٢/٢٣٠.

وصبروا حتى استشهدت «سمية» وهى تأبى إلا الإسلام فكانت أول شهيدة فى الإسلام[١].

ورووا أن أبا بكر مرَّ بجارية لبنى عدى بن كعب، وعمرُ بن الخطاب - قبل إسلامه - يعذبها على جمر الصخور الملتهبة بالقيظ ليفتنها عن دينها، فما زال يضربها حتى ملَّ، فكفَّ عنها وهو يقول لها:

- إنى أعتذر إليك، فلم أتركك إلا عن ملالة!

وألح أبو بكر على عمر، حتى باعه إياها. فأعتقها لوجه الله كما أعتق عددًا غيرها من المستضعفين بعد أن اشتراهم.

قال له أبوه «أبو قحافة عثمان» يحاوره، ولم يكن قد أسلم:

- إنى أراك يا بنى تعتق رقابًا ضعافًا، فلو أنك فعلت ما فعلت، أعتقتَ رجالاً أشداء يمنعونك ويقومون دونك؟

ردَّ الصدِّيق أبو بكر:

- يا أبتِ، إنى إنما أريد ما أريد لوجه الله[٢].

فيُروى أن هذه الآيات من سورة الليل نزلت فيه[٣]:

﴿ .... إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾

(صدق الله العظيم)

* * *

---

(١) ترجمتها فى (الإصابة) مع كتاب الأوائل من (مصنف أبى بكر ابن أبى سيبة)

(٢) السيرة لابن هشام: ٣٤١/١.

(٣) تفسير الطبرى: سورة الليل.

أسلم «خبابُ بن الأرتّ» وأعيا قريشًا أن تفتنه عن دينه[1].

وكان من أمهر الموالى الصُّناع، يعمل السيوف بمكة للسادة القرشيين، وقل أن يجدوا مَن يدانيه حذقًا للصنعة وتواضعًا فى الأجر.

واحتاج فى محنة الفتنة والاضطهاد، إلى مالٍ يفتدى به نفسه، فذهب إلى السيد «العاص بن وائل السهمى» يتقاضاه أجر سيوف كان قد عملها له. فنظر إليه السيد الشريف مليًّا ثم قال يسأله ساخرًا:

– أليس يزعم محمد صاحبكم، هذا الذى أنت على دينه، أن فى الجنة ما ابتغى أهلها من ذهب وفضة ؟

ردَّ «خباب» لا يدرى وجه السؤال: بلى.

قال العاص بن وائل:

– فأمهلْنى إلى يومِ القيامة يا خباب، حتى أرجع إلى تلك الدار الآخرة فأقضيك هنالك حقك، فوالله لا تكون أنت وصاحبك محمد يا خباب، آثرَ عند الله منى ولا أعظم حظًّا من ذلك.

وانصرف خباب، وعِوَضُه على الله سبحانه.

وراح العاص بن وائل يباهى فى مجامع قريش بحيلته الذكية الماكرة التى أصاب فيها عصفورين بحجر واحد: أكل مال خباب عقابًا له على إسلامه، واستهزأ بدينه وصاحبه!

ولم يمض وقت طويل حتى كان المصطفى يتلو فى مكة من وحى ربِّه:

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ

---

(١) المشهور أن خباب بن الأرت تميمى النسب، خزاعى الولاء لحقه سباء فى الجاهلية، فاشترته امرأة من خزاعة وأعتقته. فولاؤه لها.

وانظر السيرة لابن هشام: ٣٨٣/١. والروض ٩٨/٢ وخباب، رضى الله عنه، هو الذى كان يقرئ فاطمة بنت الخطاب رضى الله عنها، القرآن الكريم

ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ
فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ
ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ
ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا
وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ
مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾
وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ
بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾

(صدق الله العظيم)

* * *

وَالليلِ إذا يَغشىٰ

﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

(صدق الله العظيم)

* * *

عجَبٌ أي عجب!

الجزيرة كلها كانت من سنين، تتحدث عن إرهاصات بنبي حان زمانه.

ومكة على وجه الخصوص، كانت تترقب أن يكون فيها مبعثه..

والعيون كلها كانت ترمقه في مهده وصباه وشبابه، رانية إلى ما تفرد به من مخايل وشمائل، متفائلة بيمنه وبركته...

ولكن الأمر حين جاء، كان أعظم من أن يُصدق وأخطر من أن يُتلقى بالتسليم والإقرار.

ولقد قالها «ورقة بن نوفل» للمصطفى، غداة المبعث:

– والذى نفسي بيده، إنك لنبي هذه الأمة، ولتُكَذَّبَن ولتُؤذين ولتُخْرَجَنّ...

سأله عليه الصلاة والسلام:

«أوَ مُخرجيَّ هم؟».

فقال ورقة:

– نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئتَ به إلا عودى[1]...

وكان «ورقة» ينطق بما قرأ من تاريخ الأديان، وعرف من طبيعة الشعوب والجماعات: لم يأت رجل قط بمثل ما جاء به محمد رسول الله ﷺ، إلا عُودى...

---

(١) السيرة ١/٢٥٤.

وليست العرب أقل عنادًا وتمسكًا بدين الآباء، من أمم قبلها كذبت بالحق لما جاءها.

وهذه قريش، لم تصدق سمعها حين جهر فيها المصطفى بدعوته. وكان فى حسابها أن تلقاه مجتمعة على الرفض والتكذيب.

أما وقد آمن به مَن آمن، فقد وجدت الكثرةُ الضالة ما تقوله تخديرًا لضميرها بمنطق عنادها ومقاييس مجتمعها:

ـ أيؤثَر «محمد بن عبد الله» بالنبوة، وما عرفت له قريش مالاً ممدودًا ولا بنين شهودًا، وإن عرفت له شرف المنبت وكرم الخلق ونقاء السيرة؟.

أينزل عليه هذا القرآن، ولا ينزل على رجل عظيم من أصحاب الثراء والعدد والجاه والنفوذ، فى مكة أو فى الطائف؟

لقد أمضى شبابه كله لم يجمع مالاً، ولا تهالك على ما كان قومه يتهالكون عليه من وظائف السيادة ومراكز الجاه فى المجتمع القرشى بأم القرى.

ثم هو أب لبناتٍ أربع، لم يولد له من البنين غير عبد الله والقاسم، وقد ماتا صغيرين فى سن الرضاعة. وزوجه خديجة شارفت سن اليأس بعد أن بلغت الخامسة والخمسين من عمرها، ولا يبدو عليه أنه يفكر فى أن يستبدل زوجًا أخرى مكانها أو يتزوج عليها، وهى أنس دنياه وموضع حبه وإعزازه، وحياتها الزوجية مضرب الأمثال فى حسن العشرة وصدق المودة وعمق التفاهم والإخلاص...

ولا تذكر قريش أنه شارك فيما يشغلها من صراع على مراكز القوى والجاه، إلا يوم جدّدت بناء الكعبة قبل المبعث بخمس سنوات، وارتضت حكمه فيما شجر بين قبائلها من خلاف على الحجر الأسود، حسمه الأمين بحكمته. ثم لم يعد المجتمع المكى يرى محمدًا فى الزحام، حتى مضت خمس سنين وخرج من غار حراء يتلو كلمات الوحى..

قال الوليد بن المغيرة المخزومى، أبو خالد:

– أينزل القرآن على محمد، وأُترك وأنا كبير قريش، ويُترك أبو مسعود عمرو بن عمير سيد ثقيف بالطائف، ونحن عظيما القريتين؟

وذاعت كلمته فى أهل القريتين: مكة والطائف، فتركتهم فى حيرة قد تشابه عليهم الأمر فى مقاييس العظمة التى يفضُل بها المصطفى، عظيمى القريتين.

وتلقى عليه الصلاة والسلام من كلمات ربه:

﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ۝٢٩ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝٣٠ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٣٢ ﴾

(صدق الله العظيم).

* * *

وكذلك أنكر «أمية بن أبي الصلت» أن يُصطفى محمد بن عبد الله نبيًا، وكان أمية يرى نفسه أهلاً لهذا الاصطفاء!

في أخريات الجاهلية، كان ابن أبي الصلت من الفئة القليلة التي أنكرت عبادة الأوثان، وهم الحنفاءُ الذين آنست فيهم أم القرى بقية ميراث من ذكرى دين إبراهيم الحنيف.

قالوا: ما حجرٌ نطوف به لا يبصر ولا يسمع ولا يضر ولا ينفع؟ يا قوم، التمسوا لكم دينًا فإن قومكم على سفهٍ وضلال.

ثم تفرقت بهم السبل:

بعضهم مال إلى النصرانية وأقام في الحبشة أو في بلاد الروم،

وبعضهم قرأ الكتب فلم يدخل في نصرانية ولا يهودية، واكتفى باعتزال الأوثان والذبائح التي تذبح قربانًا لها، ونهى عن قتل الموءودة وقال: أعبد ربَّ إبراهيم.

من هؤلاء، كان أمية بن أبي الصلت: شاعر ثقيف وحكيمها،

وأمه من صميم البيت القرشي: رقية بنت عبد شمس بن عبد مناف، وعبد مناف هو الجد الثالث للمصطفى: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف..

لم يذهب أمية إلى روم أو حبشة، بل قرأ كتب الدين ورغب عن عبادة الأوثان، وأقام في

قومه يتنبأ لهم بدين جديد آن وقته، ويتحدث فيهم عن نبي مرسل حان مبعثه، ويشدو في ليل الجاهلية بدعاءِ الفجر المرتقب:

إن آيـاتِ ربـنـا ظـاهـراتٌ ... مـا يُمـارى فيهن إلا الكـفـورُ

حبس الفيـل بـالمغمس حتى ... ظـل يحبـو كـأنـه معقـور

كـل دين يوم القيـامة عنـد اللـ ... ـه إلا دينَ الحنيـفـة زورُ

وبزغ النور الذى بشَّر به أُمية.

وجاءَ دين التوحيد الذى أَرهص به وشدا له.

وإذا به يرفض ويأْبى ويستكبر، ويجاهر المصطفى بأَشد العداوة والبغضاءِ.

وانكشف موقفه:

لقد كان يبشر بنبى جديد وهو يرجو أَن يكونه.

فلما تخطاه الاصطفاءُ إِلى محمد بن عبد الله الهاشمي ﷺ، نكص على عقبيه كافرًا بدين الحق.

وظاهَر الوثنية القرشية فى حربها للدين الحنيف، حتى مات على الكفر تدمغه كلمة المصطفى ﷺ، فيه: «آمن لسانُه وكفر قلبُه».

* * *

بُعث المصطفى ﷺ، وثلاث من بناته الأربع حديثات عهدٍ بالزواج فى أعز بيوت قريش:

كبراهن «زينب» تزوجها ابنُ خالتها هالة بنت خويلد: «أبو العاص بن الربيع بن عبدالعزى» حفيد قصى، الجد الرابع للمصطفى. وكان أبو العاص سريًا نبيلاً، مع عراقة نسبه وشرف موضعه.

و «رقية وأم كلثوم» عروسان لابنى عم المصطفى: عتبة وعتيبة ابنى عبدالعُزى بن عبدالمطلب بن هاشم، من زوجه أم جميل بنت حرب بن أمية بن عبد شمس.

وأما صغراهن «فاطمة» فلن تكن بلغت سنَّ الزواج بعدُ، وقد وُلدت قبل المبعث بخمس سنوات...

وأسلمت بناتُ المصطفى ﷺ، وأزواجهن الثلاثة على الشرك.

وكره المصطفى ﷺ أن يُخرج بناته المسلمات من بيوت أزواجهن الكفار، ولم يكن الإسلام قد شرع بعدُ، تحريم زواج مؤمنة بكافر، ولا نزلت آيات القرآن فى التفريق بين المؤمنات والكفار...

ووجدتْها قريش فرصة سانحة، لتؤذى المصطفى فى بناته. قال بعضهم لبعض:

— إنكم قد فرّغتم محمدًا من همِّه، فردُّوا عليه بناته فاشغلوه بهن.

ومشوا إلى أصهاره ﷺ، واحدًا بعد الآخر، فقالوا لكل منهم:

— فارِقْ صاحبتك ونحن نزوجك أى امرأة من قريش شئتَ.

فأما أبو العاص بن الربيع، فأبى أن يفارق زوجه «زينب بنت محمد» وردَّ على من كلموه فى فراقها بقوله:

«والله ما أحب أن لى بها امرأة أخرى من قريش».

وأما ابنا عبد العُزى بن عبد المطلب، فطلقا رقية وأم كلثوم، بإلحاح من أمهما بنت حرب، أخت أبى سفيان.

وخاب ظن قريش وكيدُ بنتِ حرب.

لم يُشغل المصطفى ببناته عن دعوته، ولم يشق عليه رجوع بنتيه رقية وأم كلثوم إلى بيته، وقد

أراد الله بهما خيرًا فنجاهما من معاشرة ابنى أبى لهب، ومحنة العيش مع امرأته حمالة الحطب.

ثم أبدلهما الله، بعد حين، خيرًا منهما:

تزوج رقية عثمان بن عفان أحد السابقين الأولين إلى الإسلام، وهاجرت معه إلى الحبشة ثم إلى المدينة، فلما توفيت يومَ بدر خلفتْها أختُها أم كلثوم، زوجًا لعثمان ذى النورين».

* * *

بئست الكنية أبو لهب، لعبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم.

قبل أربعين عامًا من المبعث، تلقى عبد العُزى بشرى مولد محمد، ابن أخيه الراحل عبد الله بن عبد المطلب.

حملتْها إليه مولاةٌ له تُدعى «ثويبة» فأعتقها ببشراها!

ثم لما بلغ الوليد أَشُدَّه واصطفاه الله تعالى رسولًا، لم يعد عبد العُزى يعرف باسمه، وإنما غلبت عليه كنيته أبو لهب!

كما لصق بامرأته أم جميل بنت حرب، لقبُ حمالة الحطب منذ نزلت فيها آيات المسد:

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ① مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ② سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ③ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ④ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ⑤ ﴾

لم يكتف أبو لهب بأن يرفض دعوة ابن أخيه ويرد إليه ابنتيه رقية وأم كلثوم طالقين.

بل تصدى له بالتكذيب والاستهزاء، من الفترة الأولى التي كان المصطفى ﷺ يتهيب فيها الجهر بدعوته في الناس، ويكتفي بتبليغها الى من يأنس لديه قبولًا.

وتلقى المصطفى ﷺ من كلمات الوحي:

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢١٥ ﴾

وغدا ﷺ فأتى الصَّفا فصعد عليه ونادى ينذر عشيرته الأقربين من بني هاشم وعبدالمطلب وقريش:

«واصباحاه»

فلما اجتمع له القوم ابتدرهم قائلًا:

«أرأيتم لو أخبرتُكم أن خيلًا تخرج من سفح هذا الجبل، أكنتم مُصدقيَّ؟».

أجابوا من غير تردد: «ما جرَّبنا عليك كذبًا قط».

قال ﷺ: «فإني نذير لكم بين يدى عذاب أليم».

عندئذ انبرى له عمه عبد العزى قائلًا: «تبًّا لك! ألهذا جمعتنا؟».

ومضى على غلوائه، فكان من أشد الكفار عداوةً للإسلام وإيذاءً للنبى ابن أخيه، عليه الصلاة والسلام.

ومن ورائه امرأته أم جميل بنت حرب، أخت أبى سفيان.

وقد غاظها أن تسمع ما نزل فيها وفى زوجها أبى لهب من القرآن، فخرجت تطلب المصطفى وفى يدها فِهر: حجارة تملأ الكف.

وسمعت أنه ﷺ فى الكعبة، فاندفعت نحوه فى شراسة وهى تهدر صاخبة بالوعيد، لكن بصرها تخطى المصطفى فلم تره، ورأت صاحبه أبا بكر هناك، فسألته:

— أين صاحبُك؟ فقد بلغنى أنه يهجونى. والله لو وجدتُه لضربته بهذا الفهر. إنه إن يكن شاعرًا فإنى لشاعرة.

وانصرفت وهى ترتجز:

مـذمّـمـا عصينـا
وأمـرَه قـلَينـا
وديـنـه أُبـينـا

قال الصديق للمصطفى ﷺ:

— يا رسول الله، أما تراها رأتك؟

فقال عليه الصلاة والسلام:

— «ما رأتنى، لقد أخذ الله ببصرها عنى».

* * *

وحدث مرةً أن أخذتْ أبا لهب حميةُ الدم الهاشمى، فغضب لما رأى من جور قريش على بنى هاشم الذين أبوا أن يخذلوا ابن عبد الله بن عبدالمطلب، وإن لم يتابعوه على دينه، كراهةَ أن يجحدوا أوثانًا وجدوا آباءهم لها عابدين.

فى خبرٍ أن أبا سلمة المخزومى، ابن بَرة بنت عبد المطلب، استجار بخاله أبى طالب حين أراد قومه أن يفتنوه عن إسلامه. فمشى رجال من بنى مخزوم إلى أبى طالب فقالوا له فى غلظة:

— لقد منعتَ منا ابنَ أخيك محمدًا، فما لك ولصاحبنا تمنعه منا؟

قال: إنه استجار بي، وهو ابن أختي، فإن أنا لم أمنع ابن أختي لم أمنع ابنَ أخي.

وكان أبو لهب حاضرًا فقال مغضبًا، وقد أحزاه أن يضام أخوه على مرأى منه ومسمع، قال:

– يا معشر قريش، والله لقد أكثرتم على هذا الشيخ. ما تزالون تتوثبون عليه في جواره من قومه، والله لتنتهُنَّ عنه أو لنقومَن معه في كل ما قام فيه.

فآثروا الإبقاء على أبي لهب في حزبهم، وقالوا يسترضونه:

– بل ننصرف عما تكره يا أبا عتبة[1].

لكن أبا عتبة الذي كره أن يضام أخوه أبو طالب، وليس على دين محمد، لم يكره أن يحق محمدًا ابن أخيه عبد الله، ويخذله ويؤذيه، أعشى سحر أم جميل بصرَه وذهب بمروءته ونخوته، فتسلط بالأذى على المصطفى، ابن أخيه، ومَن اتبعه. فيقول الشاعر الأحوص في حمالة الحطب، امرأة أبي لهب:

مـا ذاتُ حَبـلٍ يـراه النـاسُ كلهمُ	وسط الجحيم ولا يخفى على أحـد
كـلُّ الحبال، حبـال النـاس، من شَعَرٍ	وحبلُها وسْطَ أهـل النـار من مَسَـدِ

* * *

(١) السيرة النبوية: ٢/١٠.

ضاقت بهم ساحة البيت العتيق وقد تجمعوا هناك يهدرون بالوعيد، فيكاد مَن يراهم يحسبهم محتشدين تأهبًا لقتال عدو...

وجاءَ العدو، فردًا أعزل إلا من إيمانه...

أقبل المصطفى ﷺ على الحرم يمشي خاشعًا حتى استلم الركن، ثم مرَّ بهم طائفًا بالكعبة لا يلقى إليهم بالاً.

وقصُرت عنه أيديهم ورماحُهم، وطالت ألسنتهم يلمزونه ببعض القول.

ومضى في طوافه، فكلما مر بهم تطاولت ألسنتهم بالغمز واللمز، حتى أتم الطواف فواجههم فردًا، ليس معه سلاح غير كلمات ربه.

وتلا كلمة، وقعت عليهم كالصاعقة فما منهم رجل إلا كأن على رأسه طائرًا وقع.
وانكمشوا متضائلين، حتى ليقول مَن كان أصخبهم هديرًا وأنكرهم صوتًا:
«انصرفْ يا أبا القاسم، فواللّه ما كنت جهولاً».

وانصرف أبو القاسم عليه الصلاة والسلام، فما كاد يغيب عن أبصارهم حتى عادوا أسودًا غضابًا، يقول بعضهم لبعض متلاومين:

– ذكرتم ما أصابكم من أمر محمد، حتى إذا باداكم بكلمةٍ مما تكرهون تركتموه؟

وأجمعوا أمرهم من جديد للقاءِ العدو!

فلما كان الغد وجاءَ المصطفى يصحبه أبو بكر، لم يمهلوه حتى يلقاهم بكلمة تصدعهم، بل وثبوا إليه وثبة رجل واحد، وأحاطوا به يقولون متوعدين:

– أنت الذي تقول كذا وكذا؟

وأعادوا عليه ما قال في إنكار أوثانهم وتسفيه عقولهم وضلال آبائهم، والمصطفى يجيب: «نعم، أنا الذي أقول ذلك».

وهموا به يتجاذبون رداءه، فقام أبو بكر دونه يدفعهم عنه ويقول: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟

فتحول أسود القطيع إلى أبي بكر يجبذون لحيته، وتكاثروا عليه فما تركوه يومئذ إلا وقد صدعوا فرق رأسه[1]....

* * *

(١) السيرة لابن هشام: ١/٣٦٠.

مفاوضة

وبدا لقريش أن توفد رجالاً منها إلى أبي طالب، عم المصطفى وشيخ بنى هاشم، لعلهم يستطيعون إقناعه بأن يحمل ابن أخيه على أن يكف عن دعوته التى فرقت كلمتهم ومزقت شملهم.

ومشى وفدهم إلى أبى طالب فقالوا فى تودد:

– يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سبَّ آلهتنا وعاب ديننا وسفَّه أحلامنا وضلَّل آباءنا. فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلى بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيكه...

فقال لهم أبو طالب قولاً رفيقًا وردَّهم ردًّا جميلًا، فانصرفوا عنه وهم يرجون أن ينتهى هذا الأمر الذى أرَّقَ ليلهم وشغل نهارهم...

لكن المصطفى ﷺ مضى على ما هو عليه: يُظهر دين الله ويدعو إليه، حتى اشتد الموقف بين المسلمين والمشركين تباعدًا وتضاغنًا، ولم يعد لقريش حديث إلا عن محمد، يحض بعضهم عليه بعضًا.

وعاودوا الكلام مع عمه فقالوا:

– يا أبا طالب، إن لك سِنًّا وشرفًا ومنزلةً فينا. وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا. وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك فى ذلك حتى يهلك أحد الفريقين.

وعظُم على أبى طالب فراقُ قومه وعداوتُهم، ولم تطاوعه نفسه على خذلان ابن أخيه...

وجاء المصطفى ﷺ فسمع حديث عمِّه عن شكوى قومه، ثم قال ﷺ:

«يا عمّ، إنى أريدهم على كلمة واحدة».

قالوا بصوت واحد:

– كلمة واحدة؟ نعم وأبيك، وعشر كلمات! فما هى؟

قال ﷺ: «لا إلـه إلا الله».

فانتفضوا مذعورين وخرجوا غضابًا ينفضون ثيابهم ويهزون رءوسهم فى رفض وإنكار:

﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝ ﴾

قال له عمه بعد خروجهم:

– يا ابن أخى، أبق علىّ وعلى نفسك، ولا تحملنى من الأمر ما لا أُطيق.

ردّ المصطفى ﷺ، وقد ظن أن عمه ضعف عن نصرته:

«يا عمّ، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره اللّهُ أو أهلكَ فيه ما تركتهُ».

واستعبر لم يملك دمعه، وهو يوشك أن يفارق عمه الذى كان له أبًا وكافلًا وراعيًا وصديقًا.

ناداه عمه وقد رآه يمضى حزينًا أسفًا:

– أقبلْ يا ابن أخى.

فأقبل عليه الصلاة والسلام ليسمع كلمة عمه أبى طالب:

– اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت، فوالله لا أُسلمك لشىءٍ أبدا.

* * *

ومساومة

عرفت قريش أن أبا طالب لن يتخلى عن نصرة ابن أخيه ولن يخذله، فليس لها إليه من سبيل، إلا أن تخوض حربًا مع بني هاشم وعبدالمطلب.

وفي سَوْرة غيظها وقهرها، زيّن لها سفهها رأيًا أحمق: ماذا لو ساومت أبا طالب على محمد، ابن أخيه، وتعطيه فتى من فتيانها بديلاً منه؟

وليكن هذا البديل «عمارةَ بن الوليد بن المغيرة المخزومي» زين شباب بني مخزوم فتوة وجمالاً وعقلاً.

وقبِل «عمارة»، رجاة أن تنحسم به الفتنة التي مزقت قومه قريشًا

وبقى أن يرضى أبو طالب!

ومشوا إليه بعمارة بن الوليد فقالوا:

- يا أبا طالب، هذا عمارة بن الوليد، أنهَدُ فتى في قريش وأجمله، فخُذه فلَكَ عقلُه ونصرُه، واتخذه ولدًا فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك، هذا الذي قد خالف دينك ودين آبائك، وفرّق جماعة قومك وسفّه أحلامهم، فنقتله فإنما هو رجل برجل.

ولم يصدق أبو طالب سمعه!

كيف بلغ بهم السفه أن يساوموه على ابن أخيه بمثل هذه الصفقة الحمقاء؟ لقد أضاعت قريش رشدَها وربِّ الكعبة!

قال في تؤدة:

- والله لبئس ما تساومونني، أتعطونني ابنكم أغذوه لكم، وأُعطيكم ابني تقتلونه؟ هذا والله ما لا يكون أبدًا.

قال له «المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف»:

- والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومُك وجهدوا على التخلص مما تكرهه، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئًا.

وردّ أبو طالب على المطعم، حفيد عبد مناف بن قصي:

- والله ما أنصفوني، ولكنك قد أجمعتَ خذلاني ومظاهرة القوم عليَّ، فاصنع ما بدا لك.

وانصرف القوم على يأس...

وكذلك نفض أبو طالب يده من بني عمومته، آل عبد شمس ونوفل، ومن أصهاره وذوي قرباه في تيم ومخزوم وزهرة، وأدرك أن القوم قد تظاهروا على مَن يمنعون محمدًا، من بني عبد المطلب وبني هاشم...

ووثبت القبائل من قريش على مَن فيها من أصحاب المصطفى الذين أسلموا معه، يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم...

وبقى بنو هاشم على نصرة محمد بن عبد الله، إلا قليلاً منهم مع أبي لهب تبت يداه...

* * *

فارس

أقبل الفارس عائدًا من رحلة صيد...

قد توشح قوسه وأطلق عنان فرسه، حتى إذا دنا من البيت الحرام ترجل إجلالاً للكعبة، ثم انطلق متمهلاً في شموخ وزهو...

وفي طريقه إلى بيته، مرَّ بأندية قريش يتلقى حيثما سار تحية الإعجاب بفتوته وفروسيته.

وازدهاه أن ترى قريش فيه: حمزة بن عبد المطلب الهاشمي، أعزَّ فتى فيها وأشدها شكيمة.

* * *

قربَ الصَّفا، استوقفته مولاةٌ لعبدِ الله بن جدعانَ التيمي، فتمهَّل ملقيًا إليها بعضَ سمعه، وفي ظنه أن الفتاة مأخوذة ببهاءِ فتوته.

قالت وهي تسدد إليه نظرة ناقبة:

– يا أبا عمارة، لو رأيت ما لقي ابنُ أخيك محمدُ آنفا من أبي الحكم بن هشام؟ وجده هاهنا جالسًا فآذاه وسبَّه وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف لم يكلِّمه محمد ﷺ.

ولم يرد عليها الفارس بكلمة.

لوى عنانَ فرسه وقد احتمله الغضب، فلم يتوقف حتى بلغ البيت العتيق، ولمح أبا جهل بن هشام –هو أبوالحكم– جالسًا هنالك بين القوم يتشدق بما آذى به محمد بن عبد الله. فشق حمزة طريقه إليه صامتًا لا يتكلم، إلى أن قام على رأسه فرفع قوسه وشجَّه بها شجَّة منكرة وهو يقول متحديًا:

– أتشتم محمدًا وأنا على دينه أقول ما يقول؟ فرُدَّ ذلك عليَّ إن استطعت!

وغشي القومَ دوار ما كادوا يفيقون منه حتى أدركوا أن السهم قد نفذ!

أسلم حمزة، وكان حتى تلك اللحظة على دين آبائه، وعرفت قريش أن محمدًا ازداد به عِزًا ومنعة، فلن يلبث حمزة أن يدخل المعترك بينه وبين المشركين، فارسًا لا يلحق به غبار، وأسدًا لا يُغلب.

وأوى حمزة إلى بيته فبات ليلته مؤرقًا، يدعو الله أن يشرح صدره للدين الجديد الذى أعلن دخوله فيه، مدفوعًا بمروءته وشهامته ونجدته.

حتى تنفس الصبح، فغدا حمزة إلى الكعبة فما استقبلها إلا وقد اطمأن قلبه وتفتح لنور الحق.

وسعى من فوره إلى بيت ابن أخيه المصطفى ﷺ فبايعه.

ثم خاض معه معركته الباسلة، أسدَ الله وأسدَ رسوله ﷺ. وبسيفه الصارم المنصور جندل رءوسًا من طواغيت قريش يوم بدر، ومن بعده قاتل يوم أُحُد حتى اغتالته حربة غادرة سددها إليه «وحشى» بتحريض من «هند بنت عتبة، زوج أبى سفيان بن حرب».

ورقصت هند على مصرع الفارس البطل، وانتزعت كبده فلاكتها، وذهبت فى تاريخ الإسلام بلقب آكلة الأكباد.

وذهب الفارس البطل، بلقب سيد الشهداء...

* * *

أم يقولون افتراه؟

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ ....
بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ
بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾
تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

(صدق الله العظيم)

* * *

الدنيا ليل...

ومكة مؤرقة بسهدها، تشهد ائتمار قريش بالمصطفى ومن معه.

لا عن ارتياب فى صدقه وأمانته، ولكن خافت أن تفقد الوثنية سلطانها على العرب، وعليها كانت قريش تعتمد فى ترسيخ نفوذها وجاهها، وتضخم ثرائها، منذ جعلت المواسمَ الدينية فى أم القرى، مواسمَ للتجارة.

وهذا الموسم على وشك اقتراب، ومحمد ﷺ يجهر بدعوته لا يبالى أحدًا، وقد سمعت قريش ما تلاه من كلمات ربه، فأدركت من فورها أنها المعجزة التى لا يملك أى عربى يصغى إليها، أن يصرف عنها سمعه وقلبه وضميره.

فإن خلّت قريش بين محمد والقبائل الوافدة على الموسم، يتلو فيها هذا القرآن، فإن العرب لن يترددوا فى الإيمان بالمعجزة...

وفى دار الندوة بمكة، حيث اعتادت قريش من عهد جدّها «قصى بن كلاب» أن تعقد فيها مجالسها كلما أهمها أمر واحتاجت فيه إلى المدارسة وتبادل الرأى، اجتمع نفر من طواغيت قريش وقام فيهم «الوليد بن المغيرة المخزومى» فقال:

– يا معشر قريش، إن وفود العرب ستقدم عليكم، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيًا ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا.

قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس فقلْ وأقِمْ لنا رأيًا نقول به.

قال: بل أنتم فقولوا أسمع.

قالوا: نقول، كاهن.

وردَّ عليهم الوليد بن المغيرة:

– لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهانَ فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه.

قالوا: فنقول، مجنون.

ورد عليهم: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخَنقِه ولا تخالجه ولا وسوسته.

قالوا: فنقول، شاعر...

ورد عليهم: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كلَّه رجزَه وقصيده، وهزجه وقريضه، ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر.

قالوا: فنقول، ساحر.

وردَّ عليهم: ما هو بساحر، لقد رأينا السحار وسحرَهم، فما هو بنفثهم ولا عُقَدهم.

وغُلبوا على أمرهم لا يدرون ما يقولون في المصطفى ومعجزته،، فسألوا الوليد:

– فما تقول أنت يا أبا عبد شمس؟

أجاب: والله إن لقوله لحلاوة وإن أصلَه لعِذقٌ وإن فرعه لجناةٌ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا عُرِف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه أن تقولوا: ساحر جاء بقولٍ هو السحر، يفرق بين المرءِ وأبيه، وبين المرءِ وزوجته، وبين المرء وعشيرته[1].

وانفض المجلسُ بعد أن أجمعوا على أن يترصدوا للوفود على مداخل مكة فيأخذوا سبل الناس لا يمر بهم أحد إلا حذروه أن يسمع ما يتلو محمد من كلمات هي السحر...

والمصطفى يتلو من آيات ربه:

﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ① مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ② وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ③ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ④ فَسَتُبْصِرُ

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ١/٢٨٨.

وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ۝٧﴾

* * *

وأوجس أبو طالب فى نفسه خيفةً، أن يظاهر عامةُ العرب قومَه على ابن أخيه فيجتمعوا أَلْبًا عليه وعلى من ينصره من بنى عبد المطلب وهاشم، فأنشد فى الموسم قصيدة مطولة، يتعوذ فيها بحرَم مكة ومكان المصطفى منها، ويعتب على أشراف قومه ناشدًا مروءتهم، ومعلنًا فى الوقت نفسه، أنه لن يخذل ابن أخيه ولن يتركه لشىء أبدًا أو يهلك دونه. قال:

إذا اجتمعت يومًا قريشٌ لمفخَر	فعبدُ منافٍ سِرُّها وصميمُها
وإن حُصِّلت أشرافُ عبدِ منافِها	ففى هاشم أشرافُها وقديمُها
وإن فخرت يومًا فإن محمدًا	هو المصطفى من سِرِّها وكريمها
تداعت قريشٌ غثُّها وسمينها	علينا فلم تظفر وطاشت حلومُها
وكنا قديمًا لا نُقِر ظُلامة	إذا ما ثَنَوا صُعْرَ الخدود نُقيمها
ونحمى حماها كلَّ يوم كريهةٍ	ونضرب عن أحجارها مَن يرومها

وصَدَرَت القبائل من ذلك الموسم بأمر المصطفى ﷺ، فانتشر ذكره فى بلاد العرب..

* * *

الأيام تمضى...

وحزبُ الله يزداد على الأذى والاضطهاد قوةً وثباتًا.

وقريش تكاد تموت بغيظها، وما تلمح على المصطفى وأصحابه بادرة ضعف أو تردد.

وفى نادى قريش، كان الزعماءُ يتدارسون الموقف الصعب، حين رأوا المصطفى يأخذ طريقه إلى المسجد الحرام، وحيدًا ليس معه صاحب.

قال لهم «عتبة بن ربيعة بن عبد شمس»:

– ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورًا لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاءَ، ويكف عنا؟

قالوا وقد داخلهم الخوف من إسلام حمزة بن عبد المطلب:

– بلى يا أبا الوليد، فقم إليه فكلمْه...

وقام عتبة حتى جلس إلى المصطفى ﷺ فقال له متلطفًا متوددًا:

– يا ابن أخى، إنك منا حيث قد علمتَ من الشرف فى العشيرة والمكان فى النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعِبتَ به آلهتهم ودينهم، وكفَّرت به مَن مضى من آبائهم، فاسمع منى أعرض عليك أمورًا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها.

قال عليه الصلاة والسلام:

«قل يا أبا الوليد، أسمع».

وقال أبو الوليد:

– يا ابن أخى، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفا سوَّدناك علينا حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد به مُلكًا مَلَّكناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك رَئِيًّا تراه لا تستطيع ردَّه عن نفسك، طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلَبَ التابعُ على الرجل حتى يُداوَى منه.

سأله المصطفى: «أقد فرغتَ يا أبا الوليد؟»

قال: نعم.

قال المصطفى ﷺ: «فاسمع منى»،

وتلا عليه الصلاة والسلام من سورة فُصلت:

بسم الله الرحمن الرحيم

حم ① تنزيل من الرحمن الرحيم ② كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون ③ بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ④ وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون ⑤ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين ⑥

وكان عتبةُ يُنصت لها وقد ألقى يديه خلفَ ظهره معتمدًا عليهما يسمع من المصطفى. فلما انتهى ﷺ إلى قوله تعالى:

﴿ومن آياته ....

الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ㊲﴾

سجد محمد عليه الصلاة والسلام، ثم قال لعتبة: «قد سمعتَ يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك».

* * *

ومضى عتبة مأخوذًا بما سمع، حتى إذا دنا من مجلس أصحابه عرفوا أنه جاءَ بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلس إليهم سألوه:

– ما وراءك يا أبا الوليد؟

قال: ورائى أنى قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعونى واجعلوها بى، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به.

قالوا جميعا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه.

وردّ عليهم: هذا رأيى فيه فاصنعوا ما بدا لكم...

وبقى عتبة، مع ذلك، على دينهم ودين آبائهم....

* * *

أسلم النهار أنفاسه مرهقًا مكدودًا كأنه يتعجل الليل ليسدل ستارًا من ظلامه على المشهد الفاجع للمؤمنين المستضعفين من موالى قريش، وقد شدتهم بوثاق إلى جمر الصخور الملتهبة فى لظى الرمضاء، لعلهم يرتدون عن دين محمد، عليه الصلاة والسلام.

وبدا لقريش، وقد غربت الشمس، أن تدعو محمدًا إلى مجلس زعمائها مجتمعين، لعله يلين..

لقد فشلت المفاوضات مع عمه أبى طالب فلم يكفه عنهم ولم يسلمه إليهم، وفشلت كذلك المساومة التى عرضها عليه أبو الوليد عتبة بن ربيعة.

وبقى أن يجربوا مواجهته لرؤسائهم مجتمعين، فيخاصموه حتى يعذروا فيه..

وحشدوا له فئة منهم، أعلاهم فى قومهم كلمةً وألدهم فى الجدل والخصومة. فيهم: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبوسفيان بن حرب، والوليد بن المغيرة، والنضر بن الحارث بن كلدة، وابوالبخترى بن هشام، وأبوالحكم، أبو جهل بن هشام، والعاص بن وائل، وأمية بن خلف...

وأجاب المصطفى ﷺ دعوتهم، فجاء إلى حيث أخذوا مجالسهم بظهر الكعبة، وهو يرجو أن يكونوا قد ثابوا إلى رشدهم، وكان حريصًا على هداهم يعز عليه عنتهم وضلالهم.

قالوا: يا محمد، إنا قد بعثنا إليك لتكلمك، وإنا والله ما نعلم رجلًا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك: لقد شتمت الآباء وعيبت الدين وشتمت الآلهة وسفهت الأحلام وفرقت الجماعة، فما بقى أمر قبيح إلا جئته فيما بيننا وبينك..

ومضوا فى الحديث فعرضوا عليه ما سبق أن عرضه وافدهم إليه «عتبة بن ربيعة» من مال وسيادة ومُلك وطِبّ..

ورد المصطفى ﷺ:

«ما بي ما تقولون، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً وأنزل عليَّ كتابًا وأمرني أن أكون لكم بشيرًا ونذيرًا، فبلّغتكم رسالات ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم».

قالوا مقترحين، يريدون إعناته:

– يا محمد، فإن كنت غير قابل منا شيئًا مما عرضناه عليك، فإنك قد علمت أنْ ليس من الناس أحد أضيقَ بلدًا ولا أقل ماء ولا أشد عيشًا منا، فسَلْ لنا ربَّك الذي بعثك بما بعثك به، فليُسيِّرْ عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وليفجر لنا فيها أنهارًا كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصيُّ بن كلاب فإنه كان شيخَ صدقٍ، فنسألهم عما تقول، أحق هو أم باطل؟ فإن صدقوك وصنعت لنا ما سألناك، صدقناك وعرفنا به منزلتك من الله، وأنه بعثك رسولاً كما تقول.

قال عليه الصلاة والسلام، يرد على مقترحاتهم:

«ما بهذا بُعثت إليكم، إنما جئتكم من الله بما بعثني به، وقد بلغتكم ما أُرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم بيني وبينكم».

قالوا:

– فإذ لم تفعل هذا لنا فخُذ لنفسك: سل ربك أن يبعث معك مَلكًا يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك، وسله فليجعل لك جِنانًا وقصورًا وكنوزًا من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق كما نقوم، وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم.

وقال المصطفى ﷺ كلمته:

«ما أنا بفاعل، وما أنا بالذي يسأل ربَّه هذا، وما بعثت بهذا ولكن الله بعثني بشيرًا ونذيرًا فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليَّ أصبرْ لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم».

ولجوا في العناد فقالوا:

– فأسقط السماءَ علينا كسفًا كما زعمت أن ربك إن شاءَ فَعَل، فإنا لا نؤمن لك إلا أن تفعل.

وردَّ المصطفى عليه الصلاة والسلام:

«ذلك إلى الله، إن شاءَ أن يفعله بكم فعله».

قالوا: يا محمد، أفما عَلِم ربك أنا ستجلس معك ونسألك عما سألناك عنه ونطلب منك ما نطلب، فيتقدم إليك فيعلمك ما تراجعنا به ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا إذ لم نقبل ما جئتنا به؟ إنه قد بلغنا أنك إنما يُعلِّمُك هذا رجلٌ باليمامة يقال له الرحمن؛ وإذا والله لا نؤمن بالرحمن أبدًا، فقد أعذرنا إليك يا محمد، وإنا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا، فلن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلاً...

وأيقن المصطفى ﷺ ألا معنى للمضي في ذلك الجدل العقيم. فقام عنهم وقام معه ابنُ عمته عاتكة: عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة المخزومي، فقال له مخاصمًا:

- يا محمد، عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أمورًا ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل، ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ومنزلتك من الله فلم تفعل، ثم سألوك أن تعجل لهم بعض ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل، فوالله لا أومن بك أبدًا حتى تتخذ إلى السماء سلمًا ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها، ثم تأتي معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول. وايمُ الله لو فعلتَ ذلك ما ظننت أني أصدقك[1]:

* * *

وانصرف المصطفى ﷺ إلى أهله حزينًا أسفًا لما فاته مما كان يطمع به من قومه حين دعوه.. حتى آنسه الوحي بكلمات ربه:

﴿ .... قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ

---

(١) السيرة النبوية، عن ابن اسحاق: ٣١٥/١.

حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ
وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا
زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ
بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ
عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾
وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا
رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم
مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُ
كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾

(صدق الله العظيم)

* * *

هل كان الكفار من قريش فى تكذيبهم بالمصطفى وجحدهم المعجزة، بحيث يغيب عنهم أن هذا القرآن ليس من قول البشر؟

فيم إذنْ كان عنادهم بالإسلام وإعناتُهم الرسولَ، وحرصُهم على أن يأخذوا سبل الناس إلى مكة فى الموسم، ليصدُّوا العرب عن سماع هذا القرآن؟.

وفيم كانت حيرتهم فيه لا يدرون بم يصفونه، وإنهم لعلى يقين من أنه ليس بشعر ولا سحرٍ ولا كهانة؟

وزعموا أن محمدًا افتراه؟

لقد عاجزهم القرآن، بآية الإسراء، ومعهم من يُظاهرهم من جنٍّ قيل إنها تلهم فحول شعرائهم روائع القصيد:

﴿ .... قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾

ثم تحداهم بعدها، فى سورة يونس، أن يأتوا بسورةٍ مثله، واحدة فحسب، وليدعوا معهم من استطاعوا إن كانوا صادقين فى زعم الافتراء:

﴿ .... وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾

بل لماذا، وقد زعموا أن محمدًا افتراه، لا يأتون بعشرِ سُوَرٍ مثله مفتريات، وإنه لبَشَر مثلُهم؟ بهذا تحدَّتهم آيةُ هود:

﴿ .... أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

بل لماذا وقد زعموا أنه تقوَّله، لا يتقولون مثل هذا الكتاب العربي المبين، والعربية لغتهم والبيانُ طوعُ ألسنتهم؟ وإنه ليتحداهم، بآية الطور، أن يفعلوا:

﴿ .... فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

ولقد كان فيهم كُهان يتسلطون عليهم بسحر السجع، وخطباءُ بلغاءُ وشعراءُ فحول، زعموا أن لهم توابعَ من الجن. وأعياهم مع ذلك أن يأتوا بسورة من مثل هذا القرآن، كانت تُغفيهم، لو استطاعوا مجتمعين أن يأتوا بها، من مثل ذلك الجدل العقيم، والمفاوضات والمساومات والمحاولات المضنية لصرف العرب عن سماع هذا القرآن، والتسلط على المسلمين بالأذى والاضطهاد...

وتعفيهم مما كانوا يكرهون من تسفيه آبائهم وسبِّ آلهتهم، ومما كانوا يُوجسون في أنفسهم خيفة من صدام مسلح يُتوقع بين لحظة وأخرى، وحرب تحصد الرءوس وتأكل الأهل والعشيرة، وتتطاول إلى حرمة البيت العتيق والبلد الحرام...

وهؤلاءِ هم، بكل جبروتهم وعنفوان عنادهم، يحتشدون لمقاومة بشرٍ رسول، معجزتُه كلمات من وحي ربه، يعلمون علم اليقين أنها ليست من قول البشر، ويدركون حق الإدراك أنهم لو خلوا بين المصطفى والعرب يتلو فيهم هذا الكتاب العربي المبين، لما ترددوا في الإيمان بالمعجزة.

وماذا عساهم، لو آمن العرب بدين التوحيد، صانعين بأوثانهم التى جعلت من أم القرى المركز الأكبر للعبادة والتجارة ؟

وبالأوضاع السائدة والتقاليد والأعراف الراسخة، التى ضمنت لقريش نفوذها وثراءها ؟ بينهم وبين هذا القرآن حجاب:

﴿ .... وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

(صدق الله العظيم)

* * *

سجا الليل وهجعت أم القرى، والمصطفى في بيته قائم لربه يتهجد بالقرآن حتى انبلج الفجر فصلى، والنور البازغ يهل من شرق الأفق...

وغيرَ بعيدٍ من بيته ﷺ، التقى ثلاثة من مشركي قريش على غير موعد:

أبوسفيان بن حرب الأموى، وأبو جهل بن هشام المخزومى، والأخنسُ بنُ شريق الثقفى...

وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون: فيم الخروج فى هذا الوقت؟ وإذا كل واحد منهم قد تسلل فى الليل مستترًا بالظلام، فبات ليلته قريبًا من بيت محمد، ليستمع إليه وهو يصلى ويتلو القرآن!

فتلاوَموا، وتعاهدوا على ألا يعودوا إلى مثلها، لئلا يراهم بعضُ السفهاءِ فيوقِعوا فى نفسه شيئًا، أو يقتفى خطاهم فتنفذ كلمات القرآن إلى سمعه وقلبه وتملك عليه أمره.

فى الليلة التالية، عاد كل رجل منهم خفية إلى موضعه قرب بيت المصطفى ﷺ، وفى حسابه أن صاحبيه على عهدهما ألا يخرجا إلى هذا الموقف.

حتى طلع الفجر وتفرقوا فجمعهم الطريق، فتلاوموا وانصرفوا على مثل عهدِهم أول ليلة.

لكنهم عادوا خفية فى الليلة الثالثة، فأخذ كل منهم مجلسه هناك، فباتوا يستمعون إلى القرآن حتى مطلع الفجر، لا يدرى أحد منهم بمكان صاحبيه...

فلما جمعهم الطريق تناكروا واشتدوا على أنفسهم فى التلاوُم، وصمموا على ألا يبرحوا مكانهم إلا على عهدٍ وثيق ألا يعودوا لمثلها أبدًا..

وأصبح الصبح فخرج «الأخنس بن شريق» من بيته مبكرًا، يريد أن يحسم الأمر: أتى أبا سفيان فى داره فابتدره قائلًا:

- أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد.

قال أبو سفيان، فى حيرة وتعثر، وقد بوغت بالسؤال:

- يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياءَ أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياءَ ما عرفت معناها ولا ما يُراد بها. ثم أمسك لم يزد.

فتركه الأخنس لم يدر ما رأيه، ومضى إلى أبي الحكم بن هشام يسأله الرأى فيما سمع من محمد.

قال أبو جهل، في أخذة المباغتة:

– ما سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرفَ: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا. حتى إذا كنا كفرسي رِهانٍ قالوا: «منا نبيٌّ يأتيه الوحيُ من السماءِ» فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبدًا ولا نصدقه[1].

وانصرف الأخنس، وقد انكشف له المستورُ من أمر أبي جهل..

* * *

---

(١) السيرة النبوية ١/٣٣٧.

تسامعت قريش بخروج سيد بنى دَوس: «الطفيل بن عمرو الدوسى» حاجًّا إلى مكة فى الموسم، فأسرع رجال منهم يستقبلونه على مشارفها قبل أن يدخلها، وهم يحسبون لـه ألف حساب.

كان شاعرًا شريفًا لبيبًا مطاعًا فى قومه، فلو أن مشركى قريش تركوه يستمع إلى القرآن، لأسلم وأسلمت من ورائه قبيلة دَوس كلها..

قالوا: يا طفيل، إنك قدِمتَ بلادنا، وهذا الرجلُ الذى بين أظهرنا قد أعضل بنا، وقد فرَّق جماعتنا وشتت أمرنا، وإنما قولُه كالسحرِ يُفرق بين الرجل وبين أبيه وأخيه وزوجه وبنيه، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا، فلا تكلمنَّه ولا تسمَعَنَّ له شيئًا.

ثم ما زالوا به، ينصحون ويحذرون، حتى أقنعوه. فاطمأنوا إلى وعده وقد أجمع ألا يكلم محمدًا ولا يسمع منه.

واتجه طفيل إلى الكعبة وقد حشا أذنيه قطنًا، يتقى به أن يبلغ سمعَه صوت الداعى إلى الإسلام.

غير أنه ما كاد يلمح المصطفى قائمًا يصلى عند الكعبة حتى اقترب منه على غير قصد، فنفذت إلى سمعه كلمات من القرآن لم يصدها ما حشا به أذنيه.

قال يحدث نفسه مسترجعًا: واثكل أمى! والله إنى لرجل لبيب شاعر ما يخفى القول علىَّ، فما يمنعنى من أن أسمع من هذا الرجل ما يقول، فإن كان حسنًا قبلتُه وإن كان قبيحًا تركته؟

وانتظر حتى انصرف المصطفى ﷺ إلى بيته، فتبعه ودخل عليه فقال:

– يا محمد، إن قومك قد قالوا لى كذا وكذا.. فوالله ما برحوا يخوفوننى أمرَك حتى سددت أذنىَّ لئلا أسمع قولَك. ثم أبى الله إلا أن يُسمعنى قولك فسمعته قولاً حسنًا، فاعرضْ علىَّ أمرك..

وعرض المصطفى عليه السلام، وتلا عليه القرآن. فيقول الطفيل:

«فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه ولا أمرًا أعدل منه. فأسلمت وشهدتُ شهادة الحق. وقلت: يا نبى الله، إنى امرؤ مطاع فى قومى وأنا راجع إليهم وداعيهم إلى الإسلام، فادع الله أن يجعل لى آية تكون عونا عليهم فيما أدعوهم إليه».

ودعا له المصطفى ﷺ.

ورجع «الطفيل» إلى قومه ووجهه يتألق بنور الإيمان، فأقام فيهم يدعوهم إلى الإسلام، حتى كانت غزوة خيبر - فى مستهل السنة السابعة للهجرة - فوفد «الطفيل بن عمرو الدوسى» على النبى ﷺ فى دار هجرته ، ومعه سبعون أو ثمانون بيتًا أسلموا من بنى دوس.

وبقى الطفيل فى صحبة المصطفى حتى لحق ﷺ بالرفيق الأعلى، فقاتل صاحبه الطفيل مجاهدًا فى حرب الردة، حتى قُتل شهيدًا فى «اليمامة» رضى الله عنه.

* * *

هجرة إلى الحبشة

﴿ .... وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

(صدق الله العظيم)

ضَرِىَ اضطهادُ المشركين للمسلمين فى مكة، وشقَّ على المصطفى ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم منه، ولم يؤمر بقتال. فنصح لهم قائلاً:

«لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها مَلِكا لا يُظلم عنده أحد، وهى أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرَجًا مما أنتم فيه».

فخرج الفوج الأول من مهاجرة الحبشة، وفيهم «رقية بنت محمد» ﷺ، مع زوجها «عثمان بن عفان» وابن خالها «الزبير بن العوام بن خويلد الأسد».

ومعهم من بنى هاشم: مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصى.

ومن بنى عبد شمس: أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة - أخو هند وصهرُ أبى سفيان بن حرب - تصحبه زوجه: سهيلة بنت سهيل بن عمرو العامرى.

ومن بنى زُهرة، أخوالِ المصطفى: عبدُ الرحمن بن عوف الزهرى.

ومن بنى مخزوم، أصهار المصطفى: أبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال، ابن عمة المصطفى: برة بنت عبد المطلب. معه زوجه «أم سلمة، هند بنت زاد الركب أبى أمية بن المغيرة المخزومى» التى تزوجها محمد ﷺ، بعد وفاة أبى سلمة من أثر جُرح أصابه فى أُحُد.

وفصل الركبُ من أم القرى مودِّعا مغانى الصبا وديار الأهل والعشيرة. وأخذوا طريق الجنوب وقد هوَّن عليهم مشقة الاغتراب وشجَنَ الفراق، أن هاجروا فى سبيل عقيدة آمنوا بها، والتمسوا العوض عمن فارقوا من أهل وأحباب، فى هؤلاء الصحب الكرام، رفاق السفر والإخوة فى الدين والهجرة.

* * *

رحبت الحبشة بالمهاجرين الأولين، ثم ما لبث أن استقبلت أفواجًا جديدة من الصحابة المؤمنين، فيهم: جعفر بن أبي طالب – ابن عم المصطفى ﷺ – وزوجه أسماء بنت عميس، وعمرو بن سعيد بن العاص الأموى، وأخوه خالد. وعبيدُالله بن جحش – ابن عمة المصطفى أُميمة بنت عبد المطلب – معه امرأته «رملة بنت أبي سفيان» أُم، حبيبة ابنته، التى ولدتها له فى الحبشة. وعامر بن أبي وقاص الزهرى. والسكرانُ بن عمرو العامرى، معه امرأته «سودة بنت زمعة بن قيس» التى ترملت وتزوجها المصطفى ﷺ بعد عام الحزن..

وبلغت عدة المهاجرين ثلاثة وثمانين رجلًا، خرجوا من ديارهمّ وأموالهم مهاجرين بدينهم.

وجاءت الأنباء من الحبشة، أنهم وجدوا فيها دارًا ومأمنًا، وتناشد المسلمون فى مكة، قصيدة المهاجر «عبد الله بن الحارث بن قيس» رضى الله عنه، وفيها يقول:

يـاراكـبـا بَـلِّـغـنْ عـنـى مـغـلـغـلـةً	من كـان يـرجـو بـلاغ الله والـديـن
كـلَّ امـرىء من عـبـاد الله مضطَهـدٍ	ببـطـنِ مـكـة مـقـهـورٍ ومـفـتـون
إنـا وجـدنـا بـلاد الله واسـعـة	تُـنْـجـى مـن الـذل والمـخـزاة والهـون
فـلا تقيـمـوا عـلى ذل الحيـاة وخِـز	ىٍ فى المـمـات وعيـب غـيرِ مـأمـون

* * *

جُنَّ غيظ قريش، فندبت اثنين من دُهاتها: عبدَ الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص، ليرحلا إلى الحبشة فيفسدا ما بين النجاشى والمهاجرين المغتربين، ويسعيا لديه حتى يخذلهم ويسلمهم إلى قومهم.

وبعثت معهما الهدايا مما يُستطرف من أسواق مكة، رشوة إلى النجاشى وبطارقته، فانطلقا بها على مرأى ومسمع من المصطفى عليه الصلاة والسلام والذين معه فى أم القرى.

وأشفق أبو طالب من مكيدة الرجلين، على مَن بأرض الحبشة من المهاجرين، وفيهم ابنه جعفر، وولدا بنتيه برة وأُميمة، وحفيدة أخيه عبد الله رقية بنت محمد...

فأنشد شعرًا رجا أن يبلغ سمع النجاشى:

ألا ليت شعـرى كيف فى النـأى جعفـر	وعـمـرو، وأعـداءُ الـعـدو الأقـاربُ

وهل نالت آفعال النجاشي جعفرًا وأصحابه، أو عاق ذلك شاغب
تعلمْ أبيتَ اللعن أنك ماجد كريم فلا يشقى لديك المجانب
وأنك فيض ذو سجال غزيرة ينال الأعادي نفعها والأقاربُ

فهزت قريش رءوسها لما سمعت نداءه، وقال قائلها مستهزئًا: ما يبلغ صوت الشيخ أبي طالب من مكيدة عمرو وصاحبه؟ وما يُجدي الشعر مع الهدايا التي حملاها من مكة رشوة إلى النجاشي وبطارقته؟

* * *

بدأ وافدا قريش بالبطارقة، فقبل كلُّ بطريق هديته ووعد خيرًا.

ثم تقدما إلى النجاشي فوضعا الهدايا بين يديه وقالا له: «أيها الملك، إنه قد ضوى إلى بلدك غلمان منا سفهاءُ، فارقوا دينَ قومهم ولم يدخلوا فى دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم، فهم أبصرُ بهم وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه».

وأيَّد البطارقة المرتشون التماس الرجلين وقالوا للنجاشي: «صدقا أيها الملك. قومُهم أعلم بما عابوا عليهم، فأسلِمْهم إليهما فيرداهم إلى بلادهم وقومهم».

لكن النجاشي أبى أن يسلمهم قبل أن ينظر فى أمرهم ويسمع ما يقولون. وأمر باستدعاء رجال منهم فجاءوا وقد دعا النجاشي أساقفته ومعهم كتبُهم الدينية.

سأل المهاجرين:

- ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا فى ديني ولا فى دين أحد من هذه المِلل؟

فأجاب عنهم جعفر بن أبى طالب:

«أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ويأكل القوى منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام. فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئًا، وحرمنا

ما حرم علينا وأحللنا ما أحل لنا. فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث. فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك واخترناك على مَن سواك ورغبنا فى جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك».

سأله النجاشى:

- هل معك مما جاءَ به عن الله من شيءٍ فتقرأه عليّ؟

فقرأ جعفر بن أبى طالب آيات من سورة مريم، لم تكد تترجَم وتنفذ إلى سمع النجاشى حتى اغرورقت عيناه بالدمع خشوعًا وتأثرًا. وكذلك بكى أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم.

وقال النجاشى، موجهًا خطابه إلى وافدى قريش:

«إن هذا، الذى سمعتُ، والذى جاءَ به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة. انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا يُكادون».

وانصرفا، أما عبدالله بن أبى ربيعة - وكان أتقى الرجلين - فساوره ما يشبه القلق، لِمَا رأى من خشوع النجاشى وأساقفته عندما سمعوا القرآن، وأخجله أن يكون هذا الملك الغريب أبرَّ بالمهاجرين من قومهم وذوى أرحامهم.

وأما عمرو بن العاص فلم يجد فى موقف النجاشى ما يدعو إلى يأس، وله من ذكاءِ الحيلة وبراعة الدهاءِ ما يغريه بمعاودة الكرة.

قال لصاحبه: «والله لآتينَّ النجاشى غدًا عنهم بما أستأصل به خضراءهم».

وردَّ عبد الله: «لا تفعل، فإن لهم أرحامًا وإن كانوا خالفونا».

فلم يبالِ عمرو تراجعَ صاحبه، بل قال كمن لم يسمع ردَّه: «والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبدٌ».

وسعى فى الغد إلى قصر النجاشى فاستأذن فى الدخول وقال بعد أن حياه:

- أيها الملك، إنهم يقولون فى عيسى بن مريمَ قولاً عظيمًا، فأرسلْ إليهم فسَلْهم عما يقولون فيه.

وأمر النجاشى فجيءَ بجعفر بن أبى طالب وصحبه من وفد المهاجرين، وقد سمعوا بمكيدة عمرو، وأجمعوا أمرهم على أنهم إذا سئلوا عما يقولون فى عيسى بن مريم عليه السلام، لم يجيبوا بغير ما جاءهم به المصطفى ﷺ من وحى ربه.

فلما اجتمع المجلس ابتدرهم النجاشي يسأل:

- ماذا تقولون فى عيسى بن مريم؟

أجاب جعفر:

- نقول والله ما قال الله وما جاءنا به نبينا ﷺ: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول.

فمدَّ النجاشي يده فالتقط عودًا من الأرض ثم قال لجعفر وصحبه: والله ما عدا عيسى بنُ مريم ما قلتَ هذا العودَ، اذهبوا فأنتم آمنون بأرضى، مَن سبَّكم غرِم، وما أُحب أن لى جبلًا من ذهبٍ وأنى آذيت رجلًا منكم.

ثم التفت إلى بطارقته وقال وهو يشير إلى وافدى قريش: «رُدُّوا عليهما هداياهما فلا حاجة لى بها. فوالله ما أخذ الله منى الرشوة، حين رد علىَّ مُلكى فآخذ الرشوة فيه، وما أَطاع الناسَ فىَّ فأُطيعهم فيه»[1].

* * *

مع المهاجرين إلى الحبشة، كانت «رملة بنت أبى سفيان بن حرب» فى صحبة زوجها «عبيدالله بن جحش الأسدى» ابن عمة المصطفى، أُميمة بنت عبدالمطلب.

خشيت أذى أبيها قائد المشركين فى حربهم للإسلام، فرحلت مهاجرة، وتركته بمكة قد جُنَّ غيظه وقهره، أنْ أسلمت ابنتُه وليس له إليها سبيل.

وفى الحبشة، وضعت رملة بنتها «حبيبة بنت عبيد الله» فما كادت تأنس بها عمن فارقت فى مكة من أهل ووطن، حتى رُوِّعت بما لم تُروع به مسلمة قبلها:

ارتد عبيد الله عن دينه الذى هاجر به إلى الحبشة، واعتنق النصرانية وانقطع ما بينه وبين رملة.

وكادت «أُم حبيبة» تهلك غما وقهرًا وحسرة:

فيم كانت هجرة عبيد الله، من محنة البلاءِ بأذى قومه؟

لقد كان أكرم له أن يبقى على دين آبائه وأن يناضل عنه مع أهله وعشيرته، دفاعًا عن مقدسات موروثة.

---

(١) من حديث الهجرة، رواه ابن اسحاق - (السيرة النبوية: ٣٥٧/١) - بإسناد عن «أم سلمة» وكانت رضى الله عنها إحدى المهاجرات.

أما أن يكفر بدين قومه ويرضى الإسلام دينًا، ليصبأ فى الحبشة ويستبدل بالإسلام دينًا لقوم غرباء، كمن يبدل ثوبًا بثوب، فأية مهانة وأى عار؟

وهذه الوليدة الحبيبة، ما ذنبها لتُبتلَى بأبٍ صابىء مرتد؟ وما جريرتها لتبدأ الحياة فى أرض غريبة وقد انبتَّ ما بين أبويها وتمزق شمل أهلها وتوزعتهم مِلَل شتى: فأبوها نصرانى، وأمها مسلمة، وجدُّها مشرك عدو للإسلام؟

واعتزلت «أم حبيبة» الناسَ بابنتها، مضاعَفة الغربة، قد تقوض بيتها فى منازل المهاجرين، ولا سبيل لها إلى أرض الوطن، وأبوها هناك يضطهد الدين الذى آمنت به، ويؤذى النبى الذى صدَّقته واتبعته...

وأين تراها تقيم فى أم القرى لو عادت؟

أفى بيت أبويها وقد حيل بينها وبينه منذ أسلمت؟

أم فى دار آل جحش رهط زوجها، وقد أوصِدت أبوابها وصارت منهم مقفرة خلاء؟

لقد بلغها من أنباء مكة أن «عتبة بن أبى ربيعة، والعباس بن عبد المطلب، وأبا جهل بن هشام بن المغيرة» مروا بديار بنى جحش وهم مصعدون إلى أعلى مكة، فنظر إليها «عتبة» تخفق أبوابها يبابًا ليس فيها ساكن، ثم تنفس الصعداء وقال معتبرًا:

وكـــل دارٍ وإن طـــالت ســـلامتُهـــا يـــومًـــا ستدركها النكباءُ والحـــوبُ

أصبحت دار بنى جحش خلاءً من أهلها».

فقال أبو جهل:

«وما تبكى عليه؟» ثم استطرد:

«هذا عمل ابن أخى، فرّق جماعتنا وشتَّت أمرنا وقطع بيننا»[1].

كلا، لا سبيل لرملة إلى مكة والمعركة محتدمة بين أبيها والنبى الذى تصدقه، ودار بنى جحش تخفق أبوابها يبابًا!

* * *

فى عزلتها الحزينة، جاءتها رسالة النجاشى مع مولاةٍ له:

«إن الملك يقول لك: وكِّلى مَن يزوجك من نبىِّ العرب، فقد أرسل إليه ليخطبك له!».

---

(١) السيرة لابن هشام: ١١٥/٢.

لم تصدق أم حبيبة سمعها، فلما أعادت عليها مولاة النجاشى الرسالة التى جاءتها بها، استيقنت من البشرى فنزعت سوارين لها من فضة، قدمتهما إلى مولاة النجاشى حلاوة البشرى. ثم أرسلت إلى «خالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس» - كبير المهاجرين من قومها بنى أمية-فوكّلته فى زواجها.

وتم عقد الزواج، وأولم النجاشى وليمته لشهود العقد من المسلمين المهاجرين.

وباتت أم حبيبة ليلتها وهى أم المؤمنين رضى الله عنها.

وفى الصباح حملت إليها مولاة النجاشى هدايا نسائه من عودٍ وعنبرٍ وطيب، فقالت أم المؤمنين وهى تقدم إليها خمسين دينارا، من صداقها:

«كنت أعطيتك السوارين أمس وليس بيدىَّ شىءٌ من المال، وقد جاءنى الله عز وجلَّ بهذا».

فأبت الفتاة أن تمس الدنانير، وردّت السوارين قائلة إن الملك أجزل لها العطاء وأمرها ألا تأخذ من السيدة زوج النبى العربى شيئًا، كما أمر نساءه أن يبعثن إليها مما عندهن من طيب...

وتقبلت أم المؤمنين الهدية شاكرة، فاحتفظت بها حتى حملتها معها إلى بيت النبى حين تركت الحبشة إلى المدينة فى السنة السادسة للهجرة، فكان ﷺ يرى عندها طيب الحبشة وعُودَها فلا ينكره[1]...

* * *

(١) الإصابة: الجزء الثامن، وتاريخ الطبرى ٣/٨٩، والسمط الثمين للمحب الطبرى: ٩٧، ٩٨.

فى انتظار عودة عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة من الحبشة، التمست قريش غفوة تنسى فيها قهرها وهمها، وتستمرئ مذاق أحلامها برجوع وافديها إلى النجاشى، ومعهما المهاجرون مطرودين من جواره وأرضه، لتسومهم سوءَ العذاب فيكونوا عبرة لغيرهم من المسلمين، لا رجاءَ لأحدٍ منهم بعدها فى مهرب، وقريش من ورائهم تطاردهم فتدركهم حيثما ذهبوا، فكأنهم وإياها نابغة بنى ذبيان إذ يقول للنعمان ابن المنذر:

فإنك كالليل الذى هو مُدركى وإن خِلتُ أن المنتأى عنك واسع

لكنها غفوة لم تطل:

خبرٌ تردد فى أحياءِ مكة، هزَّ مضاجع الغافين وأطار النوم من عيونهم ومزق أحلامهم بدَدا...

واسترابوا فى يقظتهم تحت صدمة المباغتة، فخيل إليهم أن ما يسمعون عن «عمر بن الخطاب» لا يعدو أن يكون من أضغاث الأحلام وهذيان هواجس الوهم.

أيمكن أن يُسلم عمر؟

لابد أن مَن نقل الخبر وهِمَ فيه كما وهِمت «أم عبد الله بن عامر» حين مرَّ بها عمر بن الخطاب وهى وأهلها يترحلون إلى أرض الحبشة، وقد خرج زوجها عامر بن ربيعة فى بعض حاجاتهم.

قال لها عمر: إنه للانطلاق يا أم عبد الله؟

فردت عليه وقد ذكرت ما كانوا يلقون من البلاء والأذى:

– نعم والله، لنخرجن فى أرض الله. آذيتمونا وقهرتمونا، حتى يجعل الله مخرجا.

فما زاد عمر على أن قال:

– صَحِبكم اللهُ!

فأحست منه رقة لم تكن تراها من قبل، وتحدثت بذلك إلى زوجها عامر حين عاد، وقالت فيما قالت:

– يا أبا عبد الله، لو رأيت عمرَ آنفا، ورقته وحزنه علينا؟

سألها زوجها مستخفًا بسذاجتها وطيب قلبها:

- أطمعتِ فى إسلامه؟

أجابت: نعم.

قال عامر: فلا يُسلم الذى رأيتِ حتى يُسلم حمارُ ابن الخطاب!

وتناقل المشركون كلمته، وما منهم إلا وهو على رأى عامر بن ربيعة، يأسا من إسلام عمر بن الخطاب، لما كان يُرى من غلظته وشدة قسوته على الإسلام.

وما كان الذى ظنته «أم عبد الله بن عامر» من رقته إلا وهما.

أو هذا هو ما تعلل به المشركون وهم يسمعون ما أنكرت آذانهم من القصة الغريبة عن إسلام عمر بن الخطاب.

* * *

خرج متوشحا سيفه، وأخذ مسراه إلى «الصَّفا» وفى عينيه بريق يتوهج.

فهناك عند الصفا بيت يعرفه، سمع أن محمدًا يجتمع فيه مع رهط من صحابته، نحو أربعين، ليعبدوا رب محمد.

وفى طريقه إلى هذا البيت عند الصفا، لقيه «نُعيم بن عبد الله» فسأله: أين تريد يا عمر؟

أجاب: أريد محمدًا هذا الصابئ الذى فرّق أمر قريش وسفه أحلامها وعاب دينها وسب آلهتها، فأقتله.

قال له نُعيم:

- غرّتك نفسُك يا عمر! أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمدًا؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟

سأله عمر مستريبًا:

- وأى أهل بيتى؟

قال نعيم:

- صهرُك وابنُ عمك، سعيد بن زيد بن عمر وبن نفيل، وزوجه فاطمة بنت الخطاب، أختك، فقد والله أسلما وتابعا محمدًا على دينه، فعليك بهما.

وصكَّ الخبر مسمع عمر، فعدَل عن طريق الصَّفا وانطلق إلى بيت صهره وابن عمه، يهدر بالغضب والوعيد...

فلما دنا من البيت، توقف يصغى إلى تلاوة خافتة. ثم اقتحم الباب فلمح أخته فاطمة تخفى صحيفة معها.

سأل وهو ينقل بصره بينها وبين زوجها سعيد:

– ما هذه الهينمة التى سمعتُ؟ لقد أُخبِرتُ أنكما تابعتما محمدًا على دينه.

وبطش بابن عمه سعيد بن زيد. فقامت فاطمة لتكُفَّه عن زوجها فضربها فشجَّها، وعندئذ قالاً معًا، فى تحدٍّ وإصرار:

– نعم، قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك.

وفجأة، تراخت قبضة عمر عن سعيد، وكأنما أُخذ بإيمانهما أو كأنه ندم حين رأى دم أخته يسيل من أثرِ شجَّتِهِ. قال لها مسترجعًا:

– أعطينى هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرءون منها آنفا، أنظر ما هذا الذى جاء به محمد.

وأقسم لها بآلهته، ليَرُدَّن الصحيفة إليها بعد أن ينظر ما فيها. لكنها أبت عليه أن يمسَّها حتى تطهر. فأعطته إياها وفيها (سورة طه) وقرأها عمر فبدا عليه الخشوع وقال:

– ما أحسن هذا الكلام وأكرمه!

وعاد السارى فأخذ طريقه إلى الصفا.

طرق باب البيت على المصطفى ﷺ وصحابته، فقام رجل منهم فنظر من خلل الباب، ثم أقبل على المصطفى ﷺ فقال وما يخفى فزعه:

– يا رسول الله، هذا عمر بن الخطاب متوشحًا السيف.

قال عليه الصلاة والسلام: «ائذن له».

ونهض إليه فلقيه فى الحجرة وسأله:

– ما جاء بك يا ابن الخطاب؟

أجاب عمر: جئتك لأومن بالله، وبرسوله، وبما جاء من عند الله.

عندئذ كبَّر المصطفى عليه الصلاة والسلام تكبيرةً عرف منها أهل البيت من الصحابة «أن عمر قد أسلم».

وسرى صداها فى أرجاء مكة بخبر إسلام عمر، فبات المشركون بين مصدق ومكذب.

حتى غدا «عمر» عليهم وهم فى أنديتهم حول الكعبة، وقد تقدمه ابن معمر الجمحى، فصاح بأعلى صوته:

- يا معشر قريش، ألا إن عمر بن الخطاب قد صبأ.

قال «عمر» من خلفه:

- كذب، ولكنى أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله.

وثاروا إليه، فواجههم فردًا لا يباليهم، ثم أخذ مجلسه قرب الكعبة وهو يقول:

- افعلوا ما بدا لكم، فأحلف بالله أنْ لو كنا ثلاثمائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا!.

* * *

الحصار . . . وعام الحُزن

﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

(صدق الله العظيم)

* * *

لم يكن المشركون من قريش قد أفاقوا من صدمة إسلام عمر بن الخطاب، حين عاد وافداهم إلى النجاشي، يحملان إلى مكة صدمة الخيبة وفشل المسعى.

فهل لم يبق إلا الحرب؟

لقد رفض المصطفى كل ما عرضوه عليه من مقترحات ليكفّ عن دعوته، وأبى أن يساوموه على دينه.

وكذلك فشلت كل المفاوضات مع أبي طالب، ليكف عنهم ابن أخيه أو يخلي بينهم وبينه.

والإسلام يفشو في القبائل،

وزعامة قريش تهتز وتترنح، وتوشك أن تفقد سيطرتها على الموقف، وقد اعتز الإسلام بحمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب، ومثلهما في الرجال قليل.

وهذا النجاشي يفتح بلاده لمن يهاجر من المسلمين، ويؤمن كل من يلجأ إليه منهم، ويأبى أن يمسهم أذى في جواره.

وبدأت قريش تتأهب لجولة حاسمة، ولمح أبو طالب نُذُر الشر فدعا عشيرته الأقربين إلى منع محمد - ﷺ - والقيام دونه، فأجابوه، إلا أبا لهب، عبدالعزى بن عبدالمطلب بن هاشم.

لكن قريشًا، وقد عيل صبرها من صبر المسلمين، كرهت أن تخوض حربًا مسلحة مع آل عبد المطلب وبني هاشم، وهم من صميمها.

واستقر الرأي بعد طول مداولات، على أن تفرض عليهم حصارًا اقتصاديًا واجتماعيًا لا يرحم.

واجتمع زعماء قريش فائتمروا فيما بينهم على مقاطعة بنى هاشم: (لايصهرون إليهم ولا يبيعونهم شيئًا ولا يبتاعون منهم)، وسجلوا حلف التعاقد فى صحيفة علقوها فى جوف الكعبة، توثيقا لحرمتها وتوكيدًا على أنفسهم فى التزامها[1].

وأقاموا على ذلك الحلف المشئوم زمنًا، سنتين أو ثلاثًا، لقى فيها المسلمون والهاشميون من جهد الحصار ما لا يحتمل، وحيل بينهم، -وقد انحازوا إلى شعب أبى طالب- وبين الطعام والشراب يشترونه من التجار الوافدين على أسواق مكة، وقد يأتى أحدُ المتحازين إلى الشِّعب سُوق مكة يلتمس قوتًا يشتريه لعياله، فيقوم أبو لهب ويصيح بالتجار:

«غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا معكم شيئًا، وقد علمتم مالى ووفاء ذمتى».

فيزيد التجار ثمن السلعة أضعافًا مضاعفة، ويرجع أصحاب محمد ﷺ إلى صبيتهم بالشعب وليس فى أيديهم طعام، ويرجع التجار إلى أبى لهب فيفيهم ثمن ما غالوا فيه على المحاصرين فلم يدركوه.

وبلغ منهم الجوع وجهد الحصار مبلغًا يصوره قول «سعد بن أبى وقاص الزهرى» رضى الله عنه بعد محنة الحصار بسنين:

«لقد جُعت حتى إنى وطئت ذات ليلة على شىء رطب فوضعته فى فمى وبلعته، وما أدرى ما هو حتى الآن». وكانت التمرة الواحدة ربما وقعت لاثنين منهم يقتسمانها فيكون أحسنهما حظًا من وقعت نواةُ التمرة فى قسمه، يلوكها بقية يومه!

وإنما كان طعامهم الخبط وورق السمر، وما قد يأتيهم به سرًا بعض ذوى رحمهم، بدافع من المروءة والنجدة، مستخفيًا به من طواغيت قريش الساهرين على إحكام الحصار وإنفاذ وثيقة المقاطعة.

روى ابن إسحاق فى (السيرة النبوية) والطبرى فى (تاريخه) أن أبا جهل بن هشام لقى «حكيم بن حزام بن خويلد الأسدى» معه غلام يحمل قمحا، يريد به عمته «خديجة بنت خويلد» مع زوجها المصطفى ﷺ فى شعب أبى طالب. فتعلق أبو جهل بحكيم وقال له:

- أتذهب بالطعام إلى بنى هاشم؟ والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة.

ولحقهما «أبوالبخترى بن هاشم الأسدى» فجاء يسأل أبا جهل: مالك وله؟

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ٣٧٩/١ وتاريخ الطبرى: ٢٢٥/٢.

قال: يحمل الطعام إلى بني هاشم.

فما راعه إلا أن قال أبو البختري:

«وما في هذا؟ طعام كان لعمته عنده، بعثتْ إليه فيه، أفتمنعه أن يأتيها بطعامها؟ خلِّ سبيل الرجل».

فرفض أبوجهل أن يستجيب له، وتشادَّا فأخذ أبو البختري لِحْيَ بعير فضربه به فشجَّه، ووطئه وطئًا شديدًا. وحمزة بن عبد المطلب يرى ذلك من قرب، ويتأهب للبطش بأبي جهل.

وهم يكرهون مع هذا أن يبلغ خبر ذلك ومثله، رسول الله ﷺ وأصحابه بالشعب.

* * *

ثم كان لليل الحصار آخر:

اهتزت ضمائر نفر من قريش فأنكروا الحلف المشئوم الذى تورطوا في التعاقد عليه منفعلين بعاطفة الجماعة وغريزة القطيع، وقد صبروا عليه طويلاً مكرهين، حتى بلغ ذروته القاسية في مثل ما كان من أبي جهل بن هشام مع حكيم بن حزام.

وكان أول من تكلم في الحلف وسعى في نقضه «هشامُ بن عمرو بن ربيعة العامري» وكانت تربطه بالهاشميين صلة رحم، فهو ابن أخي نضلة بن هاشم، لأمِّه. وقد دأب طول مدة الحصار، على أن يصلهم، فكان يأتي ليلاً بالبعير قد أوقره طعامًا أوثيابًا، حتى إذا بلغ به مدخل الشعب خلع خطامه من رأسه وضربه على جنبه، فيدخل البعير الشِعبَ على مَن فيه، بما يحمل.

فلما طال عليهم جهد الحصار، مشى هشام بن عمرو بن ربيعة العامري، إلى «زهير بن أبي أمية بن المغيرة المخزومي زاد الركب» وأمُّه عاتكة بنت عبدالمطلب، عمة المصطفى ﷺ.

قال له هشام:

«يا زهير، أقد رضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء، وأخوالك حيث علمت، لا يباعون ولا يبتاع منهم، ولا ينكحون ولا يُنكح إليهم؟ أما إني أحلف بالله أنْ لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم، ما أجابك إليه أبدًا».

ففكر زهير مليًّا ثم سأل:

«ويحك يا هشام، فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد. والله لو كان معي رجلٌ آخر لقمتُ في نقض الصحيفة حتى أنقضها».

قال هشام: قد وجدت رجلًا.

فسأله: من هو؟

أجاب: أنا!

قال زهير: ابغنا رجلًا ثالثًا.

فذهب هشام إلى «المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف» فقال له:

«يا مطعم، أقد رضيت أن يهلك بطنان من بنى عبد مناف، وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه؟ أما والله لئن أمكنتموهم من هذه، لتجدنّهم إليها منكم سراعًا».

فكان جواب مطعم كجواب زهير.

وخرج هشام يبغى رجلًا رابعًا، فاختار «أبا البخترى بن هشام الأسدى» لما عُرف من مروءته ونخوته، وما ذاع من خبره مع أبى جهل حين أراد أن يحول بين حكيم بن حزام الأسدى، والذهاب بالطعام إلى عمته.

حدثه هشام العامرى بمثل ما حدث به صاحبيه زهيرًا ومطعمًا، وسأله أبو البخترى: هل أجد مَن يُعين على هذا؟

أجاب هشام: نعم، زهير بن أبى أمية المخزومى زادِ الركب، ومطعم بن عدى بن نوفل، وأنا، معك».

فنظر أبو البخترى بعيدًا إلى ما يتوقع من حق قريش فى غضبها للحلف المعقود الموثّق، وطلب إلى هشام أن يبغى مؤيدًا خامسًا، فذهب إلى «زمعة بن الأسود بن عبد المطلب الأسدى» فكلمه فى بنى هاشم، وذكر له قرابتهم منه وحقهم عليه، فأجاب زمعة.

وتواعد الرجال الخمسة على اللقاء ليلًا بخَطم الحجون، أعلى مكة، وهنالك أجمعوا أمرهم وتعاهدوا على القيام فى أمر الصحيفة الظالمة حتى ينقضوها، واختاروا من بينهم «زهير بن أبى أمية المخزومى» ليكون أول من يجاهر برفض الصحيفة ونقض الحلف، فى مجتمع قريش بالحرم المكى.

فلما أصبحوا وغدت قريش إلى أنديتها، غدا «زهير» عليه حُلّة، فطاف بالبيت العتيق سبعًا ثم أقبل على الناس فقال:

«يا أهلَ مكة، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هَلكى لا يُباع لهم ولا يُبتاع منهم؟ والله لا أقعد حتى تُشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة».

صاح أبو جهل بن هشام، وكان فى ناحية من البيت الحرام:

«كذبتَ، والله لا تُشق».

فردَّ عليه زمعة بن الأسود:

«أنت والله أكذب، ما رضينا كتابها حيث كُتب!».

وثنَّى أبو البخترى:

«صدق زمعة، لا نرضى ما كُتب فيها ولا نُقره».

وأيّدهما مطعم بن عدى:

«صدقتما، وكذب من قال غير ذلك. نبرأ إلى الله منها ومما كُتب فيها».

وتكلم هشام بن عمرو، فقال نحو ما قالوا...

وبُهت أبو جهل، والأصوات تأتيه من كل ناحية بالتكذيب والرفض، فنقَّل بصره حائرًا بين هؤلاء الرجال الخمسة، ثم لم يجد فى أخذة المباغتة بموقفهم سوى أن يقول:

«هذا أمرٌ قُضى فيه بليلٍ، تُشوور فيه بغير هذا المكان».

لم يلقوا إليه بالاً، وقام المطعم على مرأى من الجمع -وأبو طالب هناك قد انتحى ناحية من المسجد- فانتزع الصحيفة من مكانها فى جوف الكعبة ليشقها، فإذا بالأَرَضة قد أكلتها وأتلفتها، لم تدع منها إلا كلمة: «باسمك اللهم»!.

وجمت قريش،

ونهض أبو طالب يسعى إلى مَن فى شعبه بالبشرى، وقد ذكر وهو فى طريقه من البيت العتيق، بنيه الذين هاجروا إلى الحبشة، فهتف منشدًا، يرجو أن يبلغهم هنالك صدى صوته:

ألا هل أتى بحريَّنا صنعُ ربِّنا	على نأيهم، واللهُ بالناس أرودُ
فيخبرَهم أن الصحيفة مُزِّقت	وأنْ كلُّ ما لم يرضه اللهُ مُفْسَدُ
تراوَحَها إفكٌ وسحرٌ مجمع	ولم يُلْفَ سحرٌ آخرَ الدهر يَصعدُ
جزى اللهُ رهطًا بالحجون تتابعوا	على ملاءٍ يَهدى لحزمٍ ويُرشد
قعودًا لدى خَطم الحجونِ كأنهم	مقاولة، بل هم أعزُّ وأمجدُ
قضوا ما قضوا فى ليلهم ثم أصبحوا	على مهَلٍ إذ سائر الناس رُقَّدُ
وكنا قديمًا لا نُقِرّ ظُلامةً	وندرك ما شئنا ولا نتشدد

فيـا لَقُصَىٍّ هـل لكم فى نفوسكم   وهـل لـكُمْ فـيما يجىءُ بـه غَـدُ
فـإنى وإيـاكم كـما قـال قـائـل: «لـديكَ البيـانُ لو تكلمتَ أَسْوَدُ»[1]

* * *

وأيقظ صوتُه كلَّ من فى الشعب، فهللوا للبشرى. وهتف المسلمون منهم: «اللّهُ أكبر».

وسعوا إلى الكعبة فطافوا بها، ثم آبوا إلى بيوتهم فى أم القرى، ينتظرون ماذا يكون من أمر قريش بعد أن تهاوى الحصار...

* * *

لكن محنة الحصار لم تنجل إلا لتسلم إلى ليل طويل لا يبدو له آخر...

ماتت «السيدة خديجة» أم المؤمنين الأولى، وزوج نبيهم المصطفى ﷺ وسكنُه ووزيره، فى العاشر من شهر رمضان سنة عشرٍ من المبعث...

ومات فى العام نفسه «أبو طالب» عم المصطفى وكافله ومانعه، ومَن كان له عضدًا وحرزًا وناصرًا على قومه...

فأحيا موتهما ما مات من أمل المشركين فى النصر بعد تهاوى الحصار، فعادت وطأة الاضطهاد إلى أشد مما كانت عليه قبل «عام الحزن».

وأحس المصطفى وحشة الغربة فى بيته وأرض مبعثه، واشتدت عليه وطأة الحزن لفقدهما، حتى خيِّل لأعدائه أن النصر عليه جِدُّ قريب، ما دروا أن الظلمة تشتد قبيل الفجر!

أدرك عليه الصلاة والسلام أن الموقف لابد أن يتخذ مُتَّجها آخر. وراح يمد بصره إلى ما وراء مكة، يستوعب أبعاد الرؤية لما يحتمل من مُتَّجه الأحداث.

* * *

---

(١) حديث الحصار هنا، منقول من (السيرة النبوية) ٣٧٩/١ و(تاريخ الطبرى) ٢٢٥/٢ من طريق ابن اسحاق.

الإسراء

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾

(صدق الله العظيم)

* * *

قبل الهجرة كانت رحلة الإسراء، وقد اقترب أوان التحرك إلى موقع جديد، بعد أن بلغت الجولة المكية ذروة تعقدها.

واحتاج مثل ذلك التحول الخطير إلى عملية امتحان قبله، تستخلص الصفوة المؤمنة التى تصلح لاجتياز معبر التحول، وتقدر على حمل تكاليف الجهاد فى الجولة الصعبة التى كانت تنتظر الإسلامَ فى دار هجرته.

وفى الواقع التاريخى، أن السنوات العشر الأولى من المبعث، مضت تمتحن المسلمين الأولين بالفتنة والأذى والاضطهاد.

وقد تأخر الإذْنُ لهم فى القتال، ريثما تتم عملية الامتحان والتمحيص، فكان الثباتُ لوطأة الفتنة وجهد الحصار، يستصفى للإسلام جنده المخلصين.

ثم جاءت آية الإسراء، تتمة حاسمة لهذا الاستصفاء.

* * *

لم تكن الليلة فى أولها، تختلف عن ليال سابقات تتابعت على مدى سنين، من ليلة المبعث:

طواغيت المشركين من قريش مجتمعون فى دار الندوة، يحورون ويدورون فى حلقة مفرغة، التماسًا لوسيلة أو ثغرة يَنْفذون منها عبر الطريق المسدود.

والمصطفى ﷺ، قد أقام صلاة العشاء فيمن كان معه من آله وصحبه رضى الله عنهم، وأوى إلى خلوته يتعبد ويتهجد كعادته فى كل ليلة، وما من أحد يتوقع أن يأتى الفجر القريب بجديد غير المعهود المألوف فى أم القُرى.

وبزغ نور الفجر، والمصطفى حيث تركه آله وأصحابه بعد صلاة العشاء، وقام عليه الصلاة والسلام فصلى بمن معه، ثم جلس فيهم بعد الصلاة يحدثهم أنه قد أُسرِى به فى ليلته تلك، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى...

واسرأبّت إليه قلوبُهم، وشُدَّت أسماعهم إلى حديث الإسراء، ولو استطاعوا لأمسكوا أنفاسهم المبهورة، لكى يخلُص إليهم صوتُ نبيِّهم فى أنقى صفائه وتفرُّده.

وانتهى الحديث،

وران عليهم صمت خاشع، أخذهم فيه العجبُ كلَّ مأخذ وهم يستعيدون فيما بينهم وبين أنفسهم حديث الإسراء، ويحاولون أن يستوعبوا أبعاد رؤياه الباهرة، ويتمثلوا مشاهده المثيرة. ولعلهم ما كانوا ليجرحوا هذا الصمت، لولا أن رأوا النبى عليه الصلاة والسلام يقوم من مُصلاه، آخذًا طريقه إلى حيث كان أهل مكة قد بدأوا حركتهم اليومية مع مشرق الصبح.

عندئذ قامت «أم هانىء بنت أبى طالب» فتشبثت بابن عمها المصطفى ﷺ، تضرع إليه ألا يُحدث الناس بما رأى، لئلا يُكذبوه.

وتلبث عليه الصلاة والسلام يسمع ما تقول بنت عمه، وقد أدرك ما يساورها من قلق وخوف. ثم استأنف سيره ليلقى القومَ، مسلمين ومشركين، بحديث الإسراء.

* * *

ماذا قال عليه الصلاة والسلام عن مسراه فى تلك الليلة؟

وما الذى نزل فى الإسراء من آيات القرآن؟

فى صحيح الحديث المتفق عليه[1] تفصيل لرحلة الإسراء من بدئها فى المسجد الحرام:

جاءه جبريل أمين الوحى، والمصطفى نائم، فأيقظه من نومه وحمله على البراق - دابة بين البغل والحمار - وانطلق يسرى به حتى وصل إلى بيت المقدس، حيث وجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى، فى نفر من الأنبياء عليهم السلام، فأمّهم المصطفى للصلاة.

ومن الصحابة من يقتصر - فيما نقل ابن هشام عن ابن إسحاق فى: السيرة النبوية - على هذه الرحلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ذهابًا وأوبة.

---

(١) أخرجه الشيخان: البخارى فى (كتاب الأنبياء) ومسلم فى (كتاب الإيمان) من الصحيحين.

ومنهم كثير، يروون معها قصة المعراج من بيت المقدس صعودًا في السماء إلى سِدْرَةِ المنتهى، ثم عودة إليه حيث ينطلق البراق ساريا بالمصطفى ﷺ إلى موضعه الأول، بالمسجد الحرام[1].

وهذا الحديث مرويٌّ بإسنادٍ عن عددٍ من الصحابة رضى الله عنهم، وقد يختلفون في بعض التفاصيل، لكن الحديث في جملته ليس موضع خلاف:

ففى المكان الذى بدأ منه الإسراء، هناك رواية تقول إن المصطفى كان نائمًا بالحِجْر حين أتاه جبريل فأيقظه، وتؤيدها آية الإسراء بصريح قوله تعالى: ﴿من المسجد الحرام﴾.

وهنالك رواية أخرى عن «أم هانىء بنت أبى طالب» رضى الله عنها قالت:

«ما أُسرِىَ برسول الله ﷺ إلا وهو فى بيتى: نام عندى تلك الليلة فصلى العشاء الآخرة، ثم نام ونمنا، فلما كان قُبيل الفجر أَهَبّنا ﷺ، فلما صلى الصبحَ وصلينا معه قال: يا أم هانىء، لقد صليتُ معكم العشاءَ الآخرة كما رأيتِ بهذا الوادى، ثم جئتُ بيتَ المقدس فصليتُ فيه. ثم قد صليتُ صلاةَ الغَداةِ معكم كما تَرين».

ومع نص آية الإسراءِ: ﴿من المسجد الحرام﴾ حمل المفسرون رواية أم هانىء، على أن المسجد الحرام يمكن أن يُتأوَّل فى معنى الحرم، والحرمُ كله مسجد.

* * *

ولم يذكر القرآن الكريم تفصيلاً لمشاهد الإسراء، فليس فى سورته إلا آيتها الأولى التى تحدد مجال الإسراء وغايته:

﴿سبحان الذى أسرىٰ بعبدهِ ليلاً من المسجدِ الحرام إلى المسجدِ الأقصى الذى باركْنا حولَه لنُريَه من آياتنا إنه هو السميعُ البصير﴾ ومعها، آية الرؤيا من سورة الإسراءِ:

﴿وما جعَلنا الرؤيَا التِى أَرَيْنَاكَ إلا فتنةً لِلنَّاسِ﴾.

فهل كان الإسراءُ من تجلِّى الرؤيا، أو كان حقيقةً بالجسد؟

ذلك ما اختلف فيه الصحابة أنفسهم:

فى رواية عن «ابن عباس» رضى الله عنهما:

«إنها رؤيا عَيْنٍ أُرِيها رسولُ الله ﷺ، وليست رؤيا منام».

ورواية أخرى عن السيدة «عائشة أم المؤمنين» رضى الله عنها تقول:

---

(١) أنظر تفصيل الإسراء والمعراج، فى (الصحيحين) وفى «السيرة النبوية الشامية»: ٣٦/٢ ط الحلبى.

«ما فُقِدَ جسدُ رسولِ الله ﷺ، ولكن اللَّهَ أَسْرَى برُوحِه».

وقد نقل ابن إسحاق هذا الخلاف بين أن يكون الإسراءُ بالجسد حقيقةً، أو بالروح رؤيا، ثم قال:

«وكان رسول الله ﷺ، فيما بلغنى، يقول: (تَنام عيناى وقلبى يَقْظَانُ)».

«والله أعلم أي ذلك كان قد جاءَه، وعايَنَ فيه ما عاين من أمرِ الله. على أىِّ حالَيْه كان: نائما أو يقظان، كلُّ ذلك حقٌّ وصدْق»[1].

* * *

وكان ما أراد الله للإسراءِ برسوله، من «فتنة للناس» وابتلاءٍ لمن آمنوا منهم، وللذين أسلموا ولَمَّا يدخل الإيمانُ فى قلوبهم. وقد يكفى لبيان ما كان من فتنة الإسراءِ، أن نقرأ ما نقل «ابنُ هشام» رواية عن ابن إسحاق:

«فلما أصبح ﷺ، غدا على قريش فأخبرهم الخبرَ. فقال أكثر الناس: «هذا واللّهِ العجَبُ البيِّنُ. واللّهِ إن العِيرَ لتطرد شهرًا من مكةَ إلى الشامِ مُدبرةً، وشهرا مُقبلة؛ أفيذهب ذلك محمدٌ فى ليلة واحدة، ويرجع إلى مكة؟»».

«فارتد كثيرٌ ممن كان أسلم، وذهب الناس إلى أبى بكر - ولم يكن قد سمع بعدُ حديث المصطفى ﷺ عن الإسراءِ - فقالوا له:

- هل لك يا أبا بكر فى صاحبك؟ يزعم أنه قد جاءَ هذه الليلةَ بيتَ المقدس وصلى فيه ورجع إلى مكة!

فقال لهم أبو بكر:

- إنكم تكذبون عليه.

قالوا: بلى، ها هو ذاك فى المسجد يُحدث به الناسَ.

قال أبو بكر:

- والله لئن كان قاله، لقد صدق. فما يعجبكم من ذلك؟ فواللّهِ إنه لَيُخبرنى أن الوحى ليأْتيه من السماءِ إلى الأرض فى ساعةٍ من ليلٍ أو نهار، فأُصدقه، فهذا أبْعَدُ مما تعجبون منه»[2].

وغيرُ بعيد من رواية (السيرة) ما نقله «الإمام الطبرى» فى تفسيره:

---

(١) ابن إسحاق: الهشامية ٢ ٣٧٢ واقرأ معه: تفسير الطبرى لآية الإسراء.

(٢) ابن إسحاق: الهشامية ٢ ٣٩٢.

«قال المشركون من قريش: تَعَشَّى فينا - بمكة - وأصبح فينا، ثم زعم أنه جاءَ الشامَ فى ليلة ثم رجع! وايمُ الله إن الحدأةَ لَتجيئُها فى سهرين: شهرًا مقبلةً وشهرًا مدبرةً... ما كان محمد لينتهى حتى يأتى بكذبةٍ تخرج من أقطارها.

«فأتوا أبا بكر فقالوا له:

- هذا صاحبك يزعم أنه أتى الشامَ فى ليلته فصلىَّ ببيت المقدس ثم رجع!

فردَّ أبو بكر:

- أوَ قد قال ذلك؟ واللهِ لئن كان قاله لقد صدق».

فلما جادلوه فيه، قالها الصدِّيق:

- أُصدقه بخبرِ السماءِ، وَحْيًا، والسماءُ أبعدُ من بيت المقدس، ولا أُصدقه بخبرِ بيت المقدس؟!

«ثم أقبَل أبو بكر حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ فسأله:

- يا نبى الله، أحَدَّثتَ هؤلاءِ القومَ أنك جئتَ بيتَ المقدس هذه الليلة؟

قال عليه الصلاة والسلام: نعم.

فسأله أبو بكر أن يصفه له، فجعل رسول الله يصفه لأبى بَكر، فكلما وصف منه شيئا قال أبو بكر:

- صدقتَ، أشهدُ أنك رسولُ الله.

قال عليه الصلاة والسلام لصاحبه:

- وأنت يا أبا بكرٍ الصِّدِّيقُ»[1].

* * *

وحَقَّقَ الإسراءُ آيته: فتنةً وابتلاءً وتمحيصًا:

نَحّى عن حزبِ الله مَن رابَهم أمرُ الإسراءِ بالمصطفى ﷺ، وليس أعجب من الوحى يأتيه من الله سبحانه.

واستصفى للإسلام جنده المخلصين، ممن صحّ إيمانُهم وصدقت عقيدتهم.

وصدق الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرؤيا التى أَرَيْنَاكَ إلا فتنةً للناس﴾.

---

(١) تفسير الطبرى: جـ ١٥ (سورة الإسراء).

(٣)
بـوادر التحـــول

- نجران، ويثرب
- أبواب موصدة
- بيعة العقبة ومُتَّجَهُ الأحداث

نجـران . . . ويثرب

﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ﴾

(صدق الله العظيم)

* * *

حتى عام الحزن، السنة العاشرة من المبعث، كانت نجران ويثرب تبدوان بعيدتين عن مسرح الأحداث.

وفى نجرانَ مركز النصرانية فى بلاد العرب.

وفى يثرب وما حولها من شمال الحجاز، مستعمرات يهود.

وقد يُظن ألا يختلف موقف نصارى نجران من الإسلام عن موقف يهود الشمال، وهؤلاءِ وأولئك أهل كتابٍ يتلون التوراة والإنجيل ويصدقون برسالات الله.

لكن موقفهما فى الواقع التاريخى كان جدَّ مختلف:

نصارى نجران عرب مؤمنون، فيهم رهبان بررة كانوا هنالك ملءَ القلوب والأسماع، إخلاصًا فى العبادة وعزوفًا عن الشهوات وعزوفًا عن أعراض الدنيا.

ويهودُ يثرب أجانب طارئون دخلاءُ، يدَّعون الموسوية ذريعة استغلال، وفيهم أحبار ذوو عدد، شُغلوا عن الدين بالدنيا....

رابَ نصارى نجران قبيل الإسلام، أن كان اليهود ممن روَّجوا لبشرى المبعث. فهل قصدوا بهذا إلى أن يُلقوا غشاوة على أبصار العرب، كيلا تلمح على سِحنتهم بصمة الجريمة النكراءِ للائتمار بالسيد المسيح عليه السلام؟

لقد بعُد العهد بها، كما بعُد مسرحُها فى القرية الظالمة عن بلاد الحجاز وأرض المبعث، لكن النصارى بوجه عام لم يكونوا لينسوا هذه الجريمة، فضلا عن أن ينسى نصارى نجران جريمة

أخرى لم يتقادم عليها الزمن، بلغ ضحاياها عشرين ألفًا من نصارى العرب فى نجران، أوّلَ عهدِها بالنصرانية.

المأساة بدأت حين وفد على ديارهم راهب نصرانى صالح، ابتنى له خيمة بضواحى نجران وعكف على عبادة الله، فمال إليه فتى عربى من أهلها، وكانوا على دين العرب أهلَ شرك، قد اتخذوا نخلة باسقة وثنًا لهم، وجعلوا لها يوم عيدٍ يعكفون فيه على نخلتهم ويعلقون عليها أحسن ثيابهم وحلى نسائهم.

واسم الفتى العربى: «عبد الله بن الثامر» وكان أبوه يرسله إلى ساحر مشهور هناك ليلقنه أسرار الصنعة، فكلما مرَّ فى طريقه إلى الساحر بخيمة الراهب، أطال الوقوف قريبًا من بابه، يصغى إلى تراتيله وصلواته.

وعلى يد «ابن الثامر» تنصر أكثرُ عربِ نجران ، فسار إليهم «ذو نواس» بتحريض من يهود اليمن، فدعاهم إلى اليهودية وخيرهم بينها وبين القتل، فاختاروا أن يموتوا على دينهم، شهداءَ...

وأمر ذو نواس جنوده، وهم يهود، فحفروا أخدودًا عميقًا أوقدوا فيه النار، وسيق ألوف من النصارى المؤمنين فألقوا فى نار الأخدود، والمجرمون محيطون بهم يقتلون كلَّ من يحاول الخلاص من الحريق، ضربًا بالسيف.

وظلت مأساة الضحايا الشهداء - وفى الخبر أنهم قاربوا عشرين ألفًا من الرجال والنساء - تؤرق نجران حتى أوان المبعث، وفى أولئك الضحايا المؤمنين، وفى السفاحين أصحاب الأخدود، نزلت آيات البروج:

﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ① وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ② وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ③ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ④ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ⑤ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ⑥ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ⑦ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ⑧ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ⑨ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ⑩ ﴾

وعرب الحجاز كانوا قبل الإسلام بعيدين عن مأساة الأخدود، فألقوا أسماعهم إلى ما روج يهود من بشرى مبعث نبى حان زمانه، غير مستريبين فيما وراء هذه البشرى من قصد، لكن نصارى نجران، رابهم الأمر من يهود: عقوا نبيهم موسى، وكفروا بالمسيح وائتمروا به وبمن اتبعه من المؤمنين.

وبُعث المصطفى عليه الصلاة والسلام، ونجران على نصرانيتها، وكان نصاراها بشهادة مؤرخى الإسلام: «أهلَ فضل وتقوى واستقامة» وقد سمعوا بأخبار المبعث من جيرانهم وأهل ملتهم نصارى الحبشة، وتوقعوا أن يكون ليهود دور خبيث مع الدين الجديد، وإن لم يكن هذا الدور قد بدأ بعد..

وكان لابد لنصارى نجران من أن يطمئنوا إلى رأى فى الإسلام ونبيه العربى الأمى، وذلك ما لا سبيل إليه فى دوامة الأخبار والشائعات التى تتعثر وتضطرب فى طريقها إليهم، فتأتيهم مهوشة مختلطة.

وكان أن قرروا إرسال وفد منهم إلى مكة، يأتيهم بالخبر اليقين عن هذا الدين الجديد، ليكونوا منه على بينة...

* * *

أخذ الوفد طريقه شمالاً إلى مكة، عشرون رجلاً من أهل الرأى والعلم فيهم، يلتمسون أن يلقوا نبى الإسلام ويكلموه وينظروا فيما جاء به، بعد ستة قرون وإحدى عشرة سنة، من ميلاد المسيح عليه السلام.

وفى الحرم المكى، كان اللقاء.

دنوا من المصطفى ﷺ وقد أخذ مجلسه عند الكعبة، فسألوه فى دينه،

وحدثهم عليه الصلاة والسلام عن الإسلام فعرفوا أنه الحق من ربهم.

وتلا عليهم القرآن ففاضت أعينهم من الدمع خشوعًا، وتفتحت قلوبهم المؤمنة لتلك الكلمات تخشع لها صمُّ الجبال...

واستجابوا لله...

وفى طريقهم من مجلس المصطفى إلى باب البيت العتيق، عرض لهم أبوجهل بن هشام فى نفر من طواغيت قريش، شق عليهم أن يصدق هؤلاءِ النصارى، وهم أهل كتاب، بنبوة محمد، فيوقعوا الريبة فى نفوس العرب من تكذيب المشركين من قريش.

قالوا لهم:

«خيَّبكم اللّهُ من ركب! بعثكم مَن وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتـوهم بخبر الرجل، فلم يطمئن مجلسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال. ما نعلم ركبًا أحمق منكم».

ردَّ المؤمنون:

«سلام عليكم، لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه، لم نألُ أنفسَنا وقومَنا خيرًا»[1] فيروى أن هذه الآيات، من سورة المائدة المكية، نزلت فيهم:

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾

(صدق الله العظيم)

* * *

---

(١) ابن إسحاق: السيرة النبوية ٣٦/٢.

فماذا عن «يثرب» عاصمة شمال الحجاز؟

ماذا عن موقف عصابات يهود من نبى الإسلام الذى طالما بشروا ببعثه مصدقًا لما معهم من التوراة والإنجيل، وما عرفهم التاريخ إلا قتلةَ الأنبياءِ وأعداءَ كلِّ دين؟

كمنوا هناك فى مستعمراتهم شمالى الحجاز، يرصدون المواجهة الأولى بين الإسلام والوثنية، وأسماعُهم مشدودة إلى مكة تلتقط أنباءَ الصراع الدائر هناك، وفى حسابهم أن قريشًا سوف تتكفل بالقضاء على الدعوة الجديدة فى مهدها، فتريح اليهود الذين ما هدأ لهم بالٌ منذ نزلت الكلمات الأُولى من كتاب الإسلام، خوفًا من أن يكشف عما زيَّفت يهود من الديانة الموسوية، وما حرفت من التوراة التى اتجروا بها وراحوا يمُنون على العرب الأُميين بأنهم أهلُ كتاب.

وإن مثلَهم فيما حُمِّلوا من التوراة ثم لم يحملوها: ﴿كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا، بِئْسَ مَثَلُ الَّذين كذَّبُوا بآيات اللّهِ، وَاللّهُ لا يَهدِى القَوْمَ الظَّالِمِين﴾.

وإذ أَلقت قريش بكلِّ ثقلها فى مقاومة الإسلام، توارت يثرب عن مسرح الأَحداث، حتى كانت أم القرى هى التى اتصلت بها، والجولةُ المكية فى عنفوان احتدامها:

لقد رابَ قريشًا من أَمر الدين الجديد الذى تصدت لمقاومته فى بغى وعناد، ثباتُ المصطفى والذين معه فى وجه الوثنية الطاغية، وتفانيهم فى سبيل عقيدتهم لم يردهم عنها أذىً مهلك ولا حصار منهك، ولم تفلح معهم مساومة ولا مفاوضة.

ولقد جاوزت قريش المدى فى اضطهاد الدعوة، والمسلمون يزدادون على الأَذى صمودًا واستبسالاً، وإن أَحدَهم ليلقى الموت فى سبيل دينه، ووجهه يتأَلق بنور الإيمان والغبطة والرضى.

أَفيمكن أَن يكون هذا كله، فى سبيل دعوة كاذبة ورسالة مفتَراة!؟

وما الذى يَعِدُ به محمدٌ أُصحابه؟

إنه لا يملك أَن يرد عن نفسه أَذى قريش إلا أَن يشاء ربه، فضلًا عن أَن يرده عمن اتبعوه وآمنوا برسالته، وهو قد باع الدنيا ليدعو إلى ربه، فليس لديه مال يعوض به الذين أُوذوا فى سبيل دعوته وخَرجوا من ديارهم وأَموالهم مهاجرين بدينهم من الفتنة والبلاء.

إنما يعدُهم محمد ثوابَ الآخرة ويبشرهم برضوانٍ من ربه، وفى الذين صدَّقوه مَن عُرِفوا بالحكمة وسداد الرأى، فهل كانوا بحيث يقبلون هذه الصفقة يبيعون فيها دنياهم بالآخرة، لو لم يكونوا موقنين بِصدق الوعد؟

وقريش تفهم أن يجود العربى بحياته دفاعًا عن شرفه وذودًا عن حماه،

وتفهم كذلك أن يبذل العربى حياته غضبًا لموروث العقائد والتقاليد والأعراف،

لكنها ما عهدت قط مثل ذلك الجود السخى الباذل، جهادًا فى سبيل عقيدة غير موروثة، يدعو إليها بشرٌ مثلهم يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق!

ورابها أكثر، أنه ما من عربى لقى محمدًا وأصغى إليه غيرَ معانِد، إلا آمن بنبوته وصدَّق برسالته، وبايعه على الجهاد معه بالنفس والمال!

فماذا لو استفتت أحبارَ يهود بيثرب، فى أمر هذا النبى البشر، لعلهم يحسمون هذا الهاجس من قلق وارتياب؟

إنهم أهلُ كتاب، لديهم ما ليس لدى العرب الأميين من علم بالنبوة والأنبياء، وعندهم تستطيع قريش أن تلتمس ما تطمئن به إلى موقفها العدائى من بشر يدعو إلى دين جديد، وما جرّبت على هذا الداعى كذبًا قط، وإنه فيها للصادق الأمين. والكلمات التى يتلوها من وحى ربه، ليست مما يستطيعون أن يأتوا بمثلها...

وكان الأمد قد طال على يهود فى انتظار ما توقعت من حرب بمكة، تقضى على الإسلام وتنهك قريشًا إن لم تحصدها حصدًا، فتفتح ليهود أبواب أم القرى، وتُمكّن لهم من النفاذ إلى المركز التجارى الاكبر فى بلاد العرب.

وغاظ اليهود أن تشتد وطأة قريش على المسلمين فلا ينفد لهم احتمال ولا يُغلَب لهم صبر!

كما غاظهم أن يطول صبر قريش على الموقف، فتلجأ إلى المساومة والمفاوضة، وإلى الإيذاء والاضطهاد، ثم إلى المقاطعة والحصار، دون أن تتجاوز بالموقف حافةَ الحرب!

فمتى يفلت الزمام من أيدى المكيين فتخرج السيوف من أغمادها لتنهى الصراع الذى طال.

فى مثل هذا كانت يهود تفكر، حين جاءها خبر من مكة عن تشاوُر قريش فى إرسال وفد منها إلى يثرب، يستفتى لها أحبار يهود فى أمر النبى، بما لديهم من علم الكتاب.

واستعدت يهود للفرصة المواتية:

شهدتهم مستعمراتهم فى يثرب وتيماء وخيبر وفدك ووادى القرى... يجتمعون إلى أحبارهم ويتدارسون.

وتذاكروا فيما بينهم أنهم الذين روّجوا فى العرب لبشرى نبى حان مبعثه، وأنهم كذلك، طالما منوا على العرب الأميين بأنهم أهل كتاب ودين، وهذا النبى العربى يدعو إلى دين مصدق لما بين يديه من التوراة والإنجيل. فكيف السبيل إلى تكذيب اليهود مَن بشروا بمبعثه؟ ومن أى طريق يظاهرون عبدة الأوثان على داع إلى عبادة الله، رب موسى وعيسى، وإبراهيم وإسحق وكل الأنبياء المرسلين؟!

الموقف بالغ التعقيد والحرج، ولكن هل يخونهم دهاؤهم فلا يسعفهم بما يحتالون به عليه؟

إنها فرصة سانحة للكيد للإسلام وقريش معًا، لو تركوها تفلت منهم لعقّوا طبيعتهم.

من هنا كان التشاور والمدارسة والتواطؤ، احتيالاً على الموقف الصعب والتماسًا لمخرج منه، وإعدادًا للفتوى يقدمونها إلى وفد قريش المنتظر.

* * *

تسامع بنو هاشم بما عزمت عليه قريش من استفتاء يهود يثرب فى نبوة محمد بن عبد الله، فتوجسوا شرًا من هذه العصابة الماكرة، واسترجعوا ذكرى بعيدة للعم أبى طالب بن عبد المطلب، حين مرَّ بالراهب «بحيرى» فى طريقه إلى الشام فى رحلة صيف، وكان قد صحب معه ابن أخيه محمدًا، غلامًا لم يبلغ العاشرة بعد، فلما رآه الراهب بحيرى توسم فيه مخايلَ غدٍ موعود، ونصح لعمه «أن يعود به إلى بلده، وأن يحذر عليه شرَّ يهود!»[1].

وقد مر على ذلك التحذير نحو أربعين سنة، نسى فيها بنو هاشم ما كان، وغاب صوتُ الراهب السى العابد فى ضجيج الأحداث وكرّ السنين، حتى بدا لقريش أن تستفتى فى أمر محمد، هؤلاء اليهود الذين ذكرهم الراهب بحيرى لعمه أبى طالب، وحذره على ابن أخيه من شرِّهم.

وإذ لم يكن فى استطاعة بنى هاشم أن يردوا قومهم قريشًا عما أرادوا، وقد فسد ما بينهم منذ انحازوا إلى أبى طالب فى منع محمد بن عبدالله من قريش.

لم يبق إلا أن ينتظروا وتنتظر مكة كلها، ما يكون من فتوى يهود.

* * *

---

(١) السيرة: ١٩٦/١.

أخذ «النضرُ بنُ الحارث، وعقبة بن معيط» طريقهما إلى يثرب، موفَدين من قريش إلى أحبار يهود، التماسًا لرأيهم فى أمر محمد ودعوته.

وكانت يهود قد استعدت للقائهما وأعدَّت فتواها.

أسعفها مكرها فلم تفجأ قريشًا بجحدٍ صريح لنبوة طالما بشرت بها، وإنكار مباشر لدينٍ يرفض عبادة الأوثان ويدعو إلى عبادة ربِّ موسى وسائر الأنبياء...

وآثرت أن تشغل القوم بمسائل تبلبل أفكارهم وتُعنت نبى الإسلام، فكانت فتوى الأحبار للنضر وعقبة، أن يعودا إلى قومهم فليسألوا هذا الداعى عن ثلاث. قالوا:

«سَلُوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول، ما كان أمرهم؟ فإنه قد كان لهم حديث عجيب.

«وسَلُوه عن رجل طوَّاف قد بلغ مشارقَ الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه؟

«وسلوه عن الروح ما هى؟

فإن أخبركم بذلك فاتبعوه، وإن لم يفعل فهو رجل متقوِّل، فاصنعوا فى أمره ما بدا لكم»[1].

وعاد الرجلان إلى مكة، فاتجها فور وصولهما إلى منتدى قريش، فأبلغاهم فتوى الأحبار.

وعَجِلوا إلى النبى الأمى - عليه الصلاة والسلام - يُعنتونه بالمسائل الثلاث، فما درى عليه الصلاة والسلام بم يجيب عنها، وما كان يتلو من قبل القرآن من كتابٍ ولا يخطه بيمينه.

واستمهلهم فى الجواب عما سألوا عنه، رجاء أن يتلقى الوحى بما يقول فيها.

لكنهم ألحوا عليه بإعناتهم، وقد عرفوا ألا جواب لديه عما يسألون من فتوى أحبار يهود.

حتى نزلت آية الإسراء (٨٥) فى الروح:

﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾.

وبعدها نزلت سورة الكهف، وفيها الخبر عن أمر الفتية أصحاب الكهف:

﴿ .... أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً

---

(١) السيرة: ٣٢٦/١.

﴿ ... وهيئ لنا من أمرنا رشدا ﴿١٠﴾ فضربنا على آذانهم في الكهف
سنين عددا ﴿١١﴾ ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا
أمدا ﴿١٢﴾ نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم
وزدناهم هدى ﴿١٣﴾ ﴾

صدق الله العظيم

ومعها الآيات عن ذى القرنين الطواف:

﴿ .... ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه
ذكرا ﴿٨٣﴾ إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سببا ﴿٨٤﴾ فأتبع
سببا ﴿٨٥﴾ حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ووجد
عندها قوما قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا ﴿٨٦﴾ ﴾

صدق الله العظيم

إلى آخر الآيات من سورة الكهف ٨٣ – ٩٨.
وخاب مكرُ يهود وحبِط سعيُهم،
وصدق الله تعالى:

﴿ .... قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا ﴿١٠٣﴾ الذين ضل
سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴿١٠٤﴾
أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم
فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا ﴿١٠٥﴾ ذلك جزاؤهم جهنم بما
كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزوا ﴿١٠٦﴾ ﴾

صدق الله العظيم

* * *

وعادت يثرب فتوارت عن مسرح الأَحداث إلى حين، دونَ أَن تصرف سمعها عن الصراع

الدائر بين الإسلام والمشركين بمكة، وهو يدنو من ذروة تعقده مؤذنًا بوشك تحوُّلٍ في مُتَّجه الأحداث.

وربما بدا في ظاهر الأمر أن «يثرب» حددت موقفها بالرفض البات للدعوة الإسلامية، حين أوشكت أن تصل إليها من بعيد.

وكان الخزرج، لا اليهود، هم الذين ردُّوها بحدِّ السيف.

حدَث أن قدم «سويدُ بن الصامت الأوسى» مكة حاجًّا في الموسم، فلقيه المصطفى ﷺ حين سمع بمقدمه، ودعاه إلى الإسلام.

قال سويد: «فلعل الذى معك مثل الذى معى؟».

ولما سأله النبي ﷺ عما معه؟ قال:

«مجلة لقمان» - يعنى صحيفة حكمته...

فتلا عليه المصطفى آيات من القرآن، فلم يبعد منه حتى عاد إليه وقال: «إن هذا لقولٌ حسن».

وانصرف وهو يتدبر ما سمع من القرآن، وكان شاعرًا حكيمًا لا يخفى عليه وجهُ القول، فقدم يثربَ على قومه وراح يتحدث إليهم عن معجزة الكتاب العربي المبين، فلم تلبث الخزرج أن قتلته، وفى حسابها أن يثرب ليست بحيث تحتمل وطأة دين جديد، وحسبها ما لقيت من شر يهود، يزعمون أنهم أهل كتاب![1].

* * *

وتكرر المشهد مع وفد آخر من الأوس جاءُوا من يثرب، وإن اختلفت الأشخاص واختلف المكان، وكان الأوس، هذه المرة، هم الذين ردُّوا الإسلام عن يثرب!

قدم «أنسُ بن رافع» مكةَ ومعه فتية من بنى عبد الأشهل، فيهم إياس بن معاذ، يلتمسون الحلفَ من قريش على قومهم الأعداءِ من الخزرج.

وسمع بهم المصطفى عليه الصلاة والسلام، فأتاهم حيث نزلوا بأم القرى، فعرض عليهم الإسلام وتلا فيهم آيات من القرآن.

(١، ٢) السيرة النبوية: ٢/٦٧، ٧٠.

قال إياس بن معاذ، وكان فتى حدثًا سليم الفطرة:

«أي قوم، هذا والله خيرٌ مما جئتم فيه».

فما كان من زعيم الوفد، أنس بن رافع، إلا أن أخذ حفنة من تراب البطحاءِ فضرب بها وجه الفتى وهو يقول زاجرًا:

«دعْنا منك، فلعمري لقد جئنا لغير هذا»[٢].

فصمت إياس،

وقام عنهم المصطفى ﷺ، وقد هموا بارتحال عائدين إلى يثرب...

لكن منطق التاريخ لم يكن ليُبقي يثرب طويلاً بمعزل عن الأحداث، مهما يبدُ من ظاهر هذا الموقف أو ذاك...

* * *

أبوابٌ موصَدَة

﴿ .... قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤) ﴾

(صدق الله العظيم)

* * *

حتى عام الحزن، فى السنة العاشرة من المبعث، لم يكن المصطفى عليه الصلاة والسلام قد خرج بدعوته من أم القرى، مهد مولده ومنزل مبعثه، إلا أن يلقى بعض الوافدين على الموسم فيدعوهم إلى الإسلام.

ففى مكة قبلَ سواها، كان ينبغى أن تستقر الدعوة، بحكم التاريخ الدينى العريق للبلد الحرام والبيت العتيق.

لكن عشر سنين من الصراع المرير بين الإسلام والوثنية القرشية، بلغت بالجولة المكية ذروة تعقدها وفرضت أن تأخذ الأحداثُ مُتجها آخر...

وبدأ المصطفى بالطائف، فخرج من مكة يلتمس النصرة من ثقيف والمنعة بهم من قومه، ويرجو أن يقبلوا منه دعوته التى تصدَّت لها قريش بالمقاومة والاضطهاد، بغيًا وعنادًا...

خرج وحده، فلما انتهى إلى الطائف اتجه إلى ثلاثة إخوة، أبناء عمرو بن عُمير الثقفى، هم يومئذ سادة ثقيف، وكان أحدهم زوجًا لقرشية من بنى جمح، فجلس إليهم ﷺ حيث وجدهم فى بستان لهم ودعاهم إلى الإسلام والتمس نصرتهم.

فكان ردُّ أولهم، أنه يمرط ثياب الكعبة – أى ينزعها ويرمى بها – إن كان الله قد أرسله!

وردُّ الثانى: أما وجَد الله أحدًا يرسله غيرَك؟

وقال ثالثهم: والله لا أكلمك أبدًا! لئن كنت رسولاً من الله كما تقول، لأنت أعظم خطرًا من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنتَ تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك...

فقام ﷺ من عندهم، وقد يئس من خير ثقيف، وأقصى ما طمع فيه منهم، أن يستجيبوا لرجائه في أن يكتموا أمره معهم، كيلا تزداد قريش جرأة عليه.

لكنهم أغروا به سفاءَهم يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس وألجئوه إلى بستان لعتبة وشيبة ابنى ربيعة، وهما فيه، فجلس عليه الصلاة والسلام هناك ريثما ينصرف عنه الناس، وابنا ربيعة ينظران إليه ويريان ما لقى من سفهاءِ أهل الطائف.

رفع المصطفى ﷺ وجهه إلى السماءِ وقال في ضراعة وابتهال:

«اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى مَن تكلنى؟ إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدو ملكته أمرى؟ إن لم يكن بك علىَّ غضب فلا أبالى، ولكن عافيتك هى أوسع لى، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بى غضبك أو يحل علىَّ سخطك. لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك!».

فكأنما تحركت لضراعته رحمُ ابنى ربيعة، فبعثا إليه بعض العنب مع غلامٍ لهما نصرانى يُدعى «عداس».

ودهش عداس، حين سمع المصطفى يقول: باسم الله. قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهلُ هذه البلاد.

ولما حدثه المصطفى عن الإسلام، أكبَّ عليه يقبل رأسه ويديه وقدميه...

لمحه سيداه، فانتظرا حتى عاد إليهما وسألاه:

– مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟

أجاب: يا سيدىَّ، ما فى الأرض خير من هذا، لقد أخبرنى بما لا يقوله غيرُ نبى.

قالا: ويحك يا عداس، لا يصرفنَّك عن دينك، فإن دينك خير من دينه...

* * *

رجع المصطفى ﷺ إلى مكة محزونًا يائسًا من خير ثقيف، والموسمُ قد أهلَّ. فمضى على عادته يعرض دعوته على وفود القبائل العربية التى سعت إلى أم القرى.

وقومُه أشدُّ ما كانوا عليه من خلافه، إلا قليلًا ممن آمن به...

وبدت الجولة فى أولها مدعاة إلى يأس وقنوط:

سعى إلى «منى» حيث مجتمع الحاجّ، فوقف على الحشود هناك يقول:

«يا بنى فلان، إنى رسول الله إليكم، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه وأن تؤمنوا بى وتصدقوا بى وتمنعونى حتى أبين عن الله ما بعثنى به».

فخرج له من جمع قريش رجلٌ أَحْوَلُ وضىءٌ، له غديرتان وعليه حُلة عَدَنية، فقام فى الناس وقال:

«يا بنى فلان، إن هذا إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات والعُزَّى من أعناقكم إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه».

سأل سائل لا يعرفه:

– من هذا الذى يتبع محمدًا ويرد عليه ما يقول؟

وأجاب مجيب: – ذاك عمُّه، عبد العزى، أبو لهب، بن عبد المطلب.

* * *

وانتظر المصطفى ﷺ حتى انصرفت القبائل من «منى» إلى منازلها فى مكة، فأتى كندةَ فدعاهم إلى الإسلام فأبوا عليه.

وكذلك ردَّه بنو كلب، لم يقبلوا منه دعوته.

ثم أتى بنى حنيفة فى منازلهم، فلم يكن أحدٌ من العرب أقبح ردًّا منهم.

وانتقل بدعوته إلى بنى عامر بن صعصعة، فتداولوا أمره فيما بينهم، وإن أحدهم، فراس بن عبد الله بن سلمة العامرى، ليقول:

«والله لو أنى أخذتُ هذا الفتى من قريش لأكلتُ به العربَ».

ثم قام إلى المصطفى ﷺ فقال يساومه:

«أرأيت إن نحن بايعناك على أمرِك، ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟».

قال عليه الصلاة والسلام:

«الأمر إلى الله يضعه حيث يشاءُ».

وردَّ المساوِمُ عن بنى عامر:

«أفتهدف نحورَنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا؟ لا حاجة لنا بأمرك!»...

* * *

بيعة العقَبة ومتَّجه الأحداث

﴿ .... وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

(صدق الله العظيم)

* * *

ومن حيث بدتْ الأَبوابُ كلها موصَدة في وجه الإسلام، ظهرت يثرب على الأُفق الشمالي البعيد، تجذب إليها مجرى الأَحداث من دائرته المقفلة في أُم القرى.

خرج المصطفى ﷺ في الموسم كدأْبِه في كلِّ موسم، يعرض الإسلام على وفود القبائل، وبلغ العقبةَ فلقى رهطًا من العرب، يسأَلهم لما عرف أَنهم من الخزرج:

«أَمن موالى يهود؟» قالوا: نعم.

قال ﷺ: «أَفلا تجلسون أُكلمكم؟»

جلسوا، فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن...

وذكروا ما طالما سمعوا من اليهود الذين غزوهم ببلادهم، عن نبى حان زمانه، يظاهرونه على عرب يثرب من أَوس وخزرج فيقتلونهم.

قال بعضهم لبعض:

«يا قوم، تَعلَّموا واللّهِ إنه لَلنبىُّ الذى توعَّدكم به يهودُ، فلا يسبقُنكم إليه».

وأَجابوه ﷺ إلى ما دعاهم إليه، وقالوا: «إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة

والشر ما بينهم. فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعزُّ منك».

ثم أخذوا طريقهم إلى الشمال عائدين إلى بلادهم وقد آمنوا بالله ورسوله عليه الصلاة والسلام.

* * *

وَشُغِلَتْ يثرب بأمر الإسلام، منذ عاد إليها الخزرجيون الذين بايعوا المصطفى:

العربُ من أوسٍ وخزرج، يُلقون أسماعهم إلى حديث هؤلاءِ الأنصار، ولا يكاد يفرغ لهم عجبٌ لما يشهدون من حماستهم للدعوة، وصدقِ حبهم للرسول وإيمانهم برسالته.

ويهودُ، فى شغل شاغل بهذه البادرة الخطرة.

كان الخزرجيون أصحاب البيعة الأُولى، ستة نفر أو سبعة، لم يكن عددُهم هو الذى شغل يهود، بقدر ما شغلهم أن الدين الإسلامى وصل إلى يثرب، وكان الظن أن يبقى محصورًا فى مكة بين أحياءِ قريش يمزقها بددًا...

وقد راحوا يترصدون خطوات الدعاة الأُولين من الأنصار، متعلقين بالرجاءِ فى أن عرب يثرب لن يلبثوا أن يختلفوا على الإسلام، وأن الأوس لن ترضى عن دعوة حملها رهط من الخزرج، ومثلُ هذا الخلاف المتوقَّع مرجو لأن يلهب نار العداوة والبغضاءِ بينهم، ويمدها بوقود يزيدها حدة وضرامًا:

لكن عاما مضى والأنصار الخزرجيون ماضون فى دعوتهم لا يصدهم عنها من قومهم صادٌّ، حتى إذا حلَّ موسم الحج، ذاع خبر من مكة أن اثنى عشر يثربيًّا ممن وافوا الموسم، لقوا نبى الإسلام عند العقبة وبايعوه..

وجُن غيظ يهود وهى ترى فى هذه البوادر إيذانًا بتحول خطير فى حركة الدعوة الإسلامية التى عاشت فى مكة أكثر من عشر سنين، صامدة لكل ما قاومتْها به الوثنية القرشية من أذى واضطهاد وحصار وفتنة، رافضة كل ما عرضَتْ عليها من مساومات.

وانتظرت يثرب حتى عاد هؤلاءِ الرهط من الأنصار، وفى الظن أنهم خزرجيون كسابقيهم أصحاب البيعة الاولى.

فكانت المفاجأة، أن فيهم ثلاثة من زعماءِ الأوس، مع تسعة من أحياءِ الخزرج.

جمعهم الإسلام ووحّد بينهم وألّف بين قلوبهم، وقد كانوا من قبل متباغضين، بعضُهم لبعض عدو..

* * *

استقبلت يثرب مع الأنصار العائدين من بيعة العقبة، صحابيًّا جليلاً من صميم قريش، هو «مصعب بن عمير بن هاشم العبدرى» مبعوثًا من قبل المصطفى عليه الصلاة والسلام، مع الذين بايعوه من اليثربيين، ليقرئهم القرآن ويفقههم فى الدين..

ونزل مصعب على أنصاريٍّ من سادة الخزرج: «أسعد بن زُرارة» كبير بنى النجار، أخوال عبد الله بن عبد المطلب، والد المصطفى ﷺ..

وكانت يثرب قد تسامعت قبل ذلك بما شاع وذاع من أمر مصعب بن عمير.

قبل إسلامه، كان فتى مكة شبابًا وجمالاً وزهوًا، تلتمس له أُمه، لفرط شغفها به، أفخر الثياب وأندر العطور، حتى ليذكره النبى ﷺ فيقول:

«ما رأيتُ بمكة أحسن لِمّةً ولا أرق ولا أنعم نعمة، من مصعب بن عمير».

بلغ مصعبًا يومًا أن محمد بن عبد الله الهاشمي ﷺ، فى دار الأرقم يدعو إلى الإسلام. فاتجه إليه من تلقاءِ نفسه فبايعه، وكتم إسلامه إشفاقًا على أبويه اللذين شغفهما حبًّا. حتى بصر به «عثمان بن طلحة» يصلى صلاة المسلمين، فأخبر قومه فأخذوه وحبسوه ليفتنوه عن دينه. فلم يزل محبوسًا إلى أن لاحت له فرصة الإفلات فهاجر بدينه إلى أرض الحبشة.

وعاد إلى مكة مع من عادوا من مهاجرة الحبشة حين بلغتهم بشرى انهيار الحصار المنهك الذى ضربه المشركون على المسلمين ومن والاهم من بنى هاشم، فما رأت مكة فتى مثل مصعب، استبدل بأناقة المظهر بهاءَ الإيمان، وبخيلاء النعمة جلال التقى وتواضع الخشوع.

واختاره المصطفى ﷺ من بين أصحابه ليكون إمامَ الأنصار فى يثرب، فأقام عامًا هناك يتنقل بين دورها: يؤم المسلمين فى الصلاة ويعلمهم الدين ويتلو القرآن، فتخشع له القلوب والضمائر متفتحة لنور الهدى.

* * *

خرج مصعب يومًا مع «أسعد بن زرارة» سيد الخزرج، وكان منزله عليه، إلى حي بني عبدالأشهل، واجتمع إليهما رجال من الأنصار. فسمع بقدمهما «سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير» وهما يومئذ سيدا قومهما، وكلاهما على الشرك، دين العشيرة والآباء.

وتحرج سعد بن معاذ من مواجهة أسعد بن زرارة، وهو ابن خالته، فحرَّض أُسيدَ بن حُضير على أن يقوم فيرده وصاحبه عن الحي. قال:

«لا أبا لك! انطلق إلى هذين الرجلين - أسعد ومصعب - اللذين أتيا دارينا ليسفها ضعفاءَنا، فازجرهما وانههما عن أن يأتيا دارينا، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة مني حيث علمتَ، كفيتُك ذلك. هو ابن خالتي ولا أجد عليه مَقْدما».

فالتقط أسيد بن حضير حربته، ثم أقبل إليهما فقال متوعدًا: «ما جاءَ بكما إلينا تسفهان ضعفاءَنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة».

قال له مصعب بن عمير:

أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمرًا قبلته، وإن كرهته كُفَّ عنك ما تكره؟».

فركز أسيدٌ حربتَه وجلس متكئًا عليها يسمع حديث مصعب عن الإسلام وتلاوتَه القرآن، وقد زايله تقبضُه وتجهمُه. ثم قال متهلل الأسارير:

«ما أحسن هذا الكلام وأجمله!».

وأسلم...

وانطلق عائدًا إلى حيث ترك «سعدَ بن معاذ» ينتظره في الجمع من قومه. فما لمحه سعد حتى قال لمن حوله:

«أحلف بالله لقد جاءَكم أسيد بن حضير بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم».

ثم سأله عما فعل بأسعد بن زرارة وضيفه مصعب، فردَّ أسيد محاذرًا:

«كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأسًا! وقد نهيتهما، وإني لأخشى على ابن خالتك من بعض القوم».

فقام سعد مغضبًا، فما أبعد حتى رأى أسعدَ ومصعبا يتجهان إليه مطمئنين، فعرف أن أسيد بن حضير إنما أراد له أن يسمع منهما.

وتجاهل مصعبًا وقال لأسعد، ابن خالته:

«يا أبا أمامة، أما والله لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رُمتَ هذا مني، أتغشانا في ديارنا بما نكره؟».

همس أسعد لصاحبه:

«أي مصعب، جاءك والله سيدُ مَن وراءَه من قومه، إن يتبعْك لا يتخلف عنك اثنان».

وأقبل مصعب على سعد بن معاذ فقال له مثل الذي قال لأسيد بن حضير:

«أو تقعد فتسمع، فإن رضيتَ أمرًا ورغبت فيه قبلته، وإن كرهتَه عزلنا عنك ما تكره؟».

قال ابن معاذ: «أنصفت».

وتكلم مصعب، وقرأ القرآن...

وقبل أن يلفظ سعد بكلمة، عرف القوم الإسلام في وجهه، لإشراقه وتهلله.

وأسلم سعد، ومضى من فوره إلى قومه فسألهم:

«كيف تعلمون أمري فيكم»؟ قالوا:

«سيدنا، وأفضلنا رأيًا وأيمننا نقيبة».

فدعاهم إلى الإسلام فأجابوا جميعًا، فما أمسى في حيّ بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة، إلا مسلمًا ومسلمة[1].

وكانت دور المسلمين تتجاوب منذ بيعة العقبة، بشعر في السعدين: سعد بن عبادة وسعد بن معاذ، قبل إسلامهما:

فإن يُسلم السعدانِ يصبحْ محمدٌ بمكة لا يخشى خلافَ المخالفِ

فيا سعدُ، سعدَ الأوس، كن أنت ناصرًا ويا سعدُ، سعدَ الخزرجين الغطارفِ

أجيبا إلى داعي الهدى وتمنّيا على اللهِ في الفردوس منيةَ عارفِ

دون أن يعرف لمن الشعر، وكأنما هو هاتف يشدو بما كان المسلمون يرجونه من إسلام هذين الرجلين..[2]

وهذا سعدُ الأوس قد أسلم.

---

(1) السيرة: ٨٠/١.

(2) من السيرة، والأبيات رواها الطبري في تاريخه: ٢٤٨/٢. والسمهودي في (وفاء الوفا): ٢٢٨/١.

وبعده، فى بيعة العقبة الكبرى، أسلم سعد الخزرج، ابن عبادة وكان أُحدَ اثنى عشر نقيبًا لأصحاب البيعة الكبرى.

وتوقعت يهود، بل توقعت يثرب كلها والحجاز، أن يكون لهذا الأمر ما بعده...

* * *

بعد إسلام «سعد بن معاذ» وكل قومه من بنى عبد الأشهل، فشا الإسلام فى يثرب فما من دارٍ للعرب هناك، إلا وفيها للدين الجديد أنصار..

وأهلَّ موسم الحج، لاثنتى عشرة سنة بعد المبعث...

وخرج إمام يثرب «مصعب بن عمير» ساعيًا إلى أم القرى، يصحب رهطا من الأنصار، فيهم مَن لم يكن لقى المصطفى ﷺ بعد.

وفى الركب اليثربى، حجاج آخرون غير مسلمين....

ودنا الركب من مشارف مكة، فتهللت وجوه الأنصار ورنت قلوبهم إلى لقاءِ نبيهم عليه الصلاة والسلام، وهم على موعدٍ معه بالعقبة، فى ليلة حدَّدوها من ليالى التشريق، دون أن يعلم بقية اليثربيين بهذا الموعد.

فيما عدا «عبد الله بن عمرو» الذى آنس فيه الأنصار خيرا، فأسروا إليه بموعدهم مع نبيهم المصطفى وقالوا له:

«يا أبا جابر، إنك سيد من ساداتنا وشريف من أشرافنا، وإنا نرغب بك عما أنت فيه»[1].

فى الليلة الموعودة، أوى الأنصار إلى مضاجعهم حيث نزلوا مع سائر قومهم فى رحالهم.

فلما مضى ثلث الليل خرجوا لميعاد النبى ﷺ، يتسللون تسلل القَطا مستخفين، حتى وافوه عند العقبة.

كانوا ثلاثة وسبعين رجلًا، فيهم أبو جابر عبد الله بن عمرو، وامرأتان:

أم عمارة، نسيبة بنت كعب المازنية.

وأم منيع، أسماءُ بنت عمرو بن عدى، من بنى سلمة.

قال العباس بن عُبادة بن نضلة يخاطب قومه:

«يا معشر الخزرج، هل تدرون علامَ تبايعون هذا الرجل؟»

---

(١) السيرة، والاصابة، وتاريخ الطبرى. وقد أسلم أبوجابر رضى الله عنه وشهد العقبة الكبرى، وكان من نقبائها.

قالوا: نعم.

قال: «إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نُهِكَتْ أموالكم مصيبةً وأشرافُكم قتلاً أسلمتموه، فمن الآن: فهو واللّهِ خزىٌ الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه فخذوه، فهو والله خيرُ الدنيا والآخرة».

قالوا للمصطفى ﷺ: ابسط يدك.

فبسط عليه الصلاة والسلام يده فبايعوه، الخزرج منهم والأوس،

وأمرهم ﷺ فاختاروا من بينهم اثنى عشر نقيبًا: تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس.

قال أحد النقباء، العباس بن عبادة:

«يا رسول الله، واللّهِ الذى بعثك بالحق، إن شئتَ لنَميلَنَّ على أهل منى، من المشركين غدًا بأسيافنا».

فردَّ عليه الصلاة والسلام:

«لم نؤمر بذلك، لكن ارجعوا إلى رحالِكم».

ورجعوا إلى رحالهم فتسللوا إلى مضاجعهم فناموا مطمئنين، والدنيا من حولهم ساهرة لا تنام.

* * *

لم يكن النبأ الخطير لبيعة العقبة الكبرى، بحيث يخفى على المشركين من قريش، وأصحاب العقبة هذه المرة، ثلاثة وسبعون من الخزرج والأوس، بايعوا نبى الإسلام على أن ينصروه ويمنعوه.

ومتى؟ وأين؟

فى ليلةٍ من ليالى التشريق بموسم الحج،

وفى مكة، معقل قريش والعاصمة الدينية للوثنية العربية.

وقبل أن يسفر الصبح، تسرب النبأ إلى مكة فهاج غضب المشركين،وإذ ظنوا أن المبايعين من الخزرج دون الأوس، بادر إليهم نفر من طواغيت قريش فقالوا بين وعد ووعيد:

«يا معشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا. وإنه والله ما من حيٍّ من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم، منكم».

فهبَّ مشركو الخزرج يحلفون لهم أنه ما كان من ذلك شيءٌ وما علموه.

ولم يطمئن القرشيون، بل ذهبوا إلى «عبدالله بن أُبَيّ ابن سَلول الخزرجي»، وكان يمنى نفسه بملك يثرب توازره يهود، فسألوه فأنكر الأمر كله إنكارا باتًا، وقال لقريش:

«إن هذا الأمر لجسيم، ما كان قومي ليتفوتوا عليَّ بمثله، وما علمتُه كان».

وانصرفوا وما يزال في نفوسهم ريب مما بلغهم من الأمر الجسيم، فما زالوا يتثبتون حتى علموا يقينًا أنه قد كان لقاءٌ في العقبة على موعد بين محمد وأنصاره، وأن بضعة وسبعين يثربيًا من الأوس والخزرج قد بايعوه، وأن أحد نقبائهم قال له فيما قال:

«نعم والذي بعثك بالحق لنَمنعنَّك... فبايِعْنا يا رسول الله فنحن والله أبناءُ الحروب وأهلُ الحلقة، ورثناها كابرًا عن كابر».

وكرَّت قريش راجعة إلى منزل الحجاج اليثربيين، فإذا بهم قد شدوا رحالهم وأبعدوا في طريقهم إلى شمال الحجاز.

والإسلام معهم، قد بدأ ببيعة العقبة الكبرى مرحلة جديدة مؤذنة بتحول حاسم في اتجاه الأحداث:

في قلب الحجاز معقل الوثنية القرشية والعربية،

وفي الشمال، بيثرب وما حولها، وكانت حتى ذلك الحين معقلًا ليهود...

* * *

ببيعة العقبة الكبرى، أوشكت الجولة الأولى من جولات الصراع بين الإسلام والشرك، أن تنتهي في مكة لتبدأ جولة أخرى...

بعد أن استنفدت تلك المواجهة الأولى، كل ما لدى قريش من وسائل وذرائع لمقاومة الدعوة، دون أن تنتقل من موقفها على حافة الحرب إلى صدام مسلح.

وبدأ التاريخ يلتفت إلى يثرب التي يتجه إليها مؤشر التحول، ويستعيد ما طوى من قديم أخبارها[1].

---

(١) مادة هذا الفصل، مستخلصة من كتاب (وفاء الوفا، بأخبار مدينة المصطفى) للسمهودي، مع مراجعة السيرة لابن اسحاق، رواية ابن هشام، وتاريخ الطبري.

من قديم بعيد موغل فى أعماق الماضى إلى عصر ما بعد الطوفان، بدأ الوجود العربى فى يثرب والحجاز.

الرواية العربية تقول إن (سفينة نوح) رسَت قريبًا من بابل فى موضع سُمِّى «سوق الثمانين» بعدَدِ مَن كانوا فى السفينة الناجية من الطوفان، وقد مكثوا هناك حتى كثروا وضاقت بهم المنطقة، فتفرقوا.

اتجه بنو عبيل، أخى عاد، إلى موضع يثرب، وهو اسم أحد أبناء عبيل، فنزلوا به وعمروه. ثم مالوا إلى موضع آخر فى المنطقة دهمَهم فيه سيل جاحف، فسُمى الجحفة.

وظلت يثرب مهجورة إلى أن عمرتها قبيلة من العرب القحطانية العاربة، بعد تصدع سدِّ مأرب.

هذه القبيلة العربية الصميمة، هى الأوس والخزرج.

أخوان شقيقان، أبوهما «عمرو بن عامر» آخر ملوك سبأ قبل خرابها.

وأمهما «قَيْلَةُ» التى ينتسب إليها عرب يثرب، بنو قيلة.

ونزح إخوتهم «بنو جفنة بن غسان» إلى أرض الشام فأسسوا بها إمارة الغساسنة العربية.

وآخرون من جُرهم، نزلوا حول مكة، وهم الذين أصهر إليهم «إسماعيل بن إبراهيم» جد العرب العدنانية.

أقام بنو قيلة فى يثرب دهرًا طويلًا فى أمن وسلام ورخاءٍ ونعمة، والمنطقة خالصة لهم، حتى طرأت عليهم من الشمال شراذم من فلول يهود، فارين من وطأة الرومان الساحقة، بعد المؤامرة على السيد المسيح عليه السلام.

وحطوا على أخصب منطقة هناك، فما لبثوا أن أنشبوا مخالبهم فيها واستنزفوا خيرها، وأقاموا لهم مستعمرات حصينة فى يثرب وقريظة وخيبر وفدك وتيماء ووادى القرى، وأثروا ثراءً فاحشًا على حساب الوجود العربى الذى بدأ يتصدع من وطأة الغُزاة[1].

حاول العرب أول الأمر أن يأمنوا شر يهود، بعقد حلف جوار معهم، وفى ظل ذلك الحلف استطاع بنو قيلة أن يواصلوا حياتهم ويمارسوا نشاطهم، فخافت يهود على وجودها المغتصب، وقطعت الحلف الذى بينهم، وصرَّح الشر منهم حتى خاف بنو قيلة أن تجليهم يهود عن أرضهم...

---

(١) ولفنسون . تاريخ اليهود فى جزيرة العرب: ٩، ١٨ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر.

إلى أن شب «مالك بن العجلان» أخو بني سالم بن عوف بن الخزرج، وسوَّده الحيَّان من بني قيلة، فكان هو الذي تصدى لأفاعي يهود وقتل بضعة وثمانين من رءوسها، فانكمشوا خائفين يلعنونه في بِيَعهم ومعابدهم كلما دخلوها، ولجئوا إلى أحياءِ العرب يستجدون الحماية والجوار «وقد ذلوا وانكسرت شوكتهم وقلَّ امتناعُهم».

وإنما مكَّن لهم من يثرب بعد ذلك، ما شب بين الأوس والخزرج من خصام خبَّ فيه يهود ووضعوا، وسهروا على إلهاب ضرامه لتخلو لهم الأرض الطيبة.

وبدأت مرحلة مظلمة في تاريخ يثرب، استغرقت بضعة قرون قبل الإسلام – من القرن الأول إلى السادس للميلاد – لم تنطفئ فيها نار الحروب بين الأوس والخزرج، في كل حرب منها نلمح أثر اليهود في تدمير الوجود العربي هناك[١].

وآذن العصر الجاهلي بمغيب، وهذا العدو الخبيث يتربص بالأوس والخزرج الدوائر، ليميل مع المنتصر منهما ويسلب المهزوم.

والمستعمرات اليهودية شماليّ الحجاز تزداد ثراءً بما تستنزف من خير الأرض، ومرافق البلاد الحيوية في قبضة مخالب الذئاب الفارة من مخالب النسر الروماني.

وقد كانت آخر حرب بين الأوس والخزرج، يوم بعاث قبل بيعة العقبة الكبرى بأربع سنوات. ودورُ يهود فيها معروف مشهور: فحين ظهرت بوادر الحرب بين بني قيلة، تدخل يهود بني قريظة يلهبونها بالتواطؤ سرًّا مع الأوس.

فلما علم الخزرج بهذا التواطؤ، بعثوا إلى يهود منذرين:

«إنكم إن فعلتم لم تَنَم عن الطلب أبدا... وأسلمُ لكم أن تدَعونا وتخلوا بيننا وبين إخواننا».

رد يهود على نذير الخزرج:

«إنه قد كان الذي بلغكم، والتمست الأوس نصرنا، وما كنا لننصرهم عليكم أبدًا».

لكن الخزرج أصروا على أن يأخذوا رهائن من غلمان بني قريظة، ضمانا لعدم غدرهم. فدفعوا إليهم أربعين غلامًا يهوديًّا، وإن قائلهم ليقول:

«خلُّوهم يقتلوا الرهن، إن هي إلا ليلة يصيب فيها أحدكم امرأته، حتى يولد له غلام مثل الرهن»[٢].

---

(١) بمزيد تفصيل، في الباب الثاني من كتابي (أعداء البشر) ط المجلس الأعلى للشئون الاسلامية.

(٢) السمهودي: وفاء الوفا: ١/٢١٨.

وغدرت يهود بوعدها للخزرج، حين لمحت غلبة الأوس عليهم.

وانهزمت الخزرج يوم بُعاث، ووضعت فيها الأوسُ السلاح، وسلبتهم قريظةُ والنضير..

اجتاحت العصابة اليهودية دور الخزرج تنهب وتسلب، حتى أتوا دار «عبدالله بن أبى ابن سلول» ليهدموها، فاشترى منهم الأمانَ بدفع رهائنهم إليهم!

ومن ذلك اليوم، بدأ بينه وبينهم حلف الشيطان.

وكان لابد من حرب جديدة يصلاها عرب يثرب، تصفيةً ليوم بعاث.

والأمر فى مثلها لا يعدو انطلاق شرارةٍ من هنا أو من هناك، تؤجج ضرامَ الجذوة التى لبثت متقدة قرونًا، تلتمس بين حين وآخر مَن ينفخ فيها، لتستعر بوقودٍ من رجال الأوس والخزرج.

وقد كان الخزرجيون أصحابَ الثأر لبعاث، ومن هنا كان سعى الأوس إلى مكة التماسًا لحلف قريش على الخزرج.

* * *

ومن حيث توقعت يثرب أن تلتهب الجذوة بشرارة هذا الحِلف، وألقت عاصمة الشمال سمعها إلى مكة فى انتظار عواقب المفاوضة بين وفد الأوس وزعماءِ قريش.

جاءت المعجزة من هناك فأطفأت الجذوة وبددت رمادها هباءً منثورًا...

وكان عجبًا من العجب، أن تأتى «يثربَ» بشرى السلام من مكة، فى الوقت الذى بلغت فيه معركتها بين الإسلام والوثنية ذروة احتدامها.

وحين هم التاريخ بأن يضيف حربًا جديدة إلى الحروب التى مزقت الأوس والخزرج، وقف بعد بيعة العقبة الكبرى فطوى الصفحات الداميات التى خضبت حياة يثرب قرونًا ستة، ليبدأ صفحة جديدة بآية الإسلام التى مَنَّ الله بها على المؤمنين الأنصار، فأصبحوا بنعمته إخوانًا.

وكانت عبرة، أن تجمع العقيدة ما تفرق وانتثر من شَتات القوم، وأن تزيل ما تراكم فى قلوبهم من ثاراتٍ وأحقاد، وتنسخ جاهليتهم المخضبة بالدماء...

وفى ظلّ هذه العقيدة الجامعة المؤلِّفة للقلوب، وتحت لوائها المبارك الميمون، التقى الأوس والخزرج إخوانًا فى الدين وعادوا بعد بيعة العقبة الكبرى أنصارًا للإسلام ونبيِّه عليه الصلاة والسلام، فكانوا هم الدعاةَ الأولين الذين حملوا نوره إلى عاصمة الشمال فى الحجاز، وهيئوها لاستقبال المهاجر العظيم عليه الصلاة والسلام.

* * *

وما يزال اليهود، حتى عصرنا هذا، يقفون عند بيعة العقبة مأخوذين بما كان من جسيم خطرها وبُعد أثرها.

وإن فيهم من يعدها بدء التاريخ الإسلامى، ويراها أَوْلى بذاك من عام الهجرة التى هى فى رأيهم أثرٌ للبيعة الكبرى.

قال المؤرخ اليهودى «إسرائيل ولفنسون، أبو ذؤيب»:

«ومهما يكن من شأن هذه البيعة العظيمة فإنها من الحوادث ذات النتائج الخطيرة فى التاريخ الإسلامى، وإنى أعتقد أنه كان من الحق على المسلمين أن يبتدئوا تاريخهم من تلك السنة، لأن قيمتها لم تكن أقل شأناً من قيمة هجرة الرسول إلى يثرب»[1].

وما كان لليهود يومها أمل، إلا «أن يفلح زعماءُ قريش فى استمالة زعماء الخزرج (!) وإلا فإنهم لابد ذاهبون للتقرب من بعض زعماء اليهود ليعملوا على إحباط أعمال المسلمين فى المدينة»![2].

* * *

(١-٢) تاريخ اليهود فى جزيرة العرب: ١٠٩.

تلاحقت الأحداث بعد بيعة العقبة الكبرى.

أضاعت قريش ما بقى من رشدها، فصبَّت على المسلمين حُمَمًا من الأذى والاضطهاد...

والتقطت يهود أنفاسها، أملًا فى أن تشتعل نار الحرب فتأكل الجمعين من أهل مكة.

لكنهم فوجئوا بتدفق المهاجرين من مسلمى مكة نحو يثرب، بتوجيه من المصطفى عليه الصلاة والسلام، حيث نزلوا على الأنصار إخوانهم فى الدين، بمأمن من قريش.

وأمست دور المهاجرين فى مكة، موحشة خلاء.

لم يبق منهم فى أم القرى، غيرَ مَن حُبِس أو فُتن، إلا الرسول عليه الصلاة والسلام، وصاحباه الصديق أبو بكر، وعلى بن أبى طالب[1].

وتوقعت قريش أن يلحقوا بالمسلمين فى دار الهجرة، فهل تدع الأمر يفلت من يدها بعد ثلاث عشرة سنة من الصراع المرير المنهك؟

لابد من ضربة باترة، تحسم الأمر كله.

وقد حاولتْها قريش، فى جنون غيظها وقهرها.

نقل كُتاب السيرة ومؤرخو الإسلام، أن قريشًا «لما رأت أن محمدًا، ﷺ، قد صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، عرفوا أنهم قد نزلوا بيثرب دارًا وأصابوا منهم منعة، فحَذِروا خروج الرسول إليهم وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم، فاجتمعوا فى دار الندوة — وهى دار جدِّهم قصى بن كلاب، حيث كانت قريش لا تقضى أمرًا إلا فيها — يتشاورون فيها ما يصنعون فى أمر محمد، عليه الصلاة والسلام، حين خافوه.

«قال بعضهم لبعض: إن هذا الرجلَ قد كان من أمره ما قد رأيتم، فإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن اتبعه من غيرنا، فأجمعوا فيه رأيًا».

وتعددت مقترحاتهم، طائشة هوجاء. حتى قال أبو جهل بن هشام:

«والله إن لى رأيا ما أراكم وقعتم عليه بعدُ».

---

(1) السيرة: ٢/١١١ وتاريخ الطبرى: ٢/٢٤٢.

سألوه: «وما هو يا أبا الحكم؟».

قال: «أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابًا جليدًا نسيبًا فينا، ثم نعطى كل فتى منهم سيفًا صارمًا فيعمدوا إليه فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعًا فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعًا، فرضوا منا بالعقل فعقلناه لهم» - يعنى الدية[1].

وانصرفوا وهم مجمعون على هذا الرأى المخبول، وحددوا ليلتهم لذلك موعدًا.

وفى تلك الليلة، خرج المصطفى عليه الصلاة والسلام ناجيًا إلى دار هجرته...

* * *

---

(١) السيرة: ١٢٥٢ وتاريخ الطبرى. ٢٤٣٢ وفيها أسماء من حضروا الندوة من طواغيت قريش.

(٤)
مع المصطفى ﷺ فى دار هجرته

- هجرة... وتاريخ.
- أبعاد الموقف فى ميدان الصراع.
  - □ موادعة يهود.
  - □ تحويل القبلة إلى المسجد الحرام.
  - □ نذر الصدام مع مشركى قريش.
  - □ ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه﴾.
- يوم بدر، وموازين القوى.
- درس من أحد ورسالة من شهيد.
- الإسلام فى الجبهات الثلاث.
  - □ فى الجبهة اليهودية
  - □ مع الوثنية القرشية
  - □ فى جبهة المنافقين.

١ - فى الجبهة اليهودية من أول الهجرة إلى خيبر.

الأحزاب وبنو قريظة.

حديث الإفك.

الله أكبر، خربت خيبر.

٢ - فى الجبهة القرشية: من هدنة الحديبية حتى الفتح ويوم حنين.

هدنة الحديبية وبيعة الرضوان.

قد أَجَرْنَا مَنْ أجارت.

تجربة «مؤتة» ولقاء الروم.

المسير إلى مكة.

الفتح.

﴿ويوم حُنَيْن إذ أعجبتكم كثرتكم﴾.

٣ - المنافقون... والفاضحة.

هجرة . . . وتاريخ

﴿ .... إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

(صدق الله العظيم)

* * *

فى السنة الثالثة عشرةَ للمبعث، كانت الهجرةُ التاريخية التى اختارها، بعدُ، ثانى الخلفاء الراشدين «عمر بن الخطاب» رضى الله عنه، بدايةً للتقويم الإسلامى.

تقديرا لجلال الحدثِ الذى كان منطلَق تحوُّلٍ حاسم وخطير، فى تاريخ الإسلام.

وعلى امتداد الزمان، يحتفل المسلمون حيثما كانوا، بمستهل عام الهجرة، دون أن يفوتهم لمحُ ما كان لها من أثر بعيد فى حركة سير الدعوة الإسلامية، ودون أن يخطئهم إدراكُ ما أعقب تلك الهجرةَ التاريخية من تغير فى موازين القُوى بين حزب الله، وبين الوثنية الباغية من قريش.

وإن فاتهم، أو فات كثيرًا منهم، وعىُ حركة التحول ذاتها، وأعوزهم فهمُ التفسير التاريخى لتلك الهجرة الفاصلة بين أخطر المرحلتين من عصر المبعث.

ولقد مضى عليها أكثر من ألفٍ وأربعمائة سنة، كلما بدأت السنة القمرية بهلال المحرم، تحركت أقلام تحيى الذكرى الخالدة، وشُدَّتْ أبصار وقلوب إلى خطوات المهاجر العظيم ما بين مكة ويثرب، منذ خرج ﷺ من بيته فى مكة ذات نهار – وقد بلغت محنة الاضطهاد أقصى مداها،

بعد ثلاث عشرة سنة من المبعث - فاتجه إلى بيت صاحبه الصديق أبي بكر، وأسرَّ إليه أن الله تعالى قد أُذِن له فى الخروج والهجرة.

هتف الصديق: «الصحبةَ يا رسولَ الله.. الصحبة».

وبدأ التأهب لرحيل عاجل:

بعث أبو بكر يدعو «عبدَ الله بن أُريقيط» وكان دليلاً ثقةً، خبيرًا بمجاهل الطريق، فدفع إليه براحلتين يرعاهما لميعادٍ موقوت.

ودعا المصطفى ﷺ ابنَ عمه «عليَّ بن أبي طالب» فاستخلفه بمكة ليؤدى عنه ودائع كانت للناس.

ثم لما حانت ساعة الرحيل، وقف ﷺ على مرتَفع هناك ببيت صاحبه، فرنا إلى البيت العتيق طويلاً، ثم أشرف على أم القرى فاستوعبها بنظرة حزينة وقال مودعا:

«واللّهِ إنك لأَحَبُّ أرض الله إلى الله، وإنك لأحَبُّ أرض اللّهِ إلىَّ ولولا أن أَهلَك أخرجونى منك ما خرجت».

وتسلل الصاحبان من خوخة فى ظهر الدار، فأخذا طريقهما إلى غارٍ يعرفانه فى جبل ثورٍ بأسفل مكة، فأقاما فيه ينتظران ما يكون من أصداء الرحيل.

وجاءَ اليوم التالى يحمل إليهما فى الغار، الأنباءَ عن خروج نفر من طواغيت قريش لمطاردة المصطفى عليه الصلاة والسلام، وفى الخبر أنهم بلغوا غارَ ثورٍ فتلبثوا عنده وهموا بأن يدخلوه، لولا أن صدهم عنه نسيج عنكبوت على مدخله، وحمامتان وحشيتان وقعتا عليه[1].

قال الصديق للمصطفى ﷺ:

«لو أن أحدهم نظر إلى قدمه لرآنا».

فكان جوابه، ﷺ:

«لا تحزن إن الله معنا».

* * *

وفى هدأة المساء من الليلة الثالثة لمقامهما فى الغار، جاءَ الدليل يسوق الراحلتين حذِرا، فأناخ قريبًا من فتحته. وخرج المصطفى وصاحبه. وجاءت أسماءُ بنت أبي بكر بطعام لهما، فلما أعوزها

---

(١) تفصيل الهجرة، فى الجزء الثانى من: السيرة الشامية، وطبقات ابن سعد، وتاريخ الطبرى.

عِصامٌ تَشد به الزاد إلى الرحل، حلَّت نطاقها فشقَّته نصفين، علقت الزاد بأحدهما وانتطقت بالشقِّ الآخر.

وسرى الركبُ فى تلك الليلة التاريخية، آخذا طريق الجنوب من أسفل مكة، وكان غيرَ مطروق.

وودَّعتهما «أسماءُ» ذات النطاقين، ثم تلبثت تُتبعهما بصرها وقلبها حتى أبعدا، فعادت إلى بيت أبيها مستخفية حذِرة، وهي توجس خيفة من المطاردين.

ولم تمض لحظات حتى فوجئت بطرقات عنيفة تُلح على باب الدار، وإذا نفر من قريش، فيهم أبو جهل بن هشام، يسألونها فى غلظة:

«أين أبوك يا بنت أبى بكر؟»

أجابت: «لا أدرى واللهِ أين أبى».

وما كذبت، فقد كان آخِر عهدها بأبيها مع المصطفى عليه الصلاة والسلام، منطلقين من الغار إلى حيث لا تدرى أين بلغ بهما المسرى فى مجاهل الفلاة.

وفجأةً، بغتتْها لطمة فاحشة على خدِّها، من يد أبى جهل، طرحت قرطها.

وانصرف بمن معه، يتهددون ويتوعدون.

* * *

ومضت أيام وليالٍ لم يكن لمكة فيها شاغل، غير تلك المطاردة العنيفة، تعدو فيها قريش وراءَ مُهاجر أعزل إلا من إيمانه.

وتضاربت الأنباءُ فى الطريق التى أخذها –، حتى جاءَ الخبر من يثرب أن النبى عليه الصلاة والسلام بلغ دارَ هجرته آمنا.

ووعت أذن الزمان ما لا نزال نردده فى كل عيدٍ للهجرة، من هتاف المدينة ترحيبًا بالمهاجر العظيم ﷺ، وما وجد فى دار هجرته من مأمن ونصر...

* * *

وفى واقع التاريخ أن الهجرة لم تُنهِ الجولة الفاصلة بين الإسلام والذين تصدوا له بالعداوة والكيد والحرب.

وإنما كانت بدايةً هذه الجولة الفاصلة.

بقدر ما كانت أثرًا لما سبقها من أحداث، وتحركًا إلى موقع جديد، بعد جولة مريرة وطويلة، فى البلد العتيق.

فإذا كان فى الناس مَن يتصورون أن منافذَ الخطر قد سُدَّت بمجرد انتقال المصطفى من دار مبعثه، وأن الإسلام صار بمأمن من كيد أعدائه بمجرد أن تلقاه الأنصار فى دار هجرته،

فالذى يعرفه الواقع التاريخى أن الصدام المسلح بين الإسلام والوثنية القرشية لم يبدأ إلا بعد الهجرة، وبدأ معه فى الوقت نفسه، نضال شاق بالغ الصعوبة والحرج، مع عصابات يهود التى تصدت للإسلام بعد الهجرة، بكل ما تملك من أسلحه خبيثة ماكرة.

والذى تعرفه السيرة النبوية، أن النبى ﷺ والذين آمنوا معه من المهاجرين والأنصار رضى الله عنهم، واجهوا مع الهجرة مرحلة خطرة معقدة، كان عليهم فيها أن يخوضوا حربًا فى أكثر من جبهة، وأن يستبسلوا فى الجهاد تحت لواء عقيدتهم من حيث يأتيها الخطر: من مواقع مكشوفة سافرة، وأخرى خفية ماكرة.

* * *

والتحول التاريخى لموقع المعركة، لا يمكن فهمه على الوجه الشائع الذى يحسب أن الهجرة عزلت مكة عن مسرح الأحداث.

بل تظل مكة فى صميم الصراع الدائر مهما ينتقل موقعه إلى شمال الحجاز.

ويظل البيت العتيق مهوى أفئدة المهاجرين والأنصار فى دار الهجرة، كما كان مثابة حج العرب من قديم العصور والآباد.

وفى مكة كان مهد المصطفى ومبعثه.

وفيها مستقر الوثنية العربية من قديم موغل فى القدم، ولم تكن الأرستقراطية القرشية التى ورثت وظائف الشرف الدينية فى أم القرى وحققت بها نفوذها وسلطانها، مستعدة لأن تتخلى عن نضالها للإبقاء على الأوضاع الموروثة والأعراف الراسخة، والدفاع عن دين الأسلاف. وما تجنبت الصدام المسلح مع الإسلام فى مكة، إلا رعاية لما للبلد العتيق من حرمة جعلته معبد القبائل العربية ومركز مواسمها التجارية.

كان فى حسابها أن تواجه الخطر بالمفاوضة والمساومة، ثم بالإلحاح فى إيذاء المسلمين وتعذيب المستضعفين منهم، وتحذير كل وافد إلى مكة فى الموسم، من الإصغاء إلى ما يتلو محمد - ﷺ - من كتاب الإسلام.

ثم كان الحصار المنهك وسيلة أخرى من وسائلهم فى مقاومة الدعوة، والترصد لمن يحاول الهجرة من المسلمين، ومطاردتهم حينما ذهبوا.

حتى كان عام الحزن، إيذانا بحتمية التماس منفذ من الأسوار التى سدّت الطريق.

أحس المصطفى بموت زوجه السيدة خديجة وعمه أبى طالب، فراغَ مكانهما فى دنياه، إحساسًا سديد الوطأة، حتى لتقول إحدى الصحابيات «خولة بنت حكيم السلمية» رضى الله عنها:

«يا رسول الله، كأنى أراك قد دخلتك خُلة لفقد خديجة».

وثقل عليه شعور بالغربة، فى بلده وبين أهله وعشيرته.

لكن بيعة العقبة الكبرى هى التى وجهت مؤشر الأحداث نحو يثرب، دون أن تنأى بمكة عن مكانها فى مركز الثقل لمصير التحول...

* * *

احتشدت يثرب فى انتظار المهاجر العظيم الذى لم يكن هناك أدنى شك فى وجهته، برغم ما ذاع من توغل المطاردين فى طريق مكة إلى يثرب، دون أن يظفروا بأثر منه.

اليهود أرسلوا راصدهم يرقب مقدم النبى المهاجر، فأخذ مكانه على مشارف يثرب.

وغير بعيد منه كان المهاجرون والأنصار من أوس وخزرج، يخرجون كل صباح بعد الصلاة إلى ظاهر المدينة، فما يزالون ينتظرون حتى تغلبهم الشمس على الظلال فيعودوا إلى دورهم.

واليهودى قائم هناك فى مرصده لا يريم.

وإذ هم يدخلون بيوتهم ذات يوم بعد أن لم يبق ظل، سمعوا اليهودى يصرخ بأعلى صوته:

«يا بنى قيلة، هذا جدكم قد جاء».

وسرت البشرى فى أنحاءِ دار الهجرة، فتعالى الهتاف من الأحياءِ العربية يشق أجواز الفضاءِ ترحيبًا بالمهاجر العظيم...

* * *

صرخة اليهودى المعلنة بأعلى الصوت، عن وصول المصطفى إلى دار هجرته، زلزلت الأرض تحت يهود فى مستعمراتهم الناشبة فى شمال الحجاز: من حى بنى قينقاع فى قلب يثرب، إلى قريظة وخيبر وفدك وتيماء ووادى القرى.

ورجّ صداها حصون الأبلق والوطيح والسلالم وناعم والقموص، وعشرات غيرها من

الحصون المنيعة والآطام العازلة التي «أقاموها على رءوس الجبال والقلاع ليتحصنوا بها وقت الخطر[1].

وبدأ من اليوم الأول للهجرة، تأهبهم لدورهم الخبيث في مقاومة الإسلام.

وقبل أن نمضي مع المصطفى عليه الصلاة والسلام في دار هجرته، نقف عند نقطة التحول لنتدبر منطقه ونلمح أبعاده، دون إيغال فيها...

* * *

لم تكن الهجرة الأولى إلى الحبشة، ضنًّا بحياة ذلك الرهط من المسلمين الأولين، وإنما كانت هجرة في سبيل العقيدة بذلاً واحتمالاً، وسلاحًا شهروه في وجه الوثنية الغاشمة، لتدرك مدى ما يطيق المؤمنون احتماله من التضحية والبذل في سبيل ما آمنوا به.

وأما الهجرة التاريخية إلى يثرب، فلم تكن بذلاً واحتمالاً فحسب، بل كانت كذلك تحركًا إلى موقع خطير على حافة الحرب، فقد أذن الله في القتال للمسلمين الذين أوذوا وظلموا وأخرجوا [illegible] حق إلا أن يقولوا ربنا الله.

وكان الإذن بالقتال، من حيث لم تتوقع قريش أو تحتسب. وقد مضى على المبعث بضع عشرة سنة ونبي الإسلام يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، ويواجه جبروت الوثنية بكلمات من وحي ربه، كانت على المدى الطويل سلاحه الذي يشهره في وجه الوثنية.

وقد أمنت قريش جانب المسلمين فيما تحرص عليه من تجنب الحرب في البلد الحرام، فلم يخطر لها على بال، أن نبي الإسلام يمكن أن يخوض بالقلة العزلاء من صحابته، معركة حربية مع الوثنية المعتزة بما لها من سلطان، مع قوة باطشة من العدد والسلاح.

من هنا أنكر سمعهم آياتِ الإذن للمسلمين في القتال، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون:

أو يريد محمد أن يفرض عقيدته بالسيف؟ كأنه لم يتلُ من قبل، من كلمات ربه:

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.

﴿فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظًا، إن عليك إلا البلاغ﴾.

﴿ولو شاءَ ربُّك لآمن من في الأرض كلهم جميعًا، أفأنت تُكره الناسَ حتى يكونوا مؤمنين﴾؟

---

(١) السيرة: ١٣٧٢، وتاريخ الطبري: ٢٤٨٢، ووفاء الوفا للسمهودي: ٢٤٤١ – وقابل عليها ما في (تاريخ اليهود في جزيرة العرب) لإسرائيل ولفنسون: ١٥٧، ١١١.

وفى أخذة المباغتة، فاتهم أن يدركوا مغزى الإذن للمسلمين فى القتال: دفاعًا عن دينهم، وتقريرا لمبدأ الإسلام فى حرية العقيدة، ودفاعا عن حرمات لايحل أن تنتهك، وانتصارًا للذين أوذوا وأخرجوا من ديارهم بغير حق «إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ».

وإلزامًا بتكليف الجهاد فى سبيل الحق والخير، فى مواجهة الحسد الكاثر والقوى الباغية:

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾

(صدق الله العظيم)

وهذه هى الجبهة الأولى التى كان على الإسلام أن يخوض معركته فيها إثر الهجرة،

ضد الوثنية القرشية الباغية التى وعَتْ منطقَ الهجرة أتم الوعى، فانكفأت بعد خيبة المطاردة الشرسة، تعبيءُ قواها استعداجًدالصدام. دون أن يتصور أحد من الفريقين أن الهجرة كانت نهاية مريحة للجولة المكية التى استغرقت ثلاث عشرة سنة، أجهدت المسلمين أذى وفتنة

واضطهادًا ومقاطعة وحصارًا، بقدر ما أجهدت قريشًا وأرقت لياليها واستنفدت كل ما لديها من وسائل.

وهل كانت قريش بحيث تغمض عينها وتنام، وقد أعجزها، بكل عُتوها وجبروتها أن تنال من دعوة أذلت كبرياءها وسفَّهت أحلامها وحقرت آلهتها؟.

أو كانت بحيث تأمن على وجودها الجاهلى ودينها الموروث، وهذا النبى المهاجر قد أخذ موقعه الجديد فى عاصمة الشمال، يهدد طريقها التجارية إلى الشام، مصممًا على أن ينسخ برسالته دين قومه ويَدُكَّ صروح وثنيتهم، ومعه رجال مؤمنون اشتروا الآخرة بالدنيا، فهم يرون الموت فى سبيل عقيدتهم شهادة وحياة وانتصارًا؟

هيهات هيهات...

ولو تُرك القطا ليلا لنام!

* * *

على أن هذه الجبهة لم تكن أخطر ولا أضرى من جبهة ثانية كانت تنتظر الإسلام فى دار هجرته.

يهود كانوا هناك، يرصدون مجرى الأحداث فى ذعر وقلق: لقد لبثوا طوال العهد المكى يتعلقون بالأمل فى أن ينهك الصراع أهل مكة، مسلمين ومشركين، فيخلو ليهود الطريق إلى أم القرى، وفيها أسواق العرب التجارية الكبرى: عكاظ ومِجَنة وذو المجاز..

لكن بيعة العقبة الكبرى خيبت هذا الرجاءَ، كما خيبت الهجرةُ أَمَلَهم فى أن يبقى الإسلام محصورًا فى البلد العتيق، بعيدًا عن شمال الحجاز.

ولم يبق لهم إلا أن يتربصوا بالإسلام ويكيدوا له، بكل ما وسعهم من خبث وشر ودهاء...

* * *

ثم كانت هناك جبهة ثالثة من المنافقين الذين ابتلىَ بهم الإسلام فى دار هجرته، ولقى المصطفى ﷺ من عنتهم ونفاقهم وتخاذلهم، أشد مما لقى من طواغيت المشركين.

وكان رأس المنافقين فى المدينة: عبدالله بن أُبَىّ ابن سلول، مولى يهود وحليف الشيطان.

ذلك هو منطق الهجرة: بذلاً واحتمالاً واستبسالاً، وتحركًا إلى موقع جديد خاض فيه المسلمون معركتهم فى الجبهات الثلاث، جهادًا بالنفس والمال، حتى جاءَ نصر الله والفتح...

استحدثت «يثرب» بهجرة المصطفى إليها، اسما إسلاميًا جديدًا هو «المدينة المنورة»: مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام.

وكان وصوله إليها قبيلَ الظُّهر من يوم الاثنين، وقد مضت اثنتا عشرة ليلة من شهر ربيع الأول، في السنة الثالثة عشرة للمبعث.

وأقام في «قُباءَ» بظاهرِ المدينة، في بني عمرو بن عوف، أيام الاثنين والثلاثاءِ والأربعاءِ والخميس، أُسس فيها بقُباءَ أول مسجد في الإسلام.

ثم ركب ناقته «القصواءَ» يومَ الجمعة، وسط حشدٍ من المهاجرين والأنصار، فأدركته صلاة الجمعة في حيٍّ بني عوف بن سالم، فصلَّى بالصحابة أوَّل جمعة بالمدينة المنورة.

وأرخى العنان لناقته وهي تشق أمواج الزحام، ولم يَدرِ أحدٌ يومَها أين يكون منزلُ المصطفى ﷺ، وكل بيوت المدينة مفتوحة له ترحب به، وإن لم يكن له ﷺ دارٌ هناك.

وبدا الموقف صعبًا:

كلما مرَّ عليه الصلاة والسلام بحيٍّ من أحياءِ الأنصار بادر إليه الرجال يسألونه شرف النزول فيهم، وهو عليه الصلاة والسلام يتحرج من إيثار حيٍّ على آخر أو دار على دار، فيقول معتذرًا شاكرًا:

«خَلُّوا سبيل ناقتي».

حتى إذا مرَّ بحيٍّ بني عدي بن النجار، توقعوا أن يكون لهم من خئولتهم لأبيه عبدالله بن عبدالمطلب، حق الحظوة بالشرف الذي رنت إليه كل بيوت الأنصار.

هتفوا: «يا رسول الله، هلمَّ إلى أخوالك، إلى العَدد والعُدَّة والمَنعة».

وتلبث عليه الصلاة والسلام برهة يَملأ عينيه من هذا الحي، ويسترجع ذكريات رحلته الأولى إلى يثرب، حين جاءَت به أمه «آمنة بنت وهب» من مكة وهو في السادسة من عمره، لتزيره قبرَ أبيه الثاوي هناك.

وتخطَّى بصرُه الجموع الزاخرة التي حفَّت بركابه، وتعلق بطيفِ أُمه، ماثلًا شاخصًا لا يغيب.

ومع الذكريات، طوي سبعة وأربعين عامًا من عمره، ليجد نفسه غلامًا غض الصبا، يعود مع أُمه في رحلة الإياب إلى أم القرى، ومعهما «بركةُ أم أيمن» فما قطعوا بعض مراحل الطريق حتى

وَعِكت أمه، ثم أسلمت الروح بين يديه فى بقعة موحشة من الفلاة، بين يثرب ومكة.

وحملت «بَركة» جثمان «آمنة» إلى قرية الأبواءِ فدفنوها هناك.

واستأنف الرحلة إلى مكة واجمًا صامتًا محزونًا مضاعَفَ اليتم.

ومن وراء عشرات سنين أتاه صدى من حشرجة الاحتضار التى روَّعته فى الفلاة، مختلطة بهتاف الترحيب وأناشيد الاستقبال.

وبنو النجار يكررون دعوته:

«هلم إلى أخوالك...».

قال وما يزال يملأ عينيه من ساحة الحىِّ التى كانت ملعبَ حداثته أيامًا، مع لداتِه من صبية بنى النجار:

«خلُّوا سبيل ناقتى».

إلى أين إذنْ؟

إلى حيث تمضى به ناقته القصواءُ.

وقد خطتْ وئيدًا تشق الزحام حتى توقفت غيرَ بعيد، وبركتْ فى مربد هناك لسهلٍ وسهيل، ابنى عمرو...

فحطَّ المهاجرُ رحلَه، وقام يصلى...

* * *

على ساحة المربد الذى بركت فيه «القصواءُ» حين دخل المصطفى دار هجرته،

أَمَر عليه الصلاة والسلام أن يُبنى هناك مسجدُه، ثانى الحرَمين ومزارُ المسلمين على مر السنين والدهور.

وتنافس المهاجرون والأنصار فى بنائه بما تيسر من مواد البناء: اللبن والجريد والليف، وبعض الحجارة والخشب.

والمصطفى ﷺ معهم، يشارك ويوجه ويعين.

وقد يمد يده فينفض الغبار عن لحى بعض صحابته، داعيًا للمهاجرين منهم والأنصار، فيرددون دعاءه مرتجزين:

لا عيش إلا عيشُ الآخره
اللهم ارحم الأنصارَ والمهاجره

ولم يستغرق البناءُ أكثر من أيام معدودات. ومن حول المسجد بُنيت تسع حجرات تفتح على ساحته، لتكون دار المصطفى المهاجر.

وكان مبنى المسجد والحجرات متواضعًا: بعضه من حجارة مرصوصة، وبعضه من جريد يُمسكه الطين. والسقف كله من جريد.

ذكره سبط المصطفى عليه الصلاة والسلام: «الحسنُ بن على بن أبى طالب» فقال:
«كنت أدخل بيوت النبى ﷺ وأنا غلام مراهق، فأنال السقف بيدى».

وشُدَّتْ خَشَبات بالليف، فكانت سريرًا لمن اصطفاه الله تعالى خاتمًا لرسله الأنبياء.

* * *

وغير بعيد من المدينة والحجاز، كانت قصور الحكام والأمراء والأغنياء، فى الحيرة وغسان واليمن، وفى فارس ومصر والحبشة، تعلو سامقة شامخة، ساطعة ببريق البذخ والترف، فتخطف أبصار الدنيا عن ذلك المبنى المتواضع الذى لم يلبث سَنَا جلاله أن كسف كل ما عرفت الدنيا من قصور لكسرى وقيصر وفرعون، أو نجاشى وملك وإمبراطور...

وفى الأحياء اليهودية الناشبة فى المدينة وما حولها من مستعمراتهم شمالى الحجاز، دورٌ منيدة وحصون منيعة، تطل على المبنى المتواضع لنبى الإسلام، فيبدو لها فقيرًا أسد الفقر.

ويلتقط أهلها ما يتلو المصطفى من كلمات ربه فى الحث على الإنفاق فى سبيل الخير، قرضًا لله تعالى، فتذيع قالتهم الفاحشة:

«إنَّ اللَّهَ فقير ونحنُ أغنياء»!

* * *

فى تلك الأيام الأولى بدار الهجرة، نزل المصطفى ﷺ بدار صاحبه «أبى أيوب الأنصارى» ريثما تم بناءُ المسجد والحجرات حوله.

وأما صحابته المهاجرون، فنزلوا على الأنصار من الأوس والخزرج، وقد آخى ﷺ بينهم.

واختار ﷺ ابنَ عمه «على بن أبى طالب» فجعله أخاه.

وهكذا ذهب كل أنصارى بأخٍ له من المهاجرين، وذهب على بن أبى طالب بالمصطفى أخًا.

ودُوِّن عهد المواخاة فى كتاب النبى ﷺ إلى أهل المدينة، مقدمَه إليها.

وأُغلقت دور المهاجرين بمكة.

وتُركت مهجورة موحشة خلاء...

* * *

بعد أن تم بناءُ بيت المصطفى فى دار هجرته، بدت الحاجة إلى زوج تملأُ هذا البيت، وتهيئ للمصطفى سكنًا وراحة، فيما يواجه من أعباء الرسالة فى مرحلتها الحرجة الصعبة.

وكانت «عائشة بنت أبى بكر» قد لحقت بأبيها فى المدينة مهاجرة. وقبل الهجرة بثلاث سنين، كان المصطفى ﷺ قد عقد عليها بمكة، ثم تمهل لم ينقلها إلى بيته هناك، إذ كانت ظروفهما كليهما، لا تعين على التعجيل بإتمام الزواج.

وقد سبقتْها إلى بيت المصطفى فى المدينة، أُم المؤمنين «سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس» التى مات عنها زوجها «السكران بن عمرو» إثر عودتها من هجرة الحبشة، فأشفق عليها المصطفى ﷺ، وتزوجها ليحمل عبئها الذى لقيت من غربة وترمل...[1].

---

(١) تراجم أمهات المؤمنين رضى الله عنهن مفصلة فى (طبقات الصحابة) ومعها كتابى (نساء النبى ﷺ) (طبعات دار المعارف).

وقنعت «سودة» بحظها من زوجها المصطفى ﷺ: من بر ورحمة، ورعاية وسكن.

وأرضاها كلَّ الرضى أن يتشرفها النبى عليه الصلاة والسلام فيُدخلها بيته أمًّا للمؤمنين.

وبقيت حياة محمد ﷺ فى بيته، تقتات من ذكريات الزوج الحبيبة الراحلة «خديجة بنت خويلد» التى أوحشت دنياه منذ رحيلها، فى عام الحزن، بعد أنس عشرة هنيئة امتدت خمسًا وعشرين سنة، لم تشاركها فيها زوج أخرى فى بيت زوجها، أو فى قلبه ودنياه...

وتهيأ مجتمع المدينة ليزف إلى محمد ﷺ، عروسه الصبيه المليحة الذكية «عائشة بنت أبى بكر» وتعلق بها الأمل أن تملأ فى بيته وقلبه، ذلك الفراغ الموحش الذى تركته أم المؤمنين الأولى.

وتم حفل العرس متواضعًا غاية التواضع:

مضى محمد، ﷺ، إلى منزل صهره الصديق، فجاءت «أم رومان: زوج أبى بكر» بابنتها العروس بعد أن سوَّت شعرها وغسلت وجهها وطيَّبتها، وقدمتها إلى زوجها المصطفى ﷺ وهى تدعو الله أن يبارك له فيها ويبارك لها فيه.

ولم تُنحر جَزور ولا ذُبحت شاة، بل كان طعام العرس جفنةً من طعام، هدية من «سعد بن عبادة الخزرجى الأنصارى» وقدحًا من لبن، شرب المصطفى ﷺ بعضه ثم قدمه إلى عروسه فشربت منه.

ونقلها إلى بيتها الجديد، وما كان هذا البيت سوى حجرة من الحجرات المتواضعة التى شيدت حول المسجد النبوى من اللبن والجريد. وأثاثه فراش من أُدم حشوهُ ليف، ليس بينه وبين الأرض إلا الحصير، وفى مدخل الحجرة، أُسدِل على فتحة الباب ستار من وبَر وشعر...

وفى هذا البيت المتواضع، بدأت «عائشة» حياتها الزوجية الحافلة، وشغلت مكانها المرموق فى حياة الرسول والإسلام.

ولم يكن وجود «سودة» على مقربة منها، فى بيت الزوج الذى أحبته عائشة بقلبها البكر ووجدانها المرهف وعاطفتها المتوهجة، يشغل بالها فى كثير أو قليل، فما غاب عنها أن ليس لسودة فى قلب زوجها مكان!.

وإنما الذى كان يشغل عائشة، هو ذلك الحب العميق الذى حظيت به «خديجة» قبلها من الزوج المصطفى ﷺ، وتلك الذكرى الحية لمن استأثرت بكل عواطفه ربع قرن من الزمان.

والزوج الحبيب يروض عائشة على أن ترضى منه بحظوتها لديه، ومنزلتها فى قلبه وفى حياته.

* * *

هل كانت «عائشة» طفلة، كما يحلو لبعض المستشرقين أن ينعتوها، وهم يقيسون نضج المرأة في المجتمع العربي منذ خمسة عشر قرنًا، بمقاييس المجتمع الغربي في عصرنا؟.

الذى يعرفه تاريخنا، هو أن عائشة فى صباها الغض وأنوثتها الذكية، بدأت من اليوم الأول لحياتها الزوجية، تحقق وجودها فى بيتها الجديد وتعى دورها الفذ فى حياة زوجها الرسول عليه الصلاة والسلام، وتفرض شخصيتها على المجتمع المدنى، ثم على التاريخ الإسلامى الذى عرف لها أعمق الأثر فى الحياة الفقهية والسياسية والاجتماعية للأمة الإسلامية..

* * *

هل نسى المهاجرون وطنهم الأول فى البلد العتيق، مهد مولدهم ومغنى صباهم ومثوى آبائهم من قديم الزمان ؟.

هل انقطع ما بينهم وبين أُم القرى، وطووا ما كان لهم فيها من ذكريات ؟.

كلا ! بل بقيت مكة مهوى أفئدتهم مثلما هى مهوى أفئدة الأنصار وسائر العرب.

وما كان الفراق سهلاً، ولا كان فى المهاجرين مَن ودَّعها إلا وقلبُه مثقل بالشجن. وكأنما كان المصطفى ﷺ يعبر عما يجدون، حين وقف ساعة خروجه للهجرة يستوعب مكة بنظرة حزينة ويقول مودعا :

«والله إنك لأحبُّ أرض الله إلى الله، وإنك لأحبُّ أرض الله إليَّ، ولولا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت».

ورغم ما حفلت به الأيام الأولى فى دار الهجرة، من مراسم الترحيب والإخاء وشواغل التنظيم للمجتمع الإسلامى الجديد، كانت وطأة الحنين ترهق أكثرهم فترهف حساسيتهم لتغير المناخ !

* * *

وألمَّ بكثير منهم سقم، وأجهدتهم الحمى، وفى هذيان الحمى كان المطوىُّ من أشواقهم ومكبوت حنينهم، يتنفس مُفلِتا من أعماق أفئدتهم، إلى ألسنتهم.

تتحدث أم المؤمنين السيدة «عائشة بنت أبى بكر» رضى الله عنها عن أول عهدهم بالمدينة فتقول :

«كان أبو بكر وعامر بن فهيرة وبلال، فى بيت واحد.

فأصابتهم الحمى فدخلت عليهم أعودهم، وذلك قبل أن يُضرَب علينا الحجاب، وبهم ما لا يعلمه إلا الله من شدة الوعك، فدنوت من أبى فقلت له :

— كيف تجدك يا أبتِ ؟.

فردَّ مرتجزًا :

كل امرئ مُصَبَّحٌ فى أهلِهِ
والموتُ أدنى من شِراكِ نعلِهِ

فقلت: والله ما يدرى أبى ما يقول.

ثم دنوت إلى عامر بن فهيرة فقلت له:

- كيف تجدك يا عامر؟ فردَّ منشدا:

لقد وجدتُ الموتَ قبل ذوْقِهِ
إن الجبانَ حتفُه من فوقِهِ

قلت: والله ما يدرى عامر ما يقول...

وكان بلال إذا تركتْه الحمى، اضطجع بفناء البيت ثم رفع عقيرته، يذكر مكة وربوعها:

ألا ليت شعرى هل أبيتنَّ ليلةً ... بِفَخٍّ وحولى إذخرٌ وجليلُ
وهل أرِدَنْ يوما مياهَ مَجَنّةٍ ... وهل تبدُوَنْ لى شامةٌ وطفيلُ

فذكرتُ لرسول الله ﷺ ما سمعت منهم فقلت:

- إنهم ليَهذون وما يعقلون من شدة الحمى.

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم:

«اللهم حبِّبْ إلينا المدينةَ كما حببتَ إلينا مكة أو أشدَّ»[1].

* * *

ويح المشركين من أهل مكة، ضلوا وظلموا، واشتطوا فى عُتوهم وعنادهم وبغيهم، وأسرفوا على من أسلموا منهم.

وبقيت مكة مهوى الأفئدة:

لم يسلُ عنها مَن هاجروا منها بدينهم، ولم يغض من شأنها عُتو الوثنية الطاغية.

وإن مكة لمهدُ النبوة ودار المبعث، ومثابة حج العرب من عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

---

(١) نصه، عن ابن إسحاق، من السيرة النبوية رواية ابن هشام: ٢/٢٣٣ ط الحلبى.

أبعاد الموقف فى ميدان الصراع

﴿ * لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ ﴾

(صدق الله العظيم)

* * *

فى حساب التاريخ أن المواجهة الأولى بين الإسلام والوثنية فى مكة، تختلف تمامًا عما يواجهه فى المدينة من معركة معقدة بينه وبين أعدائه، فى ميدان ذى جبهات ثلاث، يلقى فيه حشود قريش فى صدام مسلح، وعصابات يهود فى أوكارهم الخطرة، وجيوب المنافقين الذين حالفوا الشيطان..

وتتداخل هذه الجبهات زمانًا ومكانًا، فيزداد الموقف تعقيدًا وصعوبةً وحرجًا، من حيث لا يستطيع المؤمنون أن يتفرغوا للجهاد فى إحدى الجبهات ثم ينتقلوا إلى أخرى منها، فيكون الأمر عليهم أخف عبئًا وأيسر مشقةً.

وكذلك يشق علينا، فيما تحاول من متابعة المسير مع المصطفى ﷺ فى دار هجرته، أن نمضى مع الأحداث من موقع إلى آخر فى ميدان المعركة الكبرى المعقدة، بمعزل عن غيره من المواقع.

ويمكن القولُ مع ذلك إن الجبهة اليهودية بدأت تشحذ أسلحتها المسمومة لحرب الإسلام، من أول يوم للهجرة.

بينما تأخر الصدام المسلح مع الوثنية القرشية، ريثما يتحدد مجاله ما بين مكة والمدينة، ويتم التأهب له والاحتشاد، فلم يبدأ إلا فى السنة الثانية للهجرة.

وكذلك تأخر ظهور الجيوب الخطرة للمنافقين، ريثما سرى فيها سُم الشيطان بطيئًا خفيًا لم يكدْ يُلحظ إلا بعد أن ضَرِىَ واستسرى، يهدد الوجود الإسلامى فى أحرج المواقف.

ذلك كله مما كان يدخل فى حساب التاريخ، حين بدا فى ظاهر الأمر أن مكة وحدها هى مركز الخطر على الإسلام، وأن له فى يثرب مأمناً من كل خطر.

فلنمض مع الأحداث إلى حيث نرقب منطق الحرب فى الجبهة اليهودية التى لم تطق الصبر على الإسلام منذ تحول إلى دار الهجرة، بل أخذت زمام المبادرة إلى الكيد له، من اليوم الأول.

وقد اقتضت طبيعة الجبهة، أن يأخذ الصراع فيها جولتين.

أولاهما إثر الهجرة، بكل سلاح يهودى إلا الحرب والقتال.

والأخرى بعد بدرٍ وأُحُد والخندق، حيث فرض الوضع المواجهة بالسلاح فى حرب مُعلنة.

ومن الجولة الأولى، ينكشف موضع جديد للخطر، لافتاً إلى موقع فى الميدان لم يكن له حساب فى العهد المكى قبل الهجرة.

* * *

لم يكن قد مضى على المصطفى ﷺ فى دار هجرته يوم وبعض يوم، حين انكمش يهود فى دورهم ومجامعهم يرصدون أبعاد الموقف الطارئ، ويحسبون ألف حساب لما وراءه من تهديد لوجودهم المغتصب هناك.

أقرب الخطر أن ألّف بين قلوب عرب المدينة من أوس وخزرج، وأطفأ ما أوقد يهود بينها من نار العداوة والبغضاء.

ووراءه أن ينير الإسلام بصائر العرب الأميين ويعلمهم الكتاب والحكمة، فينكشف لهم ما عقَّ يهود من الدين الموسوى وحرفوا من التوراة، وقتلوا من أنبياء، واقترفوا من جرائم وحشية أرَّقت البشرية على اختلاف الأجناس والأزمان.

من أول يوم للهجرة، بدأ قلقهم وكيدهم.

وفى بيت زعيمهم «حُيَىّ بن أخطبَ» كانت العصابة فى شغل شاغل بهذا المهاجر الذى صرخ راصدهم معلنًا عن قدومه، فاحتشد عرب يثرب لاستقباله.

وبدا لابن أخطب أن يتسلل هو وأخوه «أبو ياسر» فى غلس الفجر، ليتحققا من شخصية هذا النبى العربى، ويستوثقا من أمره فى ضوء ما أعطت التوراة من ملامح النبوة.

وكانت «صفية بنت حُيَىّ» هناك، صبية مدللة ما تزال فى بيت أبيها، لم تر النبى العربى بعدُ.

قالت بعد أن أسلمت ودخلت بيت المصطفى ﷺ، تسترجع ذكرياتها عن يوم الهجرة.

«كنت أحَبَّ ولدِ أبى إليه وإلى عمى أبى ياسر، لم ألقهما قط مع ولدهما إلا أخذانى دونه، فلما قدم رسول الله، ﷺ، المدينة، غدا عليه أبى وعَمى مغلسين بين الفجر والصبح، فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس، فأتيا متعبين ساقطين يمشيان الهوينى، فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت واحد منهما إلىَّ، مع ما بهما من الغم.

وسمعت عمى أبا ياسر، وهو يقول لأبى:

– أهو هو؟

قال: نعم، إنه هو.

سأله عمى: أتعرفه وتُثبته؟

قال: نعم أعرفه.

وسأل عمي: فما في نفسك منه؟
وردَّ أبي: عداوته ما بقيتُ»[1]

* * *

وكأنما كانت كلمته، أول يوم للهجرة، إيذانًا بفتح جبهة جديدة، أخطر وأضرى من الجبهة المكشوفة مع المشركين من قريش.

* * *

موادعة يهود:

كان همُّ يهود، أن يوادعهم الإسلام ريثما يفيقون من صدمة الهجره، ويتدبرون وسيلة الخلاص من هذا الدين الذى لا يمكن أن يسالموه.

وتعلق أملهم فى الموادعة، بأنهم فى ظاهر أمرهم أهل كتابٍ وأتباع نبى مُرسل. والقرآن فيما سمعوا من آياته، يقرر أنه مصدق لما بين يديه من التوراة والإنجيل، مقر بنبوة عيسى وموسى ويعقوب وإسحاق وإبراهيم وسائر الأنبياء لا يفرق بين أحد منهم.

وفى خبث ومسكنة، تقدموا يرحبون بالنبى المهاجر ويسألونه الموادعة والأمان، وله عليهم أن يكونوا مع أهل المدينة ضد أى عدوان عليها من وثنيى مكة.

وكان الضمان، ما ليهود فى المنطقة من مستعمرات غنية وتجارة رابحة وحصون مشحونة بالأموال والسلاح، فهم أحرص الناس على سلام المدينة وأمن المنطقة.

وأعطاهم المصطفى ﷺ عهده بالموادعة والأمان على أموالهم وأنفسهم وحرية عقيدتهم، مسجِّلا فى كتابه إلى أهل المدينة إثر مَقدِمَه إليها عليه الصلاة والسلام.

ومما جاءَ فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد النبى ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب – المهاجرين والأنصار – ومَن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، أنهم أُمة واحدة...

«وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه، وأن المؤمنين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وأن المؤمنين أيديهم عليه جميعًا ولو كان ولد أحدهم، ولا يقتل مؤمن مؤمنًا فى كافر ولا ينصر كافرًا على مؤمن.

---

(1) السمهودى: وفاء الوفا: ١/٢٧٠، والسيرة الهشامية: ٢/١٦٥.

«وإن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس.

«وإن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم، وإن سلْم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم...

«وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه، وإنه لا يجير مشرك - من أهل المدينة وما حولها - مالاً لقريش ولا نفسًا، ولا يحول دونه على مؤمن. وإنه من اعتبط مؤمنًا قتلاً عن بينة فإنه قَوَد به إلا أن يرضى ولى المقتول. وإن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه.

«وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر، أن ينصر محدثًا ولا يؤويه[1]، وإنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيمة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل، وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد ﷺ.

«وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين. لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم أو أثم فإنه لا يوتغ - يهلك - إلا نفسه وأهل بيته.

وإن جفنة - بطن من بنى ثعلبة - كأنفسهم...

وإن لبنى الشطيبة مثلَ ما ليهود بنى عوف، وإن البر دون الإثم. وإن موالى ثعلبة كأنفسهم، وإن بطانة يهود كأنفسهم...

«وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على مَن حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وإنه لا تُجار حرمة إلا بإذن أهلها.

«وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدَث أو اشتجار يُخاف فساده فإن مردَّه إلى الله عز وجل، وإلى محمد رسول الله ﷺ.

«وإن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره.

«وإنه لا تُجار قريش ولا مَن نصرها.

---

(١) المحدث: من أحدث فى الإسلام بدعة أو ضلالة أو فتنة.

«وإن بينهم النصر على من دهم يثربَ، وإذا دُعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دَعوا إلى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين، إلا من حارب فى الدين. على كلِّ أناسٍ حصتهم من جانبهم الذى قِبَلَهم.

«وإن يهود الأوس، مواليهم وأنفسهم، على مثلِ ما لأهلِ هذه الصحيفة مع البرِّ المحض من أهل هذه الصحيفة.

«وإن البر دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه وإن الله على أصدقِ ما فى هذه الصحيفة وأبرِّه، وإنه لا يحول هذا الكتابُ دون ظالم وآثم. وإنه مَن خرج آمِنٌ ومن قعد آمِنٌ بالمدينة، إلا مَن ظلم أو أثم، وإن الله جارٌ لمن بَرَّ واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ»[1].

* * *

والصحيفة وثيقة تاريخية شاهدة على استجابة نبى الإسلام ﷺ لما طلب يهود من موادعة وأمان وحلف وجوار، وعلى احترام الإسلام حريتهم فى العقيدة، لهم دينهم وللمسلمين دينهم، وتأمينهم على أموالهم وأنفسهم ومواليهم وبطانتهم، إلا أن يأثموا ويظلموا، ويخونوا العهد فيظاهروا عدوًّا على أهل المدينة من المهاجرين والأنصار.

بقدر ما هى شاهدة على أبعاد الجبهة اليهودية، ومدى تغلغلهم فى يثرب.

ولم تذكر مع ذلك غير البطون الناشبة فى أحياء العرب هناك، والمعدودة من مواليها، دون تعرض للمستعمرات اليهودية الناشئة فى خيبر وبنى النضير وبنى قريظة، وتيماء وفدك ووادى القرى...

بل لم تذكر كذلك الأحياء الخاصة بهم فى صميم المدينة، مثل حى بنى قينقاع...

فلنتابع الأحداث...

* * *

---

(١) السيرة لابن هشام: ١٤٩/٢ وتاريخ الطبرى: السنة الأولى للهجرة، وعيون الأثر من طريق ابن اسحاق. وانظره فى (كتاب الأموال لأبى عبيدالقاسم بن سلام)، و(كتاب النبى صلى الله عليه وسلم إلى أهل المدينة وموادعة يهود) كان موضوع رسالة أنجزها بإشراف «الأستاذ خليفة المحفوظى) لدبلوم الدراسات الإسلامية العليا، من دار الحديث الحسنية بالرباط جامعة القرويين.

المدينة التي فتحت قلبها للمهاجر العظيم وبايعته على الإسلام والنصرة والبذل، كانت تتوجس الشر من عصابات يهود التي مزقت الوجود العربي هناك قبل الإسلام.

وبنو قيلة، الأوس والخزرج، الذين فتحوا دورهم لإخوانهم المهاجرين من مكة، كانوا فى ضيق بنفر من أشراف المدينة، ترددوا فى الترحيب بهذه الهجرة التي غيرت الأوضاع وحولت مجرى الأحداث. ثم تابعوا قومهم على الإسلام، بعد تردد وارتياب، دون أن يدخل الإيمان فى قلوبهم.

وعلى رأس المنافقين عبدُ الله بن أُبَيّ ابن سلول الخزرجي، حليف اليهود من يوم بعاث. لقد افتدى نفسه وماله بدفع رهائن اليهود إليهم، حين هجموا بعد انتصار الأوس، على دور الخزرج يذبحون وينهبون...

ومن يومها صار حليفهم الذى يدين لهم بحياته، ويجدون فيه حليفًا يسخرونه فى قضاء مآربهم، حتى فكروا فى أن يتوجوه ملكًا على يثرب، وعكف بعضُ صناعهم فى حى الصاغة اليهودى، على إعداد تاج لهذا المولى الحليف.

وجاءت الهجرة فبددت أمله وأملهم، وشحنت نفسه حسرة على تاجه المسلوب.

* * *

ذات صباح، من الأيام الأولى للهجرة، ركب المصطفى عليه الصلاة والسلام إلى بيت صاحبه «سعد بن عبادة الخزرجي الأنصارى» رضى الله عنه يعوده من مرضٍ أَلَمَّ به.

وفى طريقه إلى بيت سعد، مرَّ بعبد الله بنِ أُبَيّ، فى مجلس له وحوله رجال من أهله، فكره عليه الصلاة والسلام أن يجاوز المجلس دون أن ينزل، فنزل وسلم على القوم، ثم جلس قليلًا فتلا آيات من القرآن الكريم، وذكَّر بالله وحذر، وبَشَّر وأنذر.

وابن أُبَيّ ابن سلول، صامت واجم.

حتى إذا فرغ المصطفى مما أراد أن يقول، بادره «ابن أُبَي» قائلًا فى جفوة وغلظة:

– يا هذا، إنه لا أُحسن من حديثك هذا إن كان حقًّا، فاجلس فى بيتك فمَن جاءك فحدِّثه إياه، ومن لم يأتك فلا تغُتَّه فى مجلسه بما يكره منه!

ولم يدعه الأنصار يتم قولته المنكرة الفاحشة، وانتفض الشاعر الأنصارى الخزرجى «عبدالله بن رواحة» رضى الله عنه يعقب على كلام ابن أبى، متحديًا:

- بلى يا رسول الله، فاغْشَنا بحديثك وائتِنا فى مجالسنا ودورِنا وبيوتنا، فهو والله مما نُحبّ، ومما أكرمنا الله به وهدانا له.

وغضَّ ابن أُبى ابن سلول من بصره وهو يتمثل بقول «خُفاف بن نَدبة السُّلَمى»:

متى ما يكن مولاك خصمَك لا تزَلْ تَذِلُّ ويصرعْك الذين تصارعُ
وهل ينهض البازى بغير جَناحِه وإن جُذَّ يومًا ريشُه فهو واقعُ

وقام المصطفى ﷺ فتابع سيره حتى دخل على صاحبه «سعد بن عبادة» وفى وجهه - ﷺ - ملامح ضيق لما سمع من ابن أبىّ بن سلول.

سأل سعد: «والله يا رسول الله إنى لأرى فى وجهك شيئًا، لكأنك سمعت شيئًا تكرهه».

فأخبره ﷺ بما كان.

وقال سعد: «يا رسول الله، ارفق به فوالله لقد جاءَنا الله بك وإنا لننظم الخرز لنُتَوِّجَهُ. فوالله إنه ليرى أنْ قد سلبتَه مُلكًا»[1].

* * *

---

(١) السيرة النبوية الهشامية ٢/٢٣٧.

لم يكد اليهود يطمئنون إلى موادعة نبى الإسلام إياهم، حتى عادوا إلى أوكارهم يدبرون لحرب الإسلام فى معركة غير مكشوفة، يتقون بها المواجهة المعلنة.

وكان أقسى ما غاظهم من هذا الإسلام، أن أطفأ نار العداوة والبغضاء بين عرب المدينة، الأوس والخزرج، بعد أن سهرت أجيال من السلالة اليهودية على إضرامها بوقود من الدس والفتنة والتواطؤ.

فهل يمكن إيقاظ الفتنة بين الأوس والخزرج، وإهاجةُ الشر بينهم بعد أن حسمه الإسلام ونسخ ناراتٍ لهم وأحقادًا تراكمت على مدى خمسة قرون قبل المبعث؟

لا بأس من المحاولة، على أن تبدو حادثًا فرديًّا عارضًا، لا يحمل اليهود إثمه.

روى ابن إسحاق والطبرى، فى أحداث السنة الأولى للهجرة:

«مرَّ شاس بن قيس -وكان شيخًا عظيم الكفر، شديد الضغن على المسلمين والحسد لهم- على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ، من الأوس والخزرج، فى مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذاتِ بينهم على الإسلام، بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية. فقال، يحدث نفسه أو قومه:

- قد اجتمع مَلأُ بنى قَيْلةَ بهذه البلاد، وما لنا إذا اجتمع أمرهم من قرار!

ثم أمر فتى شابا من يهود كان معه، فقال:

- اعمدْ إليهم فاجلس معهم، ثم اذكر يومَ بُعاث وما كان قبله من حروب بينهم، وأنشدْهم بعض ما تقاولوا فيه من أشعار».

ففعل الشاب اليهودى ما أمره به شيخه، فتكلم القومُ عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا، حتى تواثب رجلان من الحيين وقال أحدهما لصاحبه:

- إن شئتم رددناها الآن جذعة.

فغضب الفريقان جميعًا وصاحوا:

- قد فَعَلنا.

وتواعدوا على أن يلتقوا فى يومهم ذاك، بموضع «الحَرَّة» واندفعوا فى دروب المدينة يتداعون إلى الحرب وهم يتصايحون: السلاحَ السلاحَ..

وجمتْ دار الهجرة وهي تسمع صيحة الحرب. وجاء المصطفى ﷺ في جمع من صحابته. فأدرك القومَ في «الحرة» وقد همّوا بقتال. فقال ﷺ:

«يا معشر المسلمين، الله الله! أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم، بعد أن هداكم الله للإسلام وقطع عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر، وألف بين قلوبكم»؟

ونفذَ صوتُ المصطفى ﷺ من مسامعهم إلى أفئدتهم وضمائرهم وعقولهم، «وعرفوا أنها مكيدة عدوهم، فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضا».

وبطل سُم هذه الفتنة وخاب كيد يهود.

والمصطفى ﷺ يتلو من آيات «آل عمران» ثانية السور التي نزلت بالمدينة بعد الهجرة:

﴿ .... قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾

(صدق الله العظيم)

* * *

وخشع المؤمنون لآيات ربهم،

وانكمشت العصابة الملعونة تفتش في جعبتها عن سهام أخرى يمكن أن تصيب من حيث ارتد سهم الفتنة هذه المرة إلى صدورهم، يؤجج ما انطوت عليه من ضغينة وغدر وحقد.

على أن تبدو المكيدة حادثًا فرديًا عارضًا، لا يحمل اليهود كلهم إثمه..

* * *

في أوكار يهود الناشبة في دار الهجرة وما حولها، تمت تعبئة الأحبار ليكيدوا للإسلام كيدًا، دون أن يواجهوه بحرب معلنة:

يتظاهر نفر منهم بالإسلام، ثم يتدسسون بين الصحابة في صميم المجتمع الإسلامي بالمدينة، ليبذروا بذور الشر التي تؤتي أُكُلَها الخبيث على المدى الطويل، ويُشربوا ضعاف النفوس من بني قيلة سُم النفاق، واثقين من نتيجته وإن يكن بطيءَ الأثر.

وآخرون منهم يتصدون لمجادلة نبي الإسلام، التماسًا للعلم في ظاهر الأمر، وقصدًا إلى إحراجه، ﷺ، وإعناته!

جاءه نفر منهم، وهو ﷺ في مجلسه مع صحابته، فقالوا:[1]

– يا محمد، أخبرنا عن أربع نسألك عنهم، فإن فعلتَ ذلك اتبعناك وصدقناك.

سألهم عليه الصلاة والسلام: ما هي؟

قال كبير منهم:

– أخبرنا كيف يشبه الولدُ أُمَّه وإنما النطفة من الرجل؟

– وأخبرنا كيف نومك؟

– وماذا حرم إسرائيل على نفسه؟

---

(١) تجد نصوص أسئلتهم والرد عليها في (السيرة الهشامية) ٢/ ٩١ وما بعدها.

– وأخبرنا عن الروح.

– وجاءه «أبو صلوبا الفيطوني» فقال:

– يا محمد، ما جئتنا بشيء نعرفه – من دلائل النبوة – وما أنزل الله عليك من آية فنتبعك لها.

وعقَّب «ابن حريملة» فاقترح على المصطفى مثل ما اقترحه عليه المشركون من قريش، قال:

– يا محمد. إن كنت رسولاً من الله كما تقول، فقل له فليكلمنا حتى نسمع كلامه.

وأضاف آخر مقترحًا:

– يا محمد، ائتنا بكتابٍ تنزله علينا السماءُ نقرؤه، وإلا جئناك بمثل ما أتيتنا به!

تلا المصطفى من وحي ربه:

﴿ .... وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾

وجاءه «جبل بن أبي قشيرة، وشمويل بن زيد» فقالا:

– يا محمد، أخبرنا متى تقوم الساعة إن كنتَ نبيًّا كما تقول.

ولم يجب الرسول ﷺ بغير ما نزل عليه من كلمات ربه:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾

وجاءه ﷺ، جمع منهم، فيهم «ابن أبي عزير، وسلام بن مشكم، وابن أضاء فسألوا:

– أحَقٌّ يا محمد أن هذا الذي جئت به لَحَقٌّ من عند الله، فإنا لا نراه متسقًا كما تتسق التوراة؟

وأضاف «فنحاص، وابن صوريا، وابن صلوبا، وشمويل بن زيد».

– يا محمد، أما يُعلمك هذا إنسٌ ولاجِن؟ ورد عليه الصلاة والسلام:

«أما والله إنكم لتعرفون أنه الحق من عند الله.... ولو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله، ما جاءُوا به».

وكرروا سؤالهم عن ذى القرنين وأهل الكهف، وكانوا قد اقترحوا على مشركى قريش أن يسألوه عن «خبر فتية كان لهم حديث عجب، وعن رجل طواف فى الأرض ما شأنه؟».

وأجاب ﷺ، بمثل ما أجاب به قريشًا، مما تلقى من آيات سورة الكهف فى العهد المكى.

وأتى رهطٌ منهم رسولَ الله ﷺ فسألوه معنتين:

– يا محمد، هذا اللهُ خلَق الخلق، فمَن خلَق الله؟

فغضب النبى عليه الصلاة والسلام حتى تغير لونه، وهمَّ بهم يريد أن يبطش بهم غضبًا لله سبحانه، لكنه تمالك غضبه وراح يتلو:

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤ ﴾

وغرهم حلمه ﷺ، فمضوا فى جَدَلِهم الوقح:

– فصفْ لنا يا محمد كيف خلقه – تعالى –؟ كيف ذراعُه وكيف عضُدُه؟

عندئذ اشتد غضب المصطفى وساورهم، ثم انصرف عنهم يائسًا من جدوى مثل ذلك الجدل العقيم...

* * *

لكنهم لم يكفوا عن جدلهم الخبيث، يبثون سمومه فى المجتمع المدنى آمنين من جانب نبى الإسلام، محتمين بعهده الموثق.

حتى ضج الصحابة من شرهم ومكرهم، فمضوا يساورونهم ويزجرونهم، عساهم يرتدعون.

دخل «أبو بكر الصديق» رضى الله عنه بيتَ المدراس الذى يجتمعون فيه إلى أحبارهم ويتدارسون فى أسفارهم، فوجد عصابة منهم قد اجتمعت إلى حبرين من رءُوسهم: «أشيع وفنحاص» فقال الصديق منذرًا:

«ويحك يا فنحاص اتَّق الله، فوالله إنك لتعلم أن محمدًا رسول الله قد جاءكم بالحق من عنده، تجدونه مكتوبًا عندكم فى التوراة والإنجيل»

ردَّ عدو الله، وقد ذكر ما يتلو المسلمون من آيات القرآن في البر والرحمة، والبذل للخير قرضًا حسنًا يضاعفه الله لهم:

«والله يا أبا بكر، ما بنا إلى الله من فقر وإنه إلينا لفقير! وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياءُ وما هو عنا بغنى! ولو كان غنيًّا ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم! ينهاكم عن الربا ويُعطيناه؟ ولو كان عنا غنيًّا ما أعطانا الربا»!

فلم يملك أبو بكر غضبه، ولطم وجه فنحاص وقال:

«والذى نفسى بيده، لولا العهدُ الذى بيننا وبينكم لضربت رأسك، أى عدو الله».

وأسرع الخبيث إلى النبى ﷺ يشكو إليه صاحبه الصديق أبا بكر، وينكر أن يكون قال شيئًا مما أغضبه.

ونزلت كلمات الله، من سورة آل عمران:

﴿ .... لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ﴾

* * *

ولجوا فى عنادهم ومكرهم، حتى اجترءوا فأنكروا أن يكونوا قد بشروا بقرب مبعث نبى! ولم يسكت الأنصار على هذا الإنكار الجرىء، وطالما منَّ عليهم يهود بأنهم أهل كتاب، وشغلوهم بالكلام عن نبى حان زمانه.

وقد تصدى لهم من الأنصار «معاذ بن جبل، وسعد بن عبادة، وعقبة بن وهب» رضى الله عنهم قالوا:

– يا معشرَ يهود، اتقوا اللهَ فواللهِ إنكم لتعلمون أنه رسول الله، ولقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه وتصفونه لنا بصفته».

فردَّ منهم رافع بن حريملة، ووهب بن يهوذا:

– ما قلنا لكم هذا قط، وما أنزل الله من كتاب بعد موسى، ولا أرسل بشيرا ولا نذيرا بعده!

وبدا أن المجتمع المدنى فى حاجة إلى تطهير مما نفثوا فيه من سموم الشر والنفاق، لكن عهد الموادعة بكتاب النبى ﷺ، كان يرخى لهم فى أملهم أن يكيدوا للإسلام دون أن يواجهوه فى معركة مكشوفة لم يكن أوانها قد حان بعد...

* * *

تحويل القبلة إلى المسجد الحرام

حتى شهر شعبان من السنة الثانية للهجرة، كان المصطفى ﷺ والذين آمنوا معه، يتجهون في صلاتهم مستقبلين الشمال، شطر بيت المقدس.

ولم يكن ﷺ راضيًا عن تلك القبلة الأولى، وطالما رنا في تأملاته إلى البيت العتيق يرجوه قبلة لأمته، لكنه لم يكن يملك أن يغير قبلة المسلمين من تلقاء نفسه، فليس له إلا أن ينتظر أمر الله سبحانه وتعالى.

واستجاب الله لرسوله فولاه القبلة التي يرضاها.

وصلى المصطفى والصحابة في دار الهجرة، مستقبلين المسجد الحرام منذ نزلت آية البقرة، أولى السور المدنية في منتصف شعبان:

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤) ﴾

* * *

ولم يمض هذا التحولُ الهامُّ دون جدلٍ من يهود:

ذهب نفر من أحبارهم إلى المصطفى عليه الصلاة والسلام يسألونه مساومين:

– يا محمد، ما وَلَّاك عن قِبلتك التي كنتَ عليها وأنت تزعم أنك على مِلَّة إبراهيمَ ودينِه؟ ارجع إلى قبلتك التي كنت عليها نتبعْك ونصدقك!

وتلا المصطفى ﷺ من وحي ربه:

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ۚ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٤٢) ﴾

وانصرف اليهود بغيظهم لم ينالوا شيئًا بحيلتهم الماكرة ومساومتهم المكشوفة الكاذبة.

* * *

وتسامع طواغيت المشركين من قريش في مكة، بنبإ تحول المسلمين عن قبلتهم الأُولى إلى المسجد الحرام، فلم يُرضهم ما في هذا التحول من تأييد الزعامة الدينية لأُم القرى وترسيخ حرمة البيت العتيق، بل أوجسوا في أنفسهم خيفةً أن تكون مكة متَّجه الدعوة الإسلامية التي حسبوا أنها خرجت منها إلى يثرب، مع محمد - ﷺ - والمهاجرين المكيين من صحابته...

وساورهم القلق وهم يحسون نذر المواجهة المحتومة المتحدية، كلما حان موعد الصلاة خمس مرات كل يوم، فتمثلوا المسلمين هناك في دار هجرتهم يقيمون صلاتهم وقبلتُهم المسجد الحرام في أم القرى...

* * *

نذر الصدام مع مشركى قريش

فى أى الجبهات الثلاث، يبدأ الصدام المسلح الذى لم يكن منه بد، لتأمين الوجود الإسلامى وحماية حرية عقيدته؟

ليس مع يهود قطعًا، فما هو من طبيعتهم ولا فى إمكانهم.

وليس مع المنافقين، كذلك، وداؤهم لا يزال فى مرحلة الحضانة والتفريخ، والذى يبدو من بوادره يمكن تداركه أو الغض عنه تجنبًا لفتح جبهة خطرة فى صميم المجتمع الإسلامى بالمدينة، ولما يفرغ من أعدائه الوثنيين ويهود...

إنما الصدام المسلح مع المشركين من قريش التى لم يبق أمامها سواه، بعد أن تجنبته جهدها طويلًا، على الرغم منها، حفاظًا على السلام فى أم القرى وأمن الحمى الحرام فى البيت العتيق.

* * *

لقد كان فى حساب الوثنية القرشية أن تفرغ من القلة المؤمنة فى الجولـة الأولى بأرض المبعث، دون حاجة إلى قتال وحرب.

وقد غرها أن نبى الإسلام، عليه الصلاة والسلام، لبث بضعة عشر عامًا فى مكة، لا يحمل سلاحًا غير عقيدته، ولا يلقى طواغيت المشركين بغير كلمات ربه.

لكن طبيعة الأشياء فرضت حتمية الصدام، وقررت كذلك مصيره من تلك الجولة المدنية الأولى، وإن بدا أن المعركة لم تحسم إلا يوم الفتح فى السنة الثامنة للهجرة.

ماذا عسى التاريخ أن يعطى من تفسير منطقى لحركة الدعوة الإسلامية إذ تأخذ منطلقها من فجر المبعث، فيحتمل المصطفى عليه الصلاة والسلام والذين آمنوا معه، وطأة الوثنية العاتية الشرسة، دون أن يؤذن لهم فى قتال؟

لا يمكن أن يكون المؤمنون مظنة أن يكرهوا القتال حذرًا من معركة تبدو غير متكافئة، وهم الذين اشتروا الآخرة بالدنيا، وبايعوا المصطفى عليه الصلاة والسلام على الجهاد معه فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، وليس فيهم من دخل فى دينه إلا وهو على بينة من أمره.

المهاجرون خرجوا من ديارهم وأموالهم.

والأنصار أصحاب العقبة الكبرى، بايعوا النبى عليه الصلاة والسلام «على نهكة الأموال وقتل الأشراف» وودوا لو قاتلوا الوثنية عن دينهم من يوم العقبة، لولا أن قال الرسول عليه الصلاة والسلام:

«لم نؤمَر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم».

ليس التفسير إذن، أنهم كانوا مظنة التردد فى القتال أو الخوف من قوة عدوهم وكثرته.

وإنما اقتضت سنة الله سبحانه، أن تطول تلك الجولة المكية الأولى بغير قتال، ليؤمن من يؤمن عن عقيدة خالصة واقتناع حر، ويكون الابتلاءُ بوطأة المشركين تمحيصًا للصفوة من المؤمنين، وتمزيقًا لغشاوة الغفلة عن بصيرة قريش، بما تشهد من هذا الاستبسال الصامد الذى لا يمكن إلاَّ أن يكون عن إيمان بحق.

وتتابعت آيات القرآن تقصر مهمة الرسول على البلاغ: يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة.

وأسلم مَن أسلم، بمحض إرادته واختياره، دون تورط أو إكراه أو مسايَرة.

وما كان بعيدًا فى منطق الحياة أن تغلب القلة المؤمنة كثرة كافرة، لكن الإسلام بتقريره حرية العقيدة وعدم الإكراه فى الدين، أصلًا من أصول دعوته، استصفى من قريش والموالى بمكة وسابقى الأنصار الجنودَ الأولين لحزب الله: لم ينتظروا حتى يحسبوا حسابًا لمكسب أو خسارة، بل استجابوا لداعى الإسلام بمحض إرادتهم، عن اعتقاد راسخ وضمير حر، فما عادوا بحيث يخشون فيه لومة لائم، أو يبالون الموت فى سبيل ما آمنوا أنه الحق من ربهم.

وزودهم إيمانهم الصادق بطاقةٍ فذَّة، نفذ أثرها إلى صميم الجبهة القرشية، فكان منها المدَد المتصلُ المتتابع، لكتيبة المؤمنين.

وتصدع بنيان الوثنية من قبل أن تلقى الإسلام فى الصدام المسلح الذى فرضته طبيعة الموقف، وقد أُذِن للمسلمين فى القتال إقرارًا لمبدأ حرية العقيدة، وغضبًا لحرمات الله، ودفعًا لما سيموا من أذى واضطهاد.

وقررت كذلك مصيره: ينتصر الحق على الباطل فيزهقه، وينسخ النورُ الظلامَ فتنجلى غواشى الوثنية عن أم القرى والبيت العتيق...

* * *

على ساحة «بدر» كانت أولى جولات هذا الصدام،

وموقعة بدر لم تأت فجأة، بل سبقتها نُذُر تراكمت على الأفق ما بين دار المبعث ودار الهجرة، معلنةً عن حتمية الحرب بين الإسلام والوثنيـة، إذ ليس من طبيعة الأشيـاءِ أن يتهادن حق وباطل...

وقد أُذن للمسلمين فى القتال، بعد طول صبر واحتمال.

لكن القتال لم يبدأ مع ذلك فى عام الهجرة الأول، الذى مضى كله احتشادًا للجهاد وتنظيمًا للمجتمع الإسلامى فى مركزه بالمدينة، واكتشافًا لأبعاد الميدان فى منطقـة كانت، حتى المبعث ولمدى خمسة قرون قبله، شبه مستعمرة لليهود...

* * *

ولم يكنِ هينا على المهاجرين والأنصار، أن يأتى موسم الحج فى عام الهجرة الأول، وقد حيل بينهم وبين أداءِ فريضة الحج والسعى إلى بيت الله الحرام الذى سيطر عليه المشركون وكدسوا أوثانهم فى ساحته، وأباحوه لكل الوثنيين العرب، وصدوا عنه المؤمنين الذين يعبدون ربَّ هذا البيت لا يشركون به شيئًا.

ومع مطلع السنة الثانية للهجرة، بدأ المصطفى عليه الصلاة والسلام يخرج فى غزوات قِصار، تدريبًا لجنده من حزب الله، وإقرارًا لهيبة الإسلام فى موقعه الجديد.

كما بدأ عليه الصلاة والسلام يبعث سراياه لتجوب المنطقة ما بين مكة والمدينة، وأولاهما مركز الوثنية العربية، والأخرى مركز الدعوة الإسلامية.

ولم تكن هذه السرايا قاصدة إلى قتال، وإنما كانت دوريات استطلاعٍ تترصد أنباءَ قريش فى منطقة الحجاز[1].

* * *

أولى السرايا، سَرِيَّةُ «عبيدة بن الحارث» إلى مشارف الحجاز، وقد لقى جمعًا من قريش فلم ينشب بينهم قتال، إلا أن «سعد بن أبى وقاص» من جنود السرية، رمى بسهم فكان أول سهمٍ رُمِى به فى الإسلام. وقد اعتز به سعد فأنشد مُعتدًّا:

---

(١) حديث هذه السرايا بتفصيل، فى الجزء الثانى من السيرة النبوية الهشامية، وطبقات ابن سعد، وتاريخ الطبرى.

ألا هـلَ آتى رسـولَ الله أنى	حميتُ صحـابتى بصـدورِ نَبْـلى
فـما يـعـتـدُّ رامٍ فى عـدوٍّ	بسهمٍ يـا رسـولَ اللّهِ مثـلى

* * *

بعد سرية «عبيدة بن الحارث» بعث المصطفى سرية عمّه «حمزة بن عبد المطلب» إلى سيف البحر، فى ثلاثين راكبًا من المهاجرين، ثم تلتها سرية «سعد بن أبى وقاص» فبلغت غايتها فى أرض الحجاز، ثم عادت لم تلق كيدًا.

بعدها كانت سريةُ «عبد الله بن جحش» - ابن عمة المصطفى: أُميمة بنت عبد المطلب.

ومن هذه السرية اندلع الشرر الذى أوقد الضرامَ الكامن فتوهّج مشتعلاً على ساحة بدر.

* * *

خرج «عبد الله بن جحش» فى ثمانية من المهاجرين، فى أوائل رجب من السنة الثانية للهجرة، ورجبُ من الأشهر الحرم التى لا يحل فيها قتال. وكانت أوامر المصطفى إلى ابن عمته أن يمضى بالسرية حتى ينزل بموضع «نخلة» ما بين مكة والطائف، فيترصد بها قريشًا ويستطلع أخبارها.

وحدث فى مرحلة من الطريق أن خرج «سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان» ينشدان بعيرًا لهما ضلَّ، ثم تخلفا لم يرجعا إلى منزل السرية، وبدا أن قريشًا أخذتهما على غِرّة فأسرتهما، ومضى أمير السرية بمن بقى معه من المهاجرين حتى نزل بنخلة كما أمره المصطفى ﷺ. فمرت عِير تجارية لقريش، فيها «عمرو بن الحضرمى» وتحاشى المسلمون القتال حفاظًا على حرمة الشهر الحرام، لكن تجنب الصدام مع المواجهة، لم يكن مستطاعًا، وأطلق الصحابى «واقد بن عبد الله» سهمًا أصاب عمرو بن الحضرمى فقتله.

وعندئذ فرت قريش عن عِيرها وقتيلها، وعن أسيرين منها.

وعادت السريةُ الظافرة إلى المدينة بالمغانم والأسيرين، وهى ترجو أن يُفتدى بهما سعدُ بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان، غير أنها ما كادت تدخل المدينة حتى استقبلت بوجوم ذهب بفرحة النصر، وقال المصطفى ﷺ لابن عمته، أمير السرية: «ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام».

ثم أعرض ﷺ عما جاءت به السرية من مغانم، ونحّى الأسيرين القرشيين، فظن عبدالله بن جحش وأصحابه أنهم أثموا وهلكوا، واشتد الصحابة من المهاجرين والأنصار فى

لومهم، ونقلوا إليهم ما تقول قريش فى مكة: «لقد استحل محمد وأصحابه حرمة الشهر الحرام».

وتسللت الأفاعى من الأوكار اليهودية، فراحت تطوف بأحياء المدينة وهى تهمهم فى حقد واشتفاء:

«عمرو بن الحضرمى، قتله واقد بن عبد الله.

«عمرو: عمرتْ الحرب.

«الحضرمى: حضَرت الحرب.

«واقد: وَقَدت الحرب».

* * *

حتى حسم القرآن ذلك الموقف المعقَّد وأنهى كل جدل فيه بكلمات الله البينات:

﴿ .... يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢١٨) ﴾

صدق الله العظيم

* * *

وبهذه الآيات استرد جنود السرية طمأنينة بالهم، وطاب لهم النصر على عدوهم، وأنشد عبدالله بن جحش:

تَعُدون قتلًا فى الحرام عظيمةً ... وأعظمُ منه، لو يرى الرشدَ راشدُ
صدودُكمُ عما يقول محمد ... وكفرٌ به، والله راءٍ وشاهدُ

وإخـراجـكـم مـن مـسـجـدِ الله أهـلَه لـئـلا يُـرى لـلّهِ فى الـبـيـت سـاجـدُ
فـإنـا وإنْ عـيـرتمـونـا بـقـتـلـه وأرجـف بـالإسـلام بـاغٍ وحـاسـدُ
سقينـا منَ ابـنِ الحضـرمـيِّ رمـاحَنـا بـنـخـلـةَ لمـا أوقـدَ الحـربَ واقـدُ

بعد شهرين اثنين، فى شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة، كانت غزوة بدر الكبرى التى وجهت مجرى الأحداث وحددت موازين القوى، لا بين الإسلام والوثنية فحسب، بل فى كل صراع كذلك، بين حق وباطل!

* * *

يوم بدر، وموازين القوى

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (١٣) ﴾

(صدق الله العظيم)

* * *

«أبو سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس» فى طريقه من الشام إلى مكة عائدًا بعير قريش.

وصيحةٌ تعلو فى مكة:

«يا معشر قريش، اللطيمةَ اللطيمةَ! أموالُكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمدٌ فى أصحابه لا أرى أنكم مدركوها».

وترد أصوات من هنا ومن هناك:

«أيظن محمد وأصحابه أن تكون عِيرُ أبى سفيان كَعِير ابن الحضرمى؟ كلا والله لَيعلمن غير ذلك».

وخرجت جموع قريش من مكة مزهوة بعددها وعُدَّتها، تريد القضاء على المسلمين فى دار الهجرة، وهى ترى الأمر هينًا يسيرًا، وكأنها خارجة فى رحلة صيد.

* * *

جمع المصطفى ﷺ صحابته من المهاجرين والأنصار، وعرض عليهم الموقف من مختلف نواحيه، ثم قال يطلب مشورتهم: «أشيروا عليّ أيها الناس».

فقام أبو بكر الصديق، ثم عمر بن الخطاب، فتحدثا ما شاء لهما إيمانهما، عن فريضة الجهاد والثقة فى النصر، ثم قام «المقداد بن عمرو - وكان خرج من قريش ولحق بالمسلمين فى سرية عبيدة بن الحارث - ودنا من المصطفى ﷺ وقال:

- يا رسول الله، امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: «اذْهبْ أنتَ وربُّك فقاتلا إنا هـٰهنا قاعدون»، ولكن اذهب أنتْ وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون. فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغِماد - بأقصى الجنوب - لجالدنا معك دونه حتى تبلغه.

دعا له المصطفى بخير، ثم التفت ﷺ إلى الانصار ولم يكن أحد منهم قد تكلم بعد، وعاد يقول: «أشيروا عليّ أيها الناس».

سأل نقيبهم «سعد بن معاذ» - أحدُ السعدين:

«والله لكأنك تريدنا يا رسول الله» ؟

أجاب المصطفى ﷺ: «أجل».

فقال سعد، رضى الله عنه:

«فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة. فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك. فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجلٌ واحد، وما نكره أن نلقى عدُّونا غدًا، إنا لصُبرٌ فى الحرب صُدُقٌ فى اللقاء، لعل الله يُريك منا ما تَقَرُّ به عينك، فسِرْ بنا على بركة الله».

* * *

وسار بهم المصطفى ﷺ على بركة الله حتى نزل على ماء بدر، ليسمع أن فى جيش المشركين بالعدوة القصوى من صناديد قريش: عتبة بن ربيعة، وسيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، والحكم بن هشام، ونوفلا وحكيماابنى خويلد، والنضر بن الحارث، وأمية بن خلف...

فالتفت ﷺ إلى أصحابه وقال:

«هذه مكة قد أخرجت لكم أفلاذَ أكبادها».

ثم لمح قريشا تندفع من وراء كثيب هناك، هادرة بزئير الوعيد، ثملة بنشوة الغرور ومتعة الصيد، فرفع ﷺ وجهه إلى السماء وقال يدعو ربه:

«اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تُحادّك وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذى وعدتنى، اللهم أحْنِهم الغداة»

* * *

كم كان عدَد المشركين الزاحفين من مكة؟

ألف مقاتل كاملو العدة والسلاح أو يزيدون، ومعهم مائة فرس مدربة على القتال.

وتجاههم، بالعدوة الدنيا، كان جنود المصطفى من حزب الله: ثلاثمائة وأربعة عشر لا يزيدون: من المهاجرين ثلاثة وثمانون ومن الأوس واحدٌ وتسعون، ومن الخزرج مائة وأربعون. ومعهم من الخيل ثلاثة أفراس فحسب!

استضعف المشركون جند الإسلام، فتقدم أحد صناديدهم فى صَلَف وخيلاء، يريد أن يقتحم عسكر المسلمين إلى ماء بدر، فلم يمهله «حمزة بن عبد المطلب» فسقط مضرّجًا بدمائه دون بدر.

واستكبر طواغيت قريش أن يخوضوا معركة مع هذه القلة المستبسلة:

إن انتصروا عليها ضاع النصرُ فى ميزان فقدان التكافؤ، وإذا هُزموا قضت عليهم الهزيمة بعار الدهر وكانوا سبة فى العرب.

وبدأ كبيرهم «عتبة بن ربيعة» فخرج من صف المشركين يختال بين أخيه شيبة عن يمينه وابنه الوليد عن يساره، وسأل فى استخفاف:

— هل من مبارز؟

فخرج إليه ثلاثة من الأنصار، زهد فى مبارزتهم عندما سألهم من يكونون فعرفوه بنسبهم فى بنى قيلة. قال: «مالنا بكم حاجة»!

ثم نادى: يا محمد، أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا.

فأخرج إليه المصطفى ﷺ ثلاثة من صميم البيت الهاشمى القرشى: عمه، حمزة بن عبدالمطلب.

وابنى عمه: على بن أبى طالب، وعبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب.

ولم تطل المبارزة ، وسقط عتبة بن ربيعة، وشيبة أخوه، وابنه الوليد بن عتبة، صرعى مجندلين على ساحة بدر!

عندئذ تزاحف الناس وحميت المعركة، فأخذ المصطفى ﷺ براحته حفنة من حصباء بدرٍ قذف بها عسكر المشركين وهو يقول: «شاهت الوجوهُ».

ثم التفت ﷺ إلى جنده فقال: «شُدُّوا»! وشدوا على المشركين فما تركوهم إلا بين قتيل وأسير، وهارب يشترى النجاة بعار الفرار.

وصدق الله وعده ونصر من نصروه، وألقى الرعب فى قلوب عدوهم فذهبوا عبرةً ومَثَلًا.

* * *

وعاد الجيش الظافر إلى المدينة بالأسرى والمغانم.

وعادت فلول المشركين إلى مكة بالهزيمة والذل.

أحصى «ابن اسحاق» فى السيرة النبوية قتلى قريش فى بدر سبعين رجلًا، وبلغ أسراهم نحو ذلك العدد، فكانوا ستة وستين أسيرًا. والباقون من الجيش المغلوب لاذوا بالفرار.

وأما المسلمون فاستشهد منهم يوم بدر أربعة عشر شهيدًا: ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار، بذلوا أنفسهم فداء عقيدتهم فذهبوا بمجد الشهادة وشرف الجهاد وثواب الآخرة:

* * *

وتجاوبت آفاق الحجاز بقصائد حماسية بعيدة الصدى، للشعراء الذين أخذوا أماكنهم فى الموقع الوجدانى للميدان، يناضلون بسلاح الكلمة لتعبئة الوجدان العام.

فى مدينة الرسول كان شعراءُ الإسلام الذين جنَّدهم المصطفى عليه الصلاة والسلام لنصر الدعوة بألسنتهم، يشْدون بآية النصر فى بدر، ويرمون المشركين بشعر وصفه المصطفى ﷺ فقال إن وقعَه عليهم أشدُّ من نضحِ النبْلِ.

فمن شعرِ حسان بن ثابت الأنصارى:

ألا ليتَ شعرى هل أتى أهلَ مكةٍ ... إبادتُنا الكفارَ فى ساعةِ العُسرِ

قتلنا سراةَ القوم عند مجالِنا ... فلم يرجعوا إلا بقاصمةِ الظهر

تركناهمُ للعاديات يَنُبْنَهم ... و يَصلَون نارًا بعدُ حامية القعر

لعمْرك ما حامتْ فوارسُ مالك ... وأشياعُهم يومَ التقينا على بدرِ

ومن قصيدة لكعب بن مالك الأنصاري:

ألا هل أتى غسانَ من نأْى دارها ... وأخبرُ شيء بالأمورِ عليمُها
بأنْ قد رمتْنا عن قِسيٍّ عداوة ... معدٌّ معًا، إذ أتانا زعيمُها
نبيٌّ له في قومِهِ إرثُ عزة ... وأعراقُ صِدق هَذَّبتْها أرومُها
فساروا وسرنا فالتقينا كأننا ... أُسودُ لقاء لا يُرجّى كَليمُها
ضربناهم حتى هوى في مَكَرِّنا ... لمنخرِ سوء من لؤى عظيمُها
فولّوا ودُسْناهم ببيضٍ صوارمٍ ... سواءٌ علينا حِلفُها وصَميمُها

* * *

وفي مكة، كان شعراءُ المشركين يهدرون بطلب الثأر، ويبكون مصارعَ الصناديد الذين جُندلوا على ساحة بدر.

قال ضرار بن الخطاب يَرثي أبا الحكم بن هشام، أبا جهل، ويستنفر للثأر:

ألا مَن لِعَينٍ باتتِ الليلَ لم تَنَمْ ... تراقب نَجمًا في سوادٍ من الظُّلَمْ
كأن قذىً فيها، وليس بها قذى ... سوى عبرة من جائل الدمع تَنسجِمْ
فآليتُ لا تنفكُّ عيني بعبرةٍ ... على هالكٍ بعد الرئيس أبي الحكَمْ
على هالكٍ أشجى لؤيَّ بنَ غالب ... أتتْه المنايا يومَ بدرٍ فلم يرِمْ
فلا تجزعوا آلَ المغيرةِ واصبروا ... عليه، وَمَن يجزعْ عليه فلم يُلَمْ
وجِدُّوا فإن الموت مَكرمةٌ لكم ... وما بعده في آخرِ العيش من نَدَمْ

وقال «أمية بن أبي الصلت» – ذاك الذى آمن لسانُه قبل المبعث وكفر قلبه– بكائية طويلة ينوحُ فيها على قتلى در من صناديد قريش...

* * *

وكذلك أخذت الشاعرات من الفريقين مكانهن في المعركة.

روى «ابن اسحاق» في «السيرة النبوية» أربع قصائد لهند بنت عتبة وقصيدتين لصفية بنت مسافر حفيدة أمية بن عبد شمس.

كما روى قصيدة لهند بنت أثاثة، حفيدة عبد المطلب، ترثي شهيدًا لها من شهداء بدر، وأخرى لقتيلة بنت الحارث في أخيها النضر بن الحارث الذى قتل صبرًا بعد المعركة، في «الأثيل» بين بدرٍ والمدينة.

وفيها تقول:

يا راكبا إن الأثيل مظنّةٌ ... من صُبح خامسةٍ وأنت موفَّقُ
أبلغْ بها مَيْتا بأن تحيةً ... ما إنْ تزالُ بها النجائبُ تخفق
منى إليك، وعبرة مسفوحة ... جادت بواكِفهما وأُخرى تخنق
هل يَسمَعَنّى النضرُ إن ناديته ... أم كيف يسمع ميِّتٌ لا ينطق
أمحمدٌ يا خيرَ ضِنْءِ كريمة ... فى قومها والفحلُ فحلٌ معرق
ما كان ضرَّك لو مننتَ وربما ... مَنَّ الفتى وهو المغيظ المحنق
أو كنتَ قابلَ فديةٍ فليُفدَيَنْ ... بأعَزِّ ما يغلو به ما ينفق
فالنضرُ أقربُ مَنْ أسرتَ قرابةً ... وأحقهم إن كان عِتقٌ يعتق

فيُروى أن رسول الله ﷺ لما بلغه شعر قتيلة فى النضر بن الحارث قال: «لو بلغنى هذا قبلَ قتله، لمَنَنْتُ عليه».

* * *

وبدا النصر عجيبًا وغريبًا، فما تصورت قريش وهى تحتشد فى ألف مقاتل كاملى العدة والسلاح، أن يغلبهم القائد الرسول فى ثلاثمائة من صحابته.

ولكن سنن الحياة لا ترى فى هذا النصر أىَّ شذوذ أو غرابة.

القتال فى بدر لم يكن بين فئتين متكافئتين:

من حيث العدد والسلاح، كان القرشيون يزيدون أضعافًا مضاعفة.

ولكن المعركة لم تكن متكافئة كذلك من حيث القوى المعنوية: المشركون خرجوا للقتال بَطَرًا ورئاءَ الناس، وإمعانًا فى البغى والعدوان، وتأمينًا لطريق تجارتهم إلى الشام، وانتقامًا من المصطفى والذين هاجروا معه والذين آووه ونصروه لا يبالون غضب قريش!

والمسلمون خرجوا جهادًا فى سبيل دينهم، وتأمينًا لحقهم فى حرية العقيدة، وغضبًا لما سامتهم الوثنية القرشية من أذى واضطهاد.

ومتى كان القتال بين حق وباطل، بين مستبسل فى سبيل ما يؤمن أنه الحق، وبين مُمعن فى البغى والضلال، فإن القلة من المؤمنين يغلبون الكثرة من الذين كفروا.

وتحدَّدت ببدرٍ موازينُ القوى:

فلم يكن الأمر فيها بين كثرة وقلة فحسبُ، ولكنه كان بين كثرةٍ يعوزها سلاح الإيمان، ليس فيها من يقاتل إلا وهو يفكر فى حماية الجاه الموروث ويرى فى خصومه المسلمين صيدًا سهلًا، وبين قلة مؤمنة صابرة ليس فيها من يقاتل إلا وهو يرجو انتصار الحق ورضوان الله، ويرى الموت فى سبيل عقيدته التى آمن بها، حياةً ومجدًا ونصرًا.

وحزب الله لم يتردد فى دخول المعركة حتى يقيس قوته إلى قوة عدوه، ولم يتهيب القتال خوفًا من كثرة مسلحة مزهوة بعددِها وعدتها، بل بادر جنودُ الإسلام إلى لقاء عدوهم بعد أن جمعوا له كلّ ما استطاعوا من قوة، ورحبوا بالجهاد لا يبالى أحدهم حين يقتل مسلمًا، كيف ولا أنّى يقتل. وإن شاعرهم ليقول:

ولست أبالى حين أُقتَلُ مسلمًا ... على أىّ جَنْبٍ كان فى الله مَصْرعى

قلادة الحبيبة فى فداء حبيب

سيق أسرى بدر إلى المدينة فى أعقاب الفئة الظافرة، فتأملهم المصطفى ﷺ مليًا، ثم نحىّ منهم صهره «أبا العاص بن الربيع» وفرق الباقين بين أصحابه وقال:

«استوصوا بالأسارى خيرًا».

وبقى أبو العاص عند المصطفى، وقلبُه مشدود إلى مكة، حيث ترك هناك زوجه الحبيبة «زينب بنت محمد» مع صغيريها «على وأُمامة»، ولم يكن الإسلام قد فرق بعد بين زوجة مؤمنة وزوج مشرك.

حتى جاءت رسُل قريش فى فداء أسراها..

وغالوا فى الفداء، حتى إن المرأة لتسأل عن أغلى ما فُدى به قرشى فيقال لها: أربعة آلاف درهم، فتبعث بمثلها فى فداء ابنها.

وتقدم عمرو بن الربيع فقال للمصطفى ﷺ:

«بعثتنى «زينب بنت محمد بهذا فى فداء زوجها، أخى: أبى العاص بن الربيع».

وأخرج من ثيابه صُرَّة وضعها بين يدى الرسول، ففتحها ﷺ فإذا فيها قلادة لم يكد يراها حتى رقّ لها رِقة شديدة، وخفق قلبه للذكرى: لقد كانت قلادة «خديجة» أهدتها ابنتها «زينب» يوم عرسها، حين زُفّت إلى «أبى العاص بن الربيع» ابن خالتها هالة بنت خويلد.

وأطرق أصحاب المصطفى ﷺ خُشّعا وقد أخِذوا بجلال الموقف! قلادة الحبيبة، تبعثها بنت النبى إلى أبيها فى فِداء زوج حبيب!

وتكلم النبى الأب بعد فترة صمت فقال:

«إن رأيتم أن تُطلقوا لها أسيرها وتردُّوا عليها مالها، فافعلوا».

أجابوا جميعا: نعم يا رسول الله.

وأدنى المصطفى ﷺ إليه صِهره الذى تأثر لهيبة الموقف، فأسرَّ إليه حديثا، فحنى أبو العاص رأسه موافقًا، ثم حيًّا ومضى. فلما أبعد التفت المصطفى ﷺ إلى أصحابه من حوله، فأثنى على أبى العاص وقال:

«والله ما ذممناه صهرًا»[1].

* * *

وعاد «أبو العاص» إلى مكة، ليجهز زوجه الحبيبة كي تلحق بأبيها المصطفى ﷺ، وفاء بوعدٍ قطعه على نفسه، يوم ودَّع أباها ﷺ بالمدينة، بعد بدر.

وكان الفراق قاسيًا صعبًا، وقد خانه تجلدُه يوم رحيلها، فترك أخاه «كنانة بن الربيع» يصحبها إلى خارج مكة، حيث كان «زيد بن حارثة» في انتظارها.

وانطلق «كنانة» يقود بعيرها نهارًا وقد أخذ قوسه وكنانته متأهبًا، فهال قريشًا أن يخرج بها هكذا في وضح النهار على مرأى منهم ومسمع، وخرج بعضهم في أثر المهاجرة حتى أدركوها بذى طوى، فكان أسبقهم إليها «هبارُ بن الأسود الأسدى» الذى روَّعها بالرمح، وقد جن حزنه على إخوةٍ له ثلاثة صُرعوا جميعًا في بدر بأيدى أصحاب محمد.

و نَخَسَ البعيرَ، فألقى بزينب على صخرة هناك، وعندئذ برك «كنانة بن الربيع» دونها ونثر كنانته وهو يزأر متوعدًا:

- والله لا يدنو منها رجلٌ إلا وضعتُ فيه سهمًا.

فتراجعوا، ووقف أبو سفيان بن حرب بعيدًا يقول لكنانة:

- كُفَّ عنا نَبْلَك حتى نكلمَك.

فكفَّ كنانة، ودنا أبو سفيان منه فقال:

«إنك لم تصب يا ابن الربيع: خرجتَ بالمرأة على رءوس الناس علانية وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا وما دخل علينا من محمد، فيظن الناسُ أن ذلك من ذُلٍّ أصابنا وأن ذلك منا ضعفٌ ووهن، ولعمرى مالنا بحبسها عن أبيها من حاجة، ولكن ارجع بها حتى إذا هدأت الأصوات وتحدث الناس أن قد رددناها، فتسلل بها سرًّا فألحقها بأبيها».

فكبُر على كنانة أن يردَّها ليعود فيتسلل بها سرًّا بعد أن يذاع في الناس أن قد رَدَّتْها قريش.. وهمّ ليمضي بها، فراعه أن رآها تنزف دمًا، وقد طرحت جنينها على أديم الصحراء!

وعاد بها إلى مكة، حيث سهر أبو العاص على رعايتها وتمريضها لا يفارقها لحظة من ليل أو

---

(١) السيرة الشامية ٢/٢٠٨.

نهار، حتى إذا استردت بعض قواها، ودعها للمرة الثانية وداع مُحِب مقهور. وخرج بها كنانة حتى بلغت مأمنها..

ولم يتبعها فى هذه المرة طالب، بل أغمض الذين طاردوها بالأمس أعينهم، وقد ركبهم الخزىُ والعار من قول هند بنت عتبة تُعيرهم، وتذكرهم بهزيمتهم فى بدر:

أفى السلم أعيارٌ، جفاءً وغلظةً، وفى الحربِ أشباهُ النساء العوارك؟

* * *

استقبلت دارُ الهجرة بنت المصطفى بترحاب بالغ، شابتْ فرحة اللقاء فيه سَوْرةُ الغضب لما أصابها عند خروجها من مكة. وعاشت زينب فى رعاية أبيها المصطفى ﷺ على أمل لم يغلبها عليه اليأس قط: أن يشرح الله صدر أبى العاص للإسلام، فيلتئم الشمل الممزق.

وكان عليها أن تنتظر ست سنوات طوال ليتحقق هذا الأمل الغالى، ثم لا يكاد الشمل يلتئم حتى ترحلَ عن الدنيا بعد عام وبعض عام من إسلام أبى العاص، فيكون فراقٌ لا لقاء بعده على هذه الأرض.

دَرسٌ من أُحُدٍ . وَ رسَالة من شهيد

﴿ .... وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾

(صدق الله العظيم)

* * *

ما أيهظ أعباء النصر!

وما أسرع ما يتعرض للضياع بأدنى بادرة من تهاوُنٍ أو تفريط، يستمرئ فيهما المنتصرُ فرحته فيغفل عن موقعه تجاه عدوه، ويتهاون فى تقدير طاقة التحدى فى المهزوم!

والنصر فى «بدر» قد ألقى على المسلمين تبعاته وأعباءه، بقدر ما أثقل على قريش بخزى العار، وعبأها لا سترجاع شرفها الضائع، والثأرِ لقتلاها الذين جندلهم المسلمون على ساحة بدر.

وقد احتاج المشركون إلى سنةٍ كاملة ريثما عبّئوا قواهم واحتشدوا لمعركة الثأر.

خرجوا من مكة بحدِّهم وحديدهم وأحابيشهم ومن والاهم من بنى كنانة وأهل تهامة.

وخرجت معهم نساؤهم يقطعن على الرجال سبيل النكوص. و «هند بنت عتبة» فى نسوة بنى أمية وقريش، يضربن الدفوف على صوت هند:

وَيْهاً بنى عبد الدار ... وَيْهاً حُماةَ الأدبار
ضربًا بكلِّ بَتَّار

إن تُقبِلوا نعانقْ ... ونفرش النمارق
أو تدبروا نفارقْ ... فراقَ غير وامق

ولم تكن هند قد نامت قط على ثأرها، وفي قتلى بدر: حنظلة بن أبي سفيان، وأبو هند «عتبة بن ربيعة»، وأخوها الوليد، وعمها شيبة.. ثلاثة منهم صُرعوا على ساحة بدر، بسيف الفارس حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه.

حتى إذا دنوا من المدينة، خرج إليهم المصطفى ﷺ في ألفٍ من المسلمين، لم يلبثوا أن نقصوا بضع مئات قبل أن يلتقي الجمعان في أُحُد، في منتصف شوال من السنة الثالثة للهجرة.

انخذل عن الجيش كبير المنافقين «عبدالله بن أُبَيّ ابن سلول» بمن معه من منافقي المدينة، وكانوا نحو ثلث الجيش. قال لهم: ما ندري علامَ نقتل أنفسنا وقد أهلكنا أموالنا؟

ولم يجد المصطفى ضيرًا من هذا التخاذل، فلقد نَحّى المنافقين ومرضى القلوب وضعافَ الإيمان، عن جنده المخلصين. فواجَه بهم وما يزيد عددهم على سبعمائة، ثلاثة آلافٍ من المشركين يقودهم أبو سفيان بن حرب، معهم كتيبة من الفرسان على مائتي فرس، بقيادة خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي.

ألا تغلب مائة من المؤمنين الصابرين، أضعافهم من الذين كفروا؟

والتحم الجيشان،

ولم تختل موازين القوى التي تحددت من قبل يومَ بدر: كان النصر في «أُحد» للمؤمنين لا شك فيه، وقد كشفوا المشركين عن عسكرهم فولوا الأدبار تاركين لواءهم على الساحة صريعًا..

لكن المسلمين تعجلوا الموقف فتركوا مواقعهم في الميدان، وأسرعوا يهجمون عسكر قريش بعد انكشافهم عنه.

وتركوا القائد الرسول ﷺ حيث هو في صميم الجبهة، ليس معه إلا نفر قليل استجابوا له فبثوا في موقعهم حوله.

ولاحت الفرصة لخالد بن الوليد، وكان يرقبها بنظرة ثاقبة، فهجم بالخيل بغتة، من الثغرة التي كشفها المسلمون أنفسهم. وكرَّت فلول قريش راجعة إلى الميدان الذي سيطر عليه خالد، وتقدمت إحدى نسائهم: «عمرة بنت علقمة الحارثية» فالتقطت لواءهم الصريع فرفعته لهم.

* * *

وكان مالا بد أن يكون:

تغيَّرَ وجهُ المعركة، وضاع النصرُ من المسلمين وقد كان لهم دون ريب.

ولولا ثبات القائد المصطفى ﷺ، والنفر البواسل من أصحابه المؤمنين، لكانت الكارثة. واطردت المقاييس لا تتخلف..

استرد المسلمون وعيهم للموقف بعد أن ساورهم اليأس منه، إذ أرجف المشركون أن «محمدًا قد قُتل».

لكنه، ﷺ ، كان هناك، جريحًا مُخضَّب الوجه بالدماء، يوجه جنده من مكانه في قلب الميدان لم يبرحه.

ومن حوله النفر المؤمنون، قد جعلوا من أجسادهم دروعًا وتروسًا لوقاية قائدهم النبي.

وما إن صاح أحدهم يبشرى حياته ﷺ، حتى عاد المسلمون جميعًا فأخذوا مواقعهم في الجبهة.

وتقهقر جيش المشركين قانعًا بالنصر المخطوف.

***

في خشوع، رجع المصطفى ﷺ وجنده إلى المدينة، فدخل المسجد وصلى بهم قاعدًا، من أثر الجراح التي أصابته في أُحُد.

وذهبت أُحُدُ عبرةً ومثلًا:

﴿ .... وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾

(صدق الله العظيم)

***

اكتفى المشركون بنصرهم المخطوف يوم أُحُد.

وابتدروا الطريق عائدين إلى مكة، لا يكادون يصدقون ما كان،

وفرغ المسلمون لقتلاهم الشهداء، فمضى المصطفى ﷺ يلتمس عمه الفارس الشهيد «حمزة بن عبد المطلب» فوجده هناك ببطن الوادى، قد اغتالته حربة غادرة، سدّدها إليه «وحشى، مولى جبير بن مطعم»، وجاءت «هند بنت عتبة، زوج أبي سفيان» آكلة الأكباد، فرقصت على مصرع الفارس الشهيد ومثلت بجثته أبشع تمثيل: بُقر بطنُه عن كبده فلاكتْها، وجُدِع أنفهُ وأُذناه فاتخذت منها حُليًا، بدلاً من حليها التى دفعتها إلى «وحشى» من ثمن الصفقة الغادرة.

قال ﷺ حين رأى ما رأى: «لن أصاب بمثلك أبدًا. وما وقفْتُ موقفًا قط أغيظ إلىّ من هذا».

وأمر ﷺ فسجوا حمزة ببردته، وصلى عليه مكبرًا سبع تكبيرات.

ثم جيء بالشهداء فكانوا يوضعون واحدًا بعد الآخر إلى جانب حمزة، فيُصلى النبى عليهم وعليه، حتى بلغت مرات الصلاة على سيد الشهداء اثنتين وسبعين، بعدد الشهداء يوم أُحُد.

* * *

وتجاوبت أرجاء الحجاز، ما بين أم القرى ودار الهجرة، بأصداء المعركة، فى نقائض الشعراء من الحزبين:

المشركون بمكة يهزجون بقصائد شعرائهم، ويترنمون برسالة «عبدالله بن الزبعرى السهمى» - ولم يكن أسلم بعد - إلى حسان بن ثابت الأنصارى:

يا غرابَ البين أسمعتَ فقُلْ	إنما تنطق سيئًا قد فُعِلْ
إن للخير وللشر مدى	وكلا ذلك وجهٌ وقَبَل
أبلغا حسانَ عنى آية	فقريضُ الشعرِ يَشفى ذا الغُلَلْ
كم ترى بالجَرِّ من جمجمة	وأكفٌ قد أتِرَّتْ ورِجلْ
كم قتلنا من كريم سيِّدٍ	ماجدِ الجدَّين مِقدامٍ بطل
ليت أشياخي ببدرٍ شهدوا	جزعَ الخزرجِ من وقعِ الأسلْ
حين حكّتْ بِقُباءٍ بركها	واستحرَّ القتلُ فى عبدِ الأشل
فقتلنا الضِّعفَ من أشرافهم	وعدلنا مَيْلَ بدرٍ فاعتدلْ

* * *

فيرد عليه، من حزب الله، حسان بن ثابت الأنصارى، شاعر المصطفى ﷺ:

ذهبت يا ابنَ الزبعرى وقعةٌ ... كان منا الفضلُ فيها لو عَدَلْ
ولقد نلتم ونلنا منكمُ ... وكذاك الحربُ أحيانًا دُوَل
نضع الأسياف فى أكتافكم ... حيث نهوى عَلَلا بعد نَهَل
إذ تُولُّون على أعقابكم ... هربًا فى الشِّعب أمثالَ الرِّسَلْ
إذ شددنا شدةً صادقة ... فأجأناكم إلى سفح الجبل
وتركنا فى قريش عورةً ... يومَ بدرٍ وأحاديثَ المثَلْ

* * *

والأصداءُ تتلاقى وتتصادم، كاشفة فى وهج الصراع المحتدم، عن أبعاد الميدان وأسلحته لمعركةٍ طويلة المدى.

فى ذلك اليوم العصيب، افتقد المصطفى ﷺ صاحبه «سعد بن الربيع الأنصارى» — أحد النقباء فى بيعة العقبة الكبرى — فقال لمن حوله:

«مَن رجلٌ ينظر لى ما فعل سعدُ بن الربيع، أفى الأحياء هو أم فى الأموات»؟

فذهب رجل من الأنصار ينظر لرسول الله ﷺ ما فعل سعد، فألفاه على ساحة القتال جريحًا وبه رمق. فأخبره عما كان من افتقاد المصطفى إياه وسؤاله عنه. فجمع «سعد» مابقى له من طاقة المحتضر وقال:

«أبلغ رسول الله ﷺ عنى السلام، وقل له: إن سعد بن الربيع يقول لك: جزاك الله عنا خيرَ ما جزى نبيًّا عن أمته.

«وأبلغْ قومَك عنى السلام، وقل لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم: إنه لا عذر لكم عند الله إن خلص العدو إلى نبيكم ﷺ، ومنكم عينٌ تطرف».

وأسلم الروحَ مطمئنًا، بعد أن بعث رضى الله عنه رسالته إلى النبى ﷺ، وإلى قومه الأنصار.

* * *

ولم يَنس المصطفى ﷺ وأصحابه «سعد بن الربيع».

ولا نسيه تاريخ الإسلام الذى استوعب رسالة هذا الجندى الشهيد، وعرف مغزاها ودلالتها، ورصد موقعها من نفوس المؤمنين: تزيدهم ثباتًا وقوة واستبسالاً وإصرارًا.

ومن نفوس أعدائهم: تهز ثقتهم فى جَدْوى معركةٍ خاسرة بلا ريب، بخوضونها مع أمثال هؤلاء الجنود المؤمنين الذين يرون الموت فى سبيل عقيدتهم: شرفًا و[illegible].

فى السيرة النبوية، أن رجلاً دخل على «أبى بكر الصديق» رضى الله عنه، وقد ضمَّ طفلة صغيرة إلى صدره وأقبل عليها يلاعبها ويقبلها. فسأل الرجل: «من هذه»؟

أجاب الصديق: «هذه بنت رجل خيرٍ منى: سعد بن الربيع. كان من النقباء يوم العقبة، وشهد بدرًا، واستشهد يومَ أُحُد».

وكلُّ نفسٍ ذائقة الموت.

ولكن الصفوة من عبادِ الله المؤمنين هم الذين يستقبلون الموت فى سبيل الله راضين مطمئنين، سلام عليهم:

﴿ .... وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ ﴾

(صدق الله العظيم)

* * *

الإسلام فى الجبهات الثلاث

فى الجبهة اليهودية، ومع الوثنية القرشية، وفى جبهة المنافقين

﴿ .... هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ ﴾

(صدق الله العظيم)

* * *

مصير المعركة الحاسمة بين الإسلام والوثنية، قد تقرر يوم بدر، وإن طال مداها سنين عددًا وتعددت جولاتها حتى حُسمت يوم الفتح فى السنة الثامنة للهجرة.

وكذلك تقرر، من يوم بدر، مصيرُ الصراع فى جبهة أخرى أخطر وأضرى من الجبهة القرشية، والمعركة فيها سافرة مكشوفة والأسلحة مألوفة معروفة.

لقد كان العرب القرشيون يقاتلون ببسالة، دفاعًا عن أوضاعٍ موروثة وتقاليد راسخة وأعرافٍ مقررة، وغضبًا لحرمة أسلافهم، من حيث لم يهن عليهم أن يتصوروا أن أولئك الآباء الكرام، من أمثال عبدالمطلب وهاشم وعبد مناف ومخزوم وزهرة، وقصى إلى فهر ومضر وعدنان، كانوا على سفهٍ وضلال.

وعلى مدى السنين العشرين التى استغرقتها المعركة بين العرب المشركين والمسلمين، فى جولتيها المكية والمدنية، كان الإسلام يستقبل مَن يُصغى من قريش إلى ما يتلو المصطفى ﷺ من آيات معجزته، فيؤمن برسالته ويبايعه على الإسلام والبذل والجهاد.

وحزبُ الله الذى بدأ فجر ليلة القدر من شهر رمضان، بالمسلمة الأُولى السيدة خديجة زوج المصطفى ﷺ أم المؤمنين، ثم انضم إليه السابقون الأولون،

كان يستقبل كل يوم جنديًا جديدًا من الجبهة القرشية والعربية، يُعزُّه الله بالإسلام ويعز الإسلام به،

والمئات الثلاث من المجاهدين والأنصار الذين شهدوا بدرًا تحت لواء المصطفى ﷺ، لم يلبثوا أن كثروا بمن انضم إليهم من العرب، فدخل ﷺ مكة يومَ الفتح، فى عشرة آلاف من الصحابة، فيهم من كان قبل أن يشرح الله صدره للحق، أشدَّ الناس عداوة للإسلام وحربًا للمصطفى والذين آمنوا معه.

والذين تأخر إسلامُهم إلى عام الفتح وغزوة حنين والطائف بعده، وعام الوفود فى السنة التاسعة للهجرة، لم يلبثوا أن خرجوا مع الكتائب المجاهدة فى الفتوح الكبرى التى حملت لواء الإسلام إلى أقصى المشرق وأقصى المغرب.

* * *

١ - في الجبهة اليهودية :

كلا ، لم تكن تلك الجبهة القرشية العربية أخطر ما واجه الإسلام في عصر المبعث، والجبهة فيها مكشوفة والسلاح معروف، ومنها كان يأتي المدد تباعًا إلى حزب الله.

إنما كان الخطر الأكبر في الجبهة الخبيثة لأعداء البشر ومنْ شرب سُمَّهم من المنافقين في المدينة : لقد حرص اليهود على ألا يواجهوا الإسلام في معركة مكشوفة، وسهرت عصاباتهم في أوكارها الناشية في شمال الحجاز، تنفث سُمَّ النفاق في المدينة، ثم تمادى بها الشر فسعت إلى قريش، تؤلب الأحزاب منها وتستنفرها لقتال المسلمين بالمدينة، على وعدِ النصرة من يهود الذين وادَعهم المصطفى ﷺ وأمّنهم على دينهم وأموالهم.

وكانت موقعة بدر، هي التي كشفت المستور من غدرهم بعهدِهم للمصطفى وفيه النص الصريح :

«وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصرَ على من دَهَمَ يثربَ».

إنه الغدرُ! فجيشُ قريش لم يخرج من مكة إلا ليدهمَ يثرب. والغدرُ من طبيعة يهود، وهو متوقع ومحسوب.

وأَمْلَى لهم المصطفى، واكتفى ﷺ بأن جَمع يهود المدينة بِسُوق بني قينقاع، وحذرهم من الله مثلَ ما نزل بقريش من النقمة.

وحين يقتصر الأمرُ على الإنذار أو ما هو أشد منه، فإن يهود تتطاول وتجترئ، ما بقيت السيوفُ في أغمادِها.

* * *

وغدا بنو قينقاع إلى سُوقهم بالمدينة يأكلون المال، ويكيدون للإسلام لا يبالون نذيرًا من الله ورسوله. وبدا لنفر منهم أن يعرضوا لإحدى المسلمات يريدونها على أمر تكرهه، ثم احتالوا حتى كشفوا ثوبَها في السوق عن عَوْرَتها، فصاحت تستصرخ العرب، ووقع الشرُّ بين مَن في السوق من المسلمين، ويهود بني قينقاع.

وأقبل المصطفى ﷺ فى جمع من الأنصار فحاصر اليهودَ خمس عشرة ليلة، حتى استسلموا ونزلوا على حكمه، وعندئذ تقدم المنافق «عبدُ الله بن أُبى ابن سلول» فقال للمصطفى على الملأ من الناس:

«يا محمد، أَحسِنْ إلىَّ فى مَوالىَّ!».

وأعرض عنه المصطفى ﷺ، لكن المنافق مضى فى لجاجته، مُصِرًّا على استنقاذهم!

قال عليه الصلاة والسلام: «هم لك!».

واكتفى بأن جرَّدهم من سلاحهم، وأمهلهم ثلاثةَ أيام يَجْلُون بعدها عن المدينة، فخرجوا أذلةً مقهورين إلى وادى القرى، حيث نزلوا على عصابتهم هناك، وتطهرت دارُ الهجرة بجلاءِ بنى قينقاع عنها بعد «يوم بدر» فى السنة الثانية للهجرة!

* * *

وتتابعت أحداثٌ فردية، تعكس صدَى الرعب فى قلوب يهود، وتنم عن كيدهم وحقدهم.

وقد تعلق أملهم، بأن تثأر قريش لقتلاها فى بدر، فما كانت لتسكت عليه كما سكتت يهود على إجلاءِ بنى قينقاع.

بعد عام واحد من بدر، فى شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة، كانت موقعة أُحُد، وكان من أمرها ما كان.

نقضت يهود ميثاقها مع الرسول ﷺ هذه المرةَ أيضا، فلم تكن «على النصر ضد من حارب أهلَ هذه الصحيفة».

وبنو النضير، كانوا فى منطقة المدينة.

وقد لبثوا فى أوكارهم يرقبون سير المعركة فى أُحد...

وطاب لهم ما لقى المسلمون من عدوهم، وتأهبوا لكى يرجفوا فى المدينة بقالتهم الخبيثة:

– انهزم محمدٌ وأصحابه، ويقول إنه نبى مرسَل؟ لو كان نبيًّا ما انتصر عليه الوثنيون!

* * *

ثم هموا بأن يغتالوا الرسول ﷺ!

خرج عليه الصلاة والسلام إلى بنى النضير، يستعينهم فى دية قتيلين من بنى عامر، وكان بينهم وبين بنى النضير حلف وجوار.

«قالت يهود: نعم يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت...

ثم خلا بعضهم إلى بعض فقالوا: «إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه - ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد - فمَنْ رجلٌ يعلو على هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه»؟.

وصعد يهودى فألقى الصخرة، لكن بعد أن كان المصطفى قد تحرك من مكانه.

ولم تَزده فعلتهم علمًا بغدرهم، لكنها زادته تصميمًا على حسم شرهم.

* * *

وعاد إليهم ﷺ، فحاصرهم ست ليال من شهر ربيع الأول، من السنة الرابعة للهجرة...

واستسلموا، بغير قتال، لحكم المصطفى عليهم بالجلاء... وتضرعوا إليه أن يدعهم يذهبون بما حملت الإبل.

فسمح لهم بها الرسولُ المنتصر ﷺ.

وبلغ بهم الحرص، أن راحوا ينزعون الأخشاب من دورهم ليحملوها معهم. ومضوا بالنساء والأولاد وما حملت الإبل من مال ومتاع إلى عشيرتهم فى خيبر، ولم يكن دَوْرُها قد حان بعد...

فكأنما كانوا فى خروج الجلاء، فى ضغطة الحسر! وصدق الله تعالى:

﴿ .... هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۖ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ

ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ
ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ
وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْۚ
وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۖ
إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾

(صدق الله العظيم)

* * *

الأحزاب، وبنو قريظة:

خانهم المعهودُ من حَذرهم، فسعَوا إلى حتفِهم بأظلافهم ومخالِبهم!

لقد ضاقوا بطولِ الانتظار، وعدوُّهم نبيُّ الإسلام يبدو كمن لا يُقهَر، وإنه لَيوشِكُ أن يقذف بهم إلى تيهٍ تشرُّدهم القديم، بعد أن طاب لهم المقام في مستعمراتهم بالأرض الطيبة، شماليَّ الحجاز، أكثر من خمسة قرون.

أزمة «أُحد» لم تكسِر من معنوية جند الإسلام المهاجرين والأنصار، بل أعطتْهم الدرسَ والعبرة، وزادتهم إيمانًا وثباتًا وإصرارًا.

وقريش تبدو حَذِرة مترددة، وتود لو أعفتْها الظروف من الصدام مع جند الإسلام، خوفًا من أن يضيع النصرُ الذى اختطفته فى «أُحد» من حيث توقعت أن تبوءَ بالهزيمة والعار.

ولم يُجْدِ عليها هذا النصرُ المخطوف، وإنها لتعلمُ علمَ اليقين أن بين رجالها مَن اهتز إيمانُهم بالأوثانِ، فلن يلبثوا أن يلحقوا بإخوانهم الذين سبقوهم إلى الإسلام!

* * *

ولاحت الفرصةُ ليهودِ بنى قريظة:

بعثت وفدًا من أحبارها إلى مكة، يَردُّ على المرتابين من المشركين إيمانَهم بآلهتهم ويُغرى الوثنيةَ العربية بحربِ دين التوحيد.

قالوا لقريش:

- دينُكم خيرٌ مِنْ دينه، وأنتم أولى بالحق منه. حاربوه ونحن معكم!

فلما اطمأنوا إلى أن المشركين نشِطوا لما دعوهم إليه من حرب نبى الإسلام، خرج أولئك النفر من يهود حتى جاءوا غطفانَ فدعوهم إلى مثل ما دعوا إليه قريشًا، ووعدوهم المؤازرة والنصرة.

ثم تسللوا عائدين إلى أوكارهم فى شمال الحجاز، ومن ورائهم جيش المشركين: قريش وعليها أبو سفيان بن حرب، والأحزاب من غطفان: بنى فزارة، وبنى مرة، وبنى أشجع بن ريث...

لكن مثل هذا التواطؤ لم يكن بحيث يخفى أمره، وقد علم المصطفى ﷺ بسعى يهود وما بيَّتتْ من غدر، فانتظر عليه الصلاة والسلام حتى فرغ من الأحزاب يومَ الخندق، ورجع بجنده إلى المدينة فى ساعةِ الظهيرة فما كادوا ينفضون عن ثيابهم غبارَ المعركة الظافرة، حتى سمعوا دعاءَ المصطفى ﷺ يعلو به صوتُ مؤذِّنه من المسجد النبوى:

«أيها الناس، من كان سامعًا مطيعًا فلا يُصَلِّيَنَّ العصرَ إلا فى بنى قريظة».

وتدفقت جموعُ المؤمنين إلى موعدِ الرسول: صلاة العصر فى بنى قريظة...

وصلوا هناك، وقد لاذ اليهود الجبناءُ بحصونهم التى ظنوا أنها مانعتُهم من الله.

* * *

وامتد الحصارُ خمسًا وعشرين ليلةً، ثم أخرجهم الرعبُ منها مستسلمين لحكم نبى الإسلام عليه الصلاة والسلام.

لكنه ﷺ، ترك الحكم لسعدِ بن معاذ، نقيبِ الأوس. وقد حاول نفرٌ من قومه أن يحملوه على الرفق بأعداءِ الإسلام وطالما ظاهروهم على الخزرج فى الجاهلية، قالوا لسعد:

— يا أبا عمرو، أحسِن إلى مواليك، فإن رسول الله ﷺ إنما ولَّاك ذلك لتحسن إليهم.

فلما أكثروا عليه، ردَّهم بقوله:

«آن لسعدٍ ألا تأخذه فى الله لومةُ لائم».

ونطق «سعدُ بن معاذ» بحكمِه الصارم العادل على رجال بنى قريظة دون النساءِ والصبية... حسمًا لشرهم الوبيل، وجزاءً وفاقًا على ما كان من غدرهم وكيدهم.

* * *

وذهبت بنو قريظة، قصةً وعبرةً ومثلًا.

وتجاوبت الجزيرة بأصداءِ القصائد التى قالها الشعراءُ فيهم وفيمن حزَّبوا من أحزاب المشركين يوم الخندق، وفى المنافقين.

وتلا المصطفى من وحى ربه، من سورة الأحزاب:

﴿ .... يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا

وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ
مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ
بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ﴿١١﴾
وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ
وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ﴿١٢﴾ وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ
لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ
بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا ﴿١٣﴾ وَلَوۡ دُخِلَتۡ
عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ لَأٓتَوۡهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ
بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا ﴿١٤﴾ وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ
ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ إِن
فَرَرۡتُم مِّنَ ٱلۡمَوۡتِ أَوِ ٱلۡقَتۡلِ وَإِذٗا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٦﴾ قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي
يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ وَلَا
يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٧﴾ ۞ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ
مِنكُمۡ وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا
قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيۡكُمۡۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ
تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلۡخَوۡفُ
سَلَقُوكُم بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلۡخَيۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ فَأَحۡبَطَ ٱللَّهُ
أَعۡمَٰلَهُمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿١٩﴾ يَحۡسَبُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ لَمۡ
يَذۡهَبُواْۖ وَإِن يَأۡتِ ٱلۡأَحۡزَابُ يَوَدُّواْ لَوۡ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلۡأَعۡرَابِ
يَسۡـَٔلُونَ عَنۡ أَنۢبَآئِكُمۡۖ وَلَوۡ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٢٠﴾

لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ
يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا
ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ
ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ
صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن
يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ﴿٢٣﴾ لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ
وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ
غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ
وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ
ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ وَقَذَفَ فِي
قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقٗا ﴿٢٦﴾ وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ
وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ وَأَرۡضٗا لَّمۡ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ
قَدِيرٗا ﴿٢٧﴾ ۞

(صدق الله العظيم)

* * *

حديث الإفك

﴿ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ١٥ ﴾

صدق الله العظيم

إذن فقد بدأ سُمُّ النفاق يُحدث أثره ويُهدِّد الجبهةَ الإسلامية من داخلها، في الوقت الذي كانت تخوض فيه معركتها مع العرب المشركين والعصابات من يهود.

لكن المنافقين الذين انكشفوا يوم الخندق في غزوة الأحزاب، لم يلبثوا بوسوسةٍ من يهود، أن شغلوا المجتمع الإسلامى عنهم بفِرْيةِ الإفْك، التى هزت المدينةَ هَزًّا لمدى شهر كامل من أيام شعبان ورمضان من السنة السادسة للهجرة.

قبلها كان النبى عليه الصلاة والسلام قد خرج غازيا إلى بني المصطلق، وصحبتْه أُم المؤمنين السيدة عائشة بنت الصديق، رضى الله عنها، وفى طريق العودة أناخ الركب قرب المدينة فباتوا بعض الليل ثم ارتحلوا، وما يدرون أن أُم المؤمنين تخلفت عنهم، حتى افتقدوها فى هودجها حين بلغوا المدينة فى الصبح.

وقبل أن يشتد القلق عليها، وصلت على بعير يقوده «صفوان بن المعطل السلمى» وحدَّثت زوجها المصطفى ﷺ عن سببِ تخلفها فما أنكر منه شيئا:

كانت قد خرجت من هودجها من العسكر لبعض حاجتها، قبل أن يُؤذَن فيه بالرحيل، وكان فى عنقها عقد من جزع انسل منها فالتمستْه حتى وجدته، واتجهت إلى هودجها فإذا الركبُ قد رحلوا واحتملوه، لم يُحسوا أنها ليست فيه، لخِفةِ وزنها.

تلفعت بجلبابها وانتظرت فى مكانها واثقة أنهم لن يلبثوا أن يفتقدوها فيرجعوا إليها. وحدث أن مرَّ بها «صفوان» فأنكر أن يتركها وحدها فى الخلاءِ، وقدم بعيره إليها ثم استأخر عنها حتى ركبت، فانطلق يقود بها حتى أبلغها مأمنها فى المدينة.

❊ ❊ ❊

وسيج المنافقون واليهود فرية الإفك، من هذا الحادث العارض، وردَّدها ناس من المسلمين بلغت سمع زوجها المصطفى ﷺ وأبيها الصديق وأُمها، أُم رومان. فصكت آذانهم، وإن لم تجرؤ

أحد منهم على مواجهة السيدة عائشة بالشائعة الخبيثة، إذ كانت تشكو من علة، ولما أحست جفوةً من زوجها المصطفى ﷺ استأذنته فى الانتقال إلى أمها لتمرضها، فأذن لها.

بعد بضع وعشرين ليلة، نقهت من علتها فخرجت من بيت أبيها لبعض حاجتها، ومعها «أم مسطح بنت أبى رهم بن المطلب بن عبد مناف» وإذ هما فى الطريق عثرت السيدة عائشة فى مِرطها، فقالت رفيقتها:

«تَعِسَ مسطح».

فأنكرت السيدة ما سمعت، وقالت:

«بئس لعَمْرُ الله ما قلتِ لرجلٍ من المهاجرين قد شهد بدرًا».

سألتها أم مسطح:

«أو ما بلغك الخبر يا بنت أبى بكر؟».

ولأول مرة، سمعت السيدة عائشة بفرية الإفك، فارتاعت وهرعت إلى أمها، تسألها باكية:

«يغفرُ اللهُ لك، تحدث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لى من ذلك شيئًا؟».

فلم تملك أمها إلا أن تقول:

«أى بنية، خفِّضى عليك الشأنْ، فوالله لقلما كانت امرأة حسناءُ عند رجل يُحبها، لها ضرائرُ، إلا كثَّرْنَ وكثَّر الناسُ عليها».

لكن ذلك لم يُهوِّن عليها من محنة الفرية الخبيثة التى امتحنت بها، وإن لم تدر ماذا عساها أن تصنع، إلا أن تكل أمرها إلى الله سبحانه...

وفى المسجد النبوى، كان زوجها عليه الصلاة والسلام، يحاول أن يرد عنها ألسنةَ السوء، فيقول:

«يا أيها الناس، ما بالُ رجالٍ يؤذوننى فى أهلى ويقولون عليهم غيرَ الحق؟ واللهِ ما علمتُ منهم إلا خيرًا، ويقولون ذلك لرجلٍ واللهِ ما علمتُ منه إلا خيرًا، وما يدخلُ بيتًا من بيوتى إلا وهو معى».

فتنفذ كلماته إلى قلوب المؤمنين، ويثورون غضبًا للسيدة الكريمة، ويتماسك الأوسُ والخزرج متصايحين مطالبين بأعناقِ أصحاب الإفك من هؤلاء وهؤلاء. حتى كاد يكون بين الحيَّيْن شر»[1].

---

(١) تفصيل حديث الإفك، فى (صحيح البخارى) ٢٧/٤ط الشرفية، وفى السيرة لابن إسحاق وتاريخ الطبرى (حوادث السنة السادسة للهجرة) ومعها (السمط الثمين، للمحب الطبرى) ص٦٣.

وخيف على المجتمع الإسلامي من التصدع، وخيف على السيدة عائشة رضي الله عنها من وطأة الحزن والقهر.

حتى حسم القرآن الكريم ذلك الإفك الفاحش والبهتان العظيم بآيات النور:

﴿ .... إِنَّ الَّذِينَ
جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ
لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ
عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ
خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَاءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ
فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا
فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ
فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم
مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا
إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا
بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾
إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

(صدق الله العظيم)

* * *

الله أكبر ، خربت خيبر

وكان «عبد الله بن أُبي أبن سلول» هو الذى تولى كِبْرَ ذلك الإفك... فى أم المؤمنين عائشة، أحبِّ أزواجِ المصطفى إليه وأحظاهم عنده... بنتِ أبى بكر الصديق، أقربِ الصحابة إلى المصطفى وأعزهم عليه، وأول السابقين إلى الإسلام!

* * *

فهل حانت المواجهةُ الحاسمة، مع مرضى القلوب المنافقين؟ كلا، بل يمكن أن تنتظر ريثما يأمن الإسلام شرَّ يهود ويحسم المعركة مع الوثنية العربية.

وهذه المعركة أيضا تحتمل الهدنة بعض الوقت، وقد عُقدت الهُدنة فى «الحديبية» فى أواخر السنة السادسة للهجرة.

* * *

بعدها، فى مستهل السنة السابعة، كان مسير المصطفى ﷺ إلى يهود خيبر الذين سارعوا إلى حصونهم يحتمون بها، فتساقطت حصناً بعد حصن، حتى إذا لم يبق لهم سوى حصنى الوطيح والسلالم، بعثوا وافدهم إلى نبى الإسلام يسألونه أن يحقن دماءهم ويكتفى منهم بالجلاء.

وأجاب المصطفى ﷺ سؤلهم، وتركهم يجلون عن «خيبر» هائمين على وجوههم فى الفلاة.

* * *

بعد سقوط خيبر، انتهت قصةُ الاستعمار اليهودى لشمال الحجاز، لم يبق من عصاباتهم سوى فلولٍ مبعثرة فى فدك ووادى القرى وتيماء، حتى كان أمير المؤمنين «عمر بن الخطاب» هو الذى طهَّر جزيرة العرب من بقاياهم.

وعاد اليهودى التائه إلى ضلاله القديم، يضرب فى التيه من بادية الشام، تلفظه الأرضُ حيث أقام، وتطارده اللعنة أينما حط أو سار.

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا .... حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ ﴾

(صدق الله العظيم)

٢ - فى الجبهة القرشية
من هدنة الحديبية حتى الفتح ويوم حنين

﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾

صدق الله العظيم

* * *

هدنة الحديبية وبيعة الرضوان

كانت غزوة خيبر، فى السنة السابعة للهجرة.

قبلها، فى آخر السنة السادسة، كانت هدنة الحديبية مع قريش، وبيعة الرضوان.

أقام المصطفى ﷺ بالمدينة شهرى رمضان وشوال، ثم خرج فى ذى القعدة قاصدًا إلى العمرة، لا يريد حربًا.

ومعه مئات من الصحابة، المهاجرين والأنصار: فى رواية أنهم كانوا سبعمائة، وفى أُخرى أنهم زادوا على ذلك بضع مئات[1].

وسار الركب النبوى من المدينة، يحدوه الشوق إلى زيارة «البيت الحرام» مهوى أفئدتهم وقبلة صلاتهم، والحنين إلى «أم القرى» بعد ست سنين من الهجرة والاغتراب.

* * *

فى الطريق إلى مكة، لقى الرسول ﷺ مَن أنبأه بخبر احتشاد قريش لصده ومن معه عن المسجد الحرام، فتطوع رجلٌ من الصحابة، وسلك بالركب طريقًا وعرًا غير الطريق التى لقريش.

حتى وصلوا إلى «الحديبية» من أسفل مكة، وعندئذ لمحتهم خيلُ قريش، فطار شهودها إلى مكة بالنبأ.

* * *

---

(١) السيرة ٣/٣٢٢.

ومن مكة، جاء وافدٌ خزاعي «بديلٌ بن ورقاء» في نفرٍ من قومه، يسألون المصطفى:

- ما الذي جاء بك؟

أخبرهم ﷺ أنه لم يأت يريد حربًا، وإنما جاء زائرًا للبيت ومعظمًا لحرمته.

وعاد الخزاعيون إلى مكة، يؤكدون لقريش أنه ما جاء لقتال، وينصحون لهم ألا يعجلوا عليه، وأن يدعوه وما جاء له من زيارة البيت العتيق.

فاتهمهم طواغيت المشركين، وردُّوا في عناد وسَفَه: «إن كان جاء ولا يريد قتالاً، فوالله لا يدخلْها علينا عنوةً أبدًا، ولا تتحدث بذلك عنا العرب».

وتتابعت رسلُ قريش، تحاول أن ترد المصطفى عما جاء له، وهو ﷺ يؤكد لكل وافد منهم، أنه ما جاء لقتال.

ويعودون إلى طواغيت قريش بما قاله ﷺ فيلقونهم بالمكروه من القول والاتهام.

حتى ضاق ذوو الحلم بهذا التمادي في السفه والإعنات.

قال أحدهم - الحُلَيس بن علقمة، وكان سيد أحابيس مكة - غاضبًا متوعدًا:

«يا معشر قريش، والله ما على هذا حالفناكم، ولا على هذا عاقدناكم، أيُصَدُّ عن بيت الله مَن جاء معظمًا له؟ والذي نفسُ الحُلَيسِ بيده، لتُخَلُّنَّ بين محمد وبين ما جاء له، أو لأنفرنَّ بالأحابيش نفرة رجلٍ واحد».

وقال «عروة بن مسعود الثقفي» قبل أن يستجيب لهم فيخرج إلى المصطفى، في محاولة أخيرة لحسم الموقف دون قتال:

«يا معشر قريش، إني قد رأيت ما يلقى منكم مَن بعثتموه إلى محمد إذ جاءكم، من التعنيف وسوء اللفظ، وقد عرفتم أنكم والد وأني ولد - أمُّه: سبيعة بنت عبد شمس - وقد سمعتُ بالذي نابكم، فجمعتُ من أطاعني من قومي ثم جئتكم حتى آسيكم بنفسي».

قالوا يحثونه على مفاوضة المصطفى، عنهم، ليحول دون مكة والحرب:

«صدقت، ما أنت عندنا بمتهم»[1].

* * *

---

(١) السيرة: ٣٢٧/٣، تاريخ الطبري: السنة السادسة: من طريق ابن إسحاق.

خرج «عروة» حتى أتى المصطفى ﷺ فى مناخه عند الحديبية، فجلس بين يديه وقال فى تؤدة، يُذكر محمد بن عبد الله بما يهددُ بلدته، أم القرى:

«يا محمد، أجمعتَ أوشابَ الناس ثم جئت بهم إلى بيضَتِك لتفضَّها بهم؟ إنها قريش، قد خرجتْ معها العوذُ المطافيلُ، قد لبسوا جلودَ النمور يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبدًا. وآيْمُ الله لكأنى بهؤلاء - الذين معك - قد انكشفوا عنك غدًا».

وأنكر أبو بكر الصديق ما سمع، فاعترض بقول من مكانه خلف الرسول ﷺ: أنحن نتكشف عنه؟

وردّ «عروة» وقد عرفه:

«أما والله لولا يدٌ كانت لك عندي لكافأْتُك بها، ولكنْ هذه بها».

وحفّ الصحابة بالمصطفى ﷺ وهو يرد على وافد قريش، بمثل ما قاله لمن سبقوه: إنه لم يأت يريد حربًا.

وعاد «عروة» إلى قريش، يحدثها عما رأى وما سمع، من حبّ أصحاب محمد لمحمد، وتفانيهم فى القيام دونه، وقال فيما قال:

«يا معشر قريش، إنى قد جئت كسرى فى مُلكه، وقيصرَ فى ملكه، والنجاشى فى ملكه، وإنى والله ما رأيت ملكًا فى قوم قط، مثلَ محمد فى أصحابه. ولقد رأيت قومًا لا يُسلمونه لشىء أبدًا، فَرَوْا رأْيكم».

* * *

ولاحَتِ النُذُر:

بعثت قريش أربعين رجلًا منهم أو خمسين، وأمروهم أن يُطيفوا بعسكرِ رسول الله ﷺ، ليصيبوا لهم من أصحابه أحدًا.

وأخذتْهم فئةٌ من الصحابة أخذًا، فجىءَ بهم إلى رسول الله ﷺ فعفا عنهم وخلّى سبيلهم، بعد أن رَمَوا فى عسكر المسلمين بالحجارة والنبل.

وجاء دور المصطفى ﷺ ليحاول ردَّ قريش عن غيِّها، كى تُخلى طريقه إلى البيت الحرام.

بعث إليهم صاحبه وصهره: عثمان بن عفان - وهو من صميم عبد شمس - ليكرر عليهم أن النبى ﷺ لم يأتِ لحرب، وإنما جاء زائرًا لهذا البيت، ومعظمًا لحُرمته.

قالت قريش لعثمان تسترضيه، بعد أن أدّى رسالة المصطفى: «إن شئت أن تطوف بالبيت فطُفْ».

وردّ رضى الله عنه:

«ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ».

وبدا لقريش، فاحتبست عثمان عندها، لعل ذلك يجدى عليها من حيث فشل مسعاها.

وخرجت من مكة شائعة تقول: إن عثمان بن عفان قد قُتل. فما بلغت سمع النبى حتى قال ﷺ:

«لا نبرح حتى نُناجز القومَ».

ودعا أصحابه إلى البيعة على ذلك، فكانت «بيعة الرضوان» تحت شجرة هناك.

وفيها نزلت آيات الفتح:

﴿ .... لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ﴾

صدق الله العظيم

* * *

ولكن الخبر اليقين ما لبث أن جاءَ بأن «عثمان لم يُقتل» وكانت بيعة الرضوان قد راعت قريشًا، وأكدت لها تصميم هذه القلة المؤمنة، على الثبات والاستبسال.

ومهما يكن من حَمِيَّة قريش الجاهلية، فلست بحيث تستبعد أن ينتصروا عليها، لو نشب قتال.

قبلها، انتصروا فى «بدر» وكانوا أقلّ عددًا، وكانت قريش، على عَددها وعُدتها أقوى أملاً فى الغلبة...

كلا.. ما ينبغى أن ينشب قتال، بعد عِبرة بدر التى تحددت فيها موازين القوى.

* * *

من مكة، جاءَ خطيب قريش «سهيل بن عمرو العامرى» مبعوثًا من قريش، للمفاوضة على الصلح...

وتركت قريش لسهيلٍ حرية التصرف، لم تشترط عليه فى الصلح، «إلا أن يرجع محمد عن

مكة عامَه هذا، فواللّهِ لا تحدث العربُ أنه دخلها عليهم عنوةً أبدًا».

ودارت المفاوضة بين المصطفى وبين مبعوث قريش، وتراضيا على أن يرجع محمد بأصحابه عن مكة هذا العام، على أن يعودوا فى الموسم القابل فيدخلوها ويقيموا بها ثلاث ليال، بغير سلاح إلا سلاح الراكب: السيوف فى القرب.

واتفقا على هُدْنة مداها عشرُ سنين، مَن جاءَ المسلمين فيها من قريش بغير إذن وليه ردُّوه إليهم، ومن جاءَ قريشًا من المسلمين لم يردّوه.

وكان أصحاب المصطفى ﷺ يتابعون هذه المفاوضة بينه ﷺ، وبين سهيل بن عمرو، وقد غاب عن بعضهم مغزى شروطها وحكْمَتِها:

هدنة، تسمح للمصطفى أن يفرغ للعصابات اليهودية ويحسم شرها.

ولا بأس على مَنْ يُرَدُّ إلى قريش، فذاك ابتلاءٌ لإيمانه.

ولا خير فيمن يجيءُ قريشًا من المسلمين، فلا جدوى من رده إليهم، ولا حاجة لهم إليه.

* * *

وإذ تم التراضى على شروط الصلح ولم يبق إلا أن يُكتب، وثب عمر بن الخطاب فقال لأبى بكر:

– يا أبا بكر، أليس برسول الله؟

قال الصديق: بلى.

وتابع عمر أسئلته:

«ألسنا بالمسلمين؟

أليسوا بالمشركين؟

فعلامَ نُعطى الدنيَّةَ فى ديننا؟»

وأبوبكر، يحاول ردّه إلى التسليم بحكمةِ ما يَرضى به رسول الله عليه الصلاة والسلام...

ويمضى «عمر» إلى المصطفى فيسأله مثل ما سأل أبا بكر:

– يا رسول الله، ألستَ برسول الله؟

– أوَ لسنا بالمسلمين؟

– أوَ ليسوا بالمشركين؟

– فعلامَ نعطى الدنية فى ديننا؟

وانتظر عليه الصلاة والسلام حتى فرغ صاحبه من كل ما أراد أن يقول، ثم لم يزد على أن قال:

«أنا عبدُ الله ورسولُه، لن أُخالف أمرَه، ولن يُضيعني».

ثم دعا رسولُ الله ﷺ ابن عمه «علىّ بن أبى طالب» وأملى عليه نص وثيقة المهدنة فكتبها[1] وأشهد على الصلح رجالاً من المسلمين، وآخرين من المشركين... ثم قام عليه الصلاة والسلام إلى هَدْيه فنحره، وحلق شعره. وكان قد دعا أصحابه إلى أن يفعلوا، فتردد منهم مَن لم يكونوا راضين عن شروط الصلح، ثم ما هو إلا أن رأوا المصطفى ينحر هديه ويحلق شعره، حتى تواثبوا جميعً ينحرون ويحلقون[2].

* * *

وما لبثوا أن أدركوا حكمة هذا الصلح الخطير الذى عدّه القرآن فتحا مبينا.

وفيه نزلت سورة الفتح، يقول فيها تعالى لرسوله المصطفى:

﴿ .... لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾

(صدق الله العظيم)

* * *

بعدها كان المسير إلى خيبر، وخريت خيبر...

---

(١) تجد النص، فى السيرة لابن هشام: ٣٢٢/٣، وتاريخ الطبرى: ٨٠/٣٠، وطبقات ابن سعد: حـ ٢.
(٢) السيرة لابن هشام: ٣٣٣/٣.

قد أَجَرْنَا مَنْ أجارَتْ

﴿ .... عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧ ﴾

صدق الله العظيم

هلَّ هلال المحرم من السنة السابعة للهجرة، وقد رجع المصطفى ﷺ من الحديبية، والمدينة فى موقف ترقب وانتظار...

من طريق مكة، جاء رجل يسعى، عرفت فيه المدينة «أبا العاص بن الربيع» فكأنها كانت فى انتظاره، ولم يكن قد مضى غير سبعة أشهر على وداعها إياه! مَرَّ قريبًا منها، فى جمادى الأولى من السنة السادسة، فى طريق عودته من الشام إلى أم القرى، فى مالٍ له ولقريش، فعرضت له سَرِيَّةٌ إسلامية أصابت كل ما معه، وأفلت منها مع الفجر إلى أم ولديه، بنت خالته «زينب بنت محمد» عليه الصلاة والسلام، مستجيرًا بها.

ولم تكن رضى الله عنها قد رأته منذ ودعها إلى دار الهجرة وقد فرق الإسلام بينهما، بعد أن افتدته من الأسر يوم بدر، بقلادة أمها وأم المؤمنين، خالته السيدة خديجة رضى الله عنها...

* * *

وفى هدأة الفجر سرى صوت زينب:

«أيها الناس، إنى قد أجرتُ أبا العاص بن الربيع» فبلغ سمعَ أبيها عليه الصلاة والسلام وهو يصلى بالناس فى مسجد المدينة، فلما سلَّم سأل مَن حوله إن كانوا قد سمعوا ما سمع؟

أجابوا: نعم يا رسول الله.

قال: أما والذى نفسُ محمدٍ بيده، ما علمتُ بشىءٍ من ذلك حتى سمعتُ ما سمعتم.

وأضاف بعد صمت قصير:

«إنه يُجير على المسلمين أدناهم، وقد أجرْنا مَن أجارتْ».

ثم انصرف عليه الصلاة والسلام فدخل على ابنته وعندها ابن خالتِها أبو ولديها «عليٌّ وأمامة» فما كادت ترى أباها حتى قالت توضح موقفها:

-يا رسول الله، إن أبا العاص إن قرُب فابنُ عم، وإن بعُد فأبو ولد، وإنى قد أجرتُه .

قال الأب عليه الصلاة والسلام:

«أى بُنية، أكرمى مثواه، ولا يخلُصَنّ إليكِ فإنك لا تحلين له».

وتركهما وما يدريان علام استقر رأيه فيهما.

ولاحت لها من بعيد رؤيا ماضيها السعيد والشمل مجتمع والبال خلِيّ، وتذكرت زينب أنْ قد طال عليهما الأمد – سنين عددًا – فى انتظار تحقق أملها الذى لم تتخل عنه قط: أن يشرح الله سبحانه صدر أبى العاص للإسلام.

وسمعته يقول، كأنه يعتذر إليها:

«لقد عرضوا علىّ بالأمس أن أسلم وآخذ ما معى من أموال فإنها أموال المشركين، فأبيت وقلت: بئس ما أبدأ به إسلامى، أن أخون أمانتى».

فرنت إليه زينب، تفكر فى مغزى ما سمعتْ.

وفى الصبح، بعث المصطفى عليه الصلاة والسلام مَن صحب أبا العاص إلى المسجد، وفيه رجال السرية الذين أصابوا مالَ أبى العاص، قال لهم عليه الصلاة والسلام:

«إن هذا الرجلَ منا حيث قد علمتم، وقد أصبتم له مالاً، فإن تُحسنوا وتردوا عليه الذى له فإنا نحب ذلك، وإن أبيتم فهو فىءُ اللهِ الذى أفاءَ عليكم وأنتم أحقُّ به...».

أجابوا جميعا: يا رسول الله، بل نرده عليه...

وتأهب أبو العاص للرحيل إلى مكة، فقال عليه الصلاة والسلام وهو يودعه:

«حَدَّثنى فصدقنى، ووعدنى فوفى لى»

* * *

وتوقعت دار الهجرة أن يعود إليها.

وهذا هو قد عاد مع هلال السنة الهجرية السابعة.

بعد أن صفى حسابه بمكة، ودفع إلى أهلها ما خرج فيه من مالهم إلى الشام، ثم وقف فى الحرم المكى هناك، يسأل بأعلى صوته:

«يا معشر قريش، هل بقى لأحدٍ منكم عندى مال لم يأخذه؟»

قالوا: «لا، فجزاك الله خيرًا، فقد وجدناك وفيًا كريمًا».

فأدار بصره فى الجمع الحاشد، ثم قال على مهل:

«فأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، والله ما منعنى من الإسلام إلا تخوفُ أن تظنوا أنى إنما أردت أن آكل أموالكم، فلما أدّاها الله إليكم، وفرغتُ منها، أسلمت»[1].

وخلّف القوم واجمين كأنما انقضت عليهم صاعقة، وانطلق مستقبلاً دارَ الهجرة وكأنه معها على موعد.

* * *

اتجه فور وصوله إلى المسجد النبوى، فهلل المسلمون وكبروا حين رأوه يبايع النبى ﷺ، وحفّوا به مهنئين مرحبين، لكنه كان مشغول البال عنهم بأمر أهمّه: أترى يرد إليه المصطفى ابنته الحبيبة «زينب» زوجًا، بعد الذى كان؟

وساوره قلق، ثم ذكر أن الإسلام يَجُب ما قبله، فتقدم إلى المصطفى ﷺ يلتمس أن يجيبه إلى حاجته فى استرجاع «زينب».

أثنى المصطفى ﷺ عليه خيرًا، ثم قام ﷺ وسار إلى بيته، ومعه ابن الربيع.

ودعا إليه ابنته، فردّها على أبى العاص.

واجتمع الشمل الممزّق، بعد فراق طال..

ومضى عام واحد، ثم كان الفراق الذى لا لقاء بعده فى هذه الدنيا.

ماتت «زينب» فى مستهل السنة الثامنة للهجرة، وتركت لزوجها أبى العاص ذكراها الحية، وولديها عليًا وأمامة، حتى لحق بها بعد أربع سنين.

* * *

---

(١) السيرة ٣/٣١٣، تاريخ الطبرى: ٢٩٣/١، الاستيعاب لابن عبدالبر: ١٧٣/٤ - ط الحلبى.

فى فترة الهدنة مع قريش، وبعد أن تطهرت المنطقة الإسلامية من الوباء اليهودى.

اتجه تفكير المصطفى ﷺ إلى نسر دعوته خارج بلاد العرب، فبعث رسلاً من أصحابه بكتب منه إلى الملوك والحكام لعهده، يدعوهم إلى الإسلام بالحسنى، امتثالاً لأمر الله الذى بعثه إلى الناس كافة:

أرسل المصطفى ﷺ: «دحية بن خليفة الكلبى» إلى قيصر، إمبراطور الروم.

و «عبدالله بن حذافة السهمى» إلى كسرى فارس.

و «عمرو بن أمية الضمرى» إلى نجاشى الحبشة.

و «حاطب بن أبى بلتعة» إلى المقوقس عظيم القبط.

و «عمرو بن العاص» إلى ملكى عمان.

و «سليط بن عمرو» إلى ملكى اليمامة.

و «العلاء بن الحضرمى» إلى المنذر العبدى ملك البحرين.

و «سجاع بن وهب الأسدى» إلى الحارث الغسانى بالشام.

و «المهاجر بن أبى أمية المخزومى» إلى الحارث بن عبد كلال الحميرى ملك اليمن.

* * *

تجربة «مؤتة» ولقاء الروم

ثم وجّه المصطفى عليه الصلاة والسلام، عنايته خاصة إلى بلاد الشام، حيث تمد إمبراطورية الروم سلطانها إلى شمال الجزيرة العربية، وتفرض نفوذها المادى والمعنوى على أهل المنطقة، بالبطش والإرهاب.

وفى جمادى الأولى من سنة ثمان للهجرة، جهز ﷺ جيشًا لغزوة مؤتة، أول غزوة سيرها المصطفى ﷺ إلى خارج بلاد العرب، تأمينًا لحدودها ن ناحية الروم، وتدريبًا لجند الإسلام على لقاء عدو ذى صولة وصلف، واتجاهًا بالدعوة الإسلامية إلى ما وراء الحدود.

واختار ﷺ «زيد بن حارثة» أميرًا على الجيش وقال:

«إن أصيب زيد فجعفرُ بن أبى طالب على الناس، فإن أصيب فعبدُ الله بن رَوَاحة على الناس».

كان عددهم ثلاثة آلاف، أسلحتهم الحربية السيوفُ والقِسِيُّ والرماح والنبل والسهام، وزادُهم التمر والخبز الجاف وما قد يتيسر لهم من صيد.

وساروا حتى نزلوا «معانَ» من أرض الشام فبلغهم أن «هرقل» قد نزل مآبَ من أرض البلقاء، فى مائة ألف من الروم، انضمت إليهم ألوفٌ وألوف من لخم وجذام والقين وبهراء وبَلِيّ.

وتشاور المسلمون فى خطر الموقف، وكان رأى عدد منهم ألا يجازفوا بلقاء الروم فى معركة تفنى جند الصحابة، وأن يكتبوا إلى الرسول ﷺ، عسى أن يمدهم بالرجال أو يأمرهم بالعودة إلى المدينة.

لكن «عبد الله بن رواحة» أبى إلا أن يتقدموا للقتال، قال:

«يا قوم، والله إن التى تكرهون لَلّتى خرجتم تطلبون: الشهادة. وما نقاتل الناسَ بعددٍ ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هى إحدى الحُسنيين: إما ظهور وإما شهادة».

هتف جند الإسلام: قد والله صدق ابنُ رواحة.

ومضوا حتى إذا بلغوا تخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل، فانحاز المسلمون إلى قرية «مؤتة» وقاتل «زيد بن حارثه» بلواء المصطفى حتى استشهد، فتلقى جعفر بن أبي طالب اللواء بيمينه، فقاتل به حتى قُطعت، فأخذه بشماله حتى قطعتْ، فاحتضنه بعضديه حتى استشهد.

وتلقى اللواء من بعده «عبدُ الله بن رواحة» فما تخلى عنه حتى استشهد، فكانت له إحدى الحسنيين التي أراد.

واختار المسلمون «خالد بن الوليد» قائدًا فلم ير أن يعرض جنده للهلاك، وظل يدافع الروم في بسالة ومهارة وهو ينحاز بجنده حتى نجا بهم، لم يتركوا من ورائهم غير ثمانية شهداء، كانت دماؤهم الزكية هي التي مهدت أرض الشام للفتح الإسلامي بعد نحو من عشر سنين!

❊ ❊ ❊

استقبلت المدينة الجيش العائد من مؤتة بالغضب والإنكار، وجعل الناس يحثون التراب على جنود خالد بن الوليد ويقولون:

– يا فُرَّار، فررتم في سبيل الله؟

والمصطفى ﷺ يرد عنهم الناس ويقول:

«ليسوا بالفُرَّار، ولكنهم الكُرار إن شاء الله».

❊ ❊ ❊

ويمضي وقت، نحو شهرين: جمادى الآخرة ورجب، في بطء مرهق بالتوتر، وعلى الأفق نذر.

المسير إلى مكة

﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾

صدق الله العظيم

* * *

لم يكن هناك يهود يلوكون حديث مؤتة، ولكن المنافقين كانوا هناك فى صميم المجتمع المدنى، لا يكتمون شماتتهم ولا يكفون عن سخرية بما حسبوه تطاولاً من المؤمنين إلى تخوم الروم.

وقريش تزداد حمقًا وتطاولاً، فتظاهر بكرًا على خزاعة وترفدها بالسلاح، لا تبالى عهد الحديبية، وفيه النص على «أنه من أحب أن يدخل فى عقد رسول الله ﷺ فليدخل فيه، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم فليدخل فيه».

وخزاعة كانت قد اختارت الدخول فى عقد الرسول وحلفه، فبيّتتها «بكر» بالوتير، وأمعنت فيها قتلاً بسلاح قريش!

وتمهل المصطفى ﷺ، لعل قريشًا ترجع عن غيِّها فيما نقضت من عهد الحديبية، بما ظاهرت بكرًا على خزاعة، وهى فى عقد الرسول وعهده!

* * *

«المدينةُ» تهدر بالغضب والقلق والترقب.

والمصطفى هناك قد أخذ مجلسه بين أصحابه فى مسجده، وما يدرى أحد خطوبه المائلة.

وفجأة، تعلقت الأبصار برجل، يشق طريقه فى زحام الناس حتى يصل إلى مجلس الرسول ﷺ، فيقف عليه، ويلتقط أنفاسه من سفر بعيد.

عرف المهاجرون فيه «عمرو بن سالم الخزاعى»

وانتظروا ماذا يكون من أمره، فانصرف عمرو عنهم وابتدر المصطفى ينشده مرتجزًا:

يا ربِّ إنى ناشدٌ محمدًا
حِلفَ أبينا وأبيه الأتلدا
قد كنتم ولدًا وكنا والدا
ثُمتَ أسلمْنا فلم ننزِعْ يدا
فانصرْ هداك اللَّهُ نصرًا أعتدا
وادعُ عبادَ اللهِ يأتوا مددا
فيهم رسولُ الله قد تجردا
إن سيم خسْفًا وجهُه تربدا
فى فيلقٍ كالبحرِ يجرى مزبدا
إن قريشا أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وزعموا أنْ لستُ أدعو أحدا
وهم أذلُّ وأقلُّ عددا
هم بيَّتونا بالوتير هُجَّدا
وقتَّلونا رُكَّعًا وسُجَّدا

قال عليه الصلاة والسلام:

«نُصِرتَ يا عمرو بنَ سالم».

ثم قام يتجهز لفتح مكة...[1]

* * *

الوقت مساء..

والمدينة ساهرة تحتشد للتعبئة، وقد أوشك جُندُ الإسلام على المسير إلى مكة.

ووافدٌ من مكة جاءَ يسعى حثيثا حتى بلغ بيت أم المؤمنين «أُم حبيبة، رملة بنت أبى سفيان» فى دُور النبى المحيطة بمسجده.

واستأذن فدخل، وأُمُّ المؤمنين لا تكاد تصدق أنه والدها «أبو سفيان بن حرب»!

---

(١) السيرة: ٤ ٣٦ وتاريخ الطبرى، السنة الثامنة هـ.

هل جاءَ مبايعًا، بعد أن طال ضلالُه وأَهلك قومَه؟

لو كان قد جاءَ مسلمًا، لما تردد فى أن يعجل إليها بالبشرى، فيضع حدًّا لما كابدته من هم، فى موقفها بين زوجها وأَبيها!.

وقد كان الموقف صعبًا:

من قبل أَن تتشرَّف «رملةُ» بالزواج من المصطفى، آمنت به نبيًّا مع زوجها الأَول «عبيد الله بن جحش» وهاجرت معه إلى الحبشة. فلم يلبث أَن ارتد عن الإسلام، وتركها تكاد تموت بقهرها، لولا أَن واساها عليه الصلاة والسلام، وشرفها بأَن أَرسل إلى ابن عمه «جعفر بن أَبى طالب» فخطبها إليه فى بلد النجاشى.

وعادت من مهاجرها مع جعفر، يوم فتح خيبر، وأَخذت مكانها الرفيع فى بيت النبى، فما كانت امرأَة أَعز منها بزوج وأَشقى بأَب!

فإن لم يكن أَبوها قد جاءَ من مكة مبايعًا، فلعله موفد من مشركى قريش، يتوسل بابنته إلى زوجها نبىّ الإسلام، ليجدد الهدنة التى نقضها القرشيون!

وانتظرت أُم المؤمنين، لم تدعُ أَباها إلى الجلوس حتى تعلم فيم جاءَ!

وتقدم هو من تلقاءِ نفسه، فهمّ بالجلوس على فراشٍ هناك، فسبقته إليه أُم المؤمنين وطوته عنه.

سأَلها وهو يتجاهل مغزى ما فعلت:

– يا بنية، ما أَدرى أَرغبتِ بى عن هذا الفراش، أَم رغبتِ به عنى؟.

فما راعه إلا أَن أَجابت:

«بل هو فراش رسول الله ﷺ، وأَنت مشرك نجس، ولم أُحب أَن تجلس على فراشه ﷺ».

قال أَبو سفيان مقهورًا:

– والله يا بُنيَّة، لقد أَصابك بعدى شرٌّ![1].

وخرج بحسرته، فإذا رسول الله ﷺ فى المسجد مع جمع من أَصحابه، فيهم أَبو بكر وعمر.

ووقف بين يدى المصطفى ﷺ، يعتذر عن قريش ويسأَله أَن يستبقى الهدنة، فما رد عليه المصطفى ﷺ بكلمة.

---

(١) السيرة: ٣٨/٤، تاريخ الطبرى ١٦٢/٣، السمط الثمين ١٠٠.

واتجه أبو سفيان إلى الصديق أبي بكر، يرجوه فى أن يكلم النبى عليه الصلاة والسلام، فما زاد الصديق على أن قال: «ما أنا بفاعل!».

والتمس أبو سفيان الشفاعةَ عند الرسول، من عمر بن الخطاب، فكان ردُّ عمر:

«أأنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ؟ فوالله لو لم أجد إلا الذرَّ لجاهدتُكم به!».

ونقَّل أبو سفيان بصره فى القوم، فما وجد إلا الصد والجفاء.

* * *

وقاوم يأسه، فخرج متعثرًا فى حيرته حتى بلغ بيت «على بن أبى طالب» صهر المصطفى وابن عمه، فقصَّ عليه ما كان من أمره مع ابنته رملة، ثم مع الرسول وصاحبيه أبى بكر وعمر.

وقال يستنجد بابن أبى طالب، ويذكر جَدَّهما «قصى بن كلاب» والد عبد مناف وعبدشمس:

«يا علىّ، إنك أمسُّ القوم بى رَحِمًا، وإنى قد جئتُ فى حاجة فلا أرجعنَّ كما جئتُ خائبًا، فَاسفعْ لى إلى صهرك وابن عمك».

ردّ على، كرم الله وجهه:

«ويحك يا أبا سفيان، والله لقد عزم الرسول ﷺ على أمرٍ ما نستطيع أن نكلمه فيه».

فالتفت أبو سفيان إلى «الزهراء».وكان حتى هذه اللحظة صامتة لا تشارك فى حديث، فقال لها وهو يشير إلى ابنها «الحسن بن على» سبط النبى:

«يا ابنة محمد، هل لك أن تأمرى بُنيَّك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟».

ردت الزهراءُ رضي الله عنها:

«والله ما بلغ بُنَىَّ أن يجير بين الناس، وما يجير أحدٌ على رسول الله ﷺ».

ولم يبق إلا أن ينصرف...

غير أنه لم يكن يدرى إلى أين، وقد أُوصدت الأبواب فى وجهه. وتمهل برهة فقال لعلى:

- يا أبا الحسن، إنى أرى الامور قد اشتدت علىّ، فانصحنى.

قال على:

«والله ما أعلم لك شيئًا يغنى عنك شيئًا، ولكنك سيد فى بنى كنانة، فقم فأجِرْ بين الناس ثم الحقْ بأرضك».

سأله:

«أو ترى ذلك مغنيًا عنى شيئًا؟».

فرد على:

«لا واللهِ ما أظنه، ولكنى لا أجد لك غيرَ ذلك»[1].

* * *

---

(١) السيرة: ٣٩/٤ - تاريخ الطبرى: ١١٣/٣، من طريق ابن إسحاق.

الفتــح

على ناقته «القصواء» التى خرجت به من غارِ ثور، قبلَ ثمانى سنين، طريـدًا مستخفيًا مهاجرًا، أعزل إلا من إيمانه، ليس معه غير صاحبه أبى بكر، والله ثالثهما...

سار من دار الهجرة لعشرٍ خلون من شهر رمضان، السنة الثامنة للهجرة فبلغ ﷺ مكةَ يومَ الفتح، فى عشرةِ آلافٍ من جند الإسلام، حزب الله...

وفتحت أُم القرى قلبها للنبى العائد، ومَنْ معه من أبنائها المهاجرين وأصحابه الأنصار...

ولم يَدُرْ يومَها قتال، وكأنما عاشت أُم القرى فى انتظار هذه اللحظة التاريخية، لتتحرر من أغلال الوثنية.

وكأنما كان أهلُها، جيرة الحرم الأقدس، يتطلعون إلى اليوم الذى يكفون فيه عن حرب عقيم، بعد أن فقدوا إيمانهم بالأوثان التى حاربوا من أجلها، فما أغنتْ عنهم شيئًا!

* * *

وعلى راحلته، طاف عليه الصلاة والسلام بالبيت العتيق سبعًا، وسط الجموع الحاشدة من الناس، ثم ترجل فدخل البيت خاشعًا، وقام يصلى بالمسلمين فى الحرم المكى الذى تطهر يومئذ من رجس الأوثان. وفى (عيون الأثر) من طريق أبى القاسم الطبرانى من حديث ابن عباس، رضى الله عنهما، أنه ﷺ دخل مكة يوم الفتح وعلى الكعبة ثلاثمائة وستون صنما، أهوى عليها بقضيب فى يده فتهاوت واحدا بعد الآخر، وهو يقول: ﴿جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا﴾.

وفتحت له الكعبة فدخلها، ثم وقف على بابها وقال:

«لا إلـه إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده».

والجموع من حوله تردد الدعاء، فتخشع له صُمُّ الجبال.

وخطبهم ﷺ خطبة الفتح، فقال فيما قال:

«يا معشر قريش، إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء. الناس من آدم وآدم

من تراب. ثم تلا قوله قوله تعالى: ﴿يـٰأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائلَ لِتَعَارَفوا، إن أكرمُكم عند الله أتقاكم..﴾ الآية..

ثم قال ﷺ:

«يامعشر قريش، ماذا ترون أنى فاعل بكم؟» قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم. فقال عليه الصلاة والسلام:

«اذهبوا فأنتم الطلقاء»

وفى رواية لابن سعد فى (الطبقات الكبرى) أن رسول الله ﷺ أمر بلالا فأذن فوق ظهر الكعبة، ووقف عليه الصلاة والسلام مشرفا على مكة يستقبلها يتلو ما ودعها به ساعة الهجرة منها، قال ﷺ: «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إليه وإلىّ، ولولا أنى أُخرِجت منك ما خرجت».

وفيما كان بعد الفتح واقفا على الصفا يدعو، وقد أحدقت به الأنصار، قالوا فيما بينهم. «أترون رسول الله ﷺ إذ فتح الله عليه أرضه وبلده، يقيم بها؟» فلما فرغ ﷺ من دعائه التفت إليهم فسألهم عما كانوا يتكلمون به.. ثم قال: «معاذ الله، المحيا محياكم والمماتُ مماتكم».

لكنه تمهل فى العودة إلى دار الأنصار، ريثما يقضى على فلول الوثنية الناشبة فى بعض القبائل حول مكة، فبث سراياه إلى الأصنام التى حول مكة فكسرها، منها: العُزَّى وسُوَاع وذو الكفين...

والشعراء فى مواضعهم فى الميدان يسجلون أحداث الفتح.

ويعبرون عن وجدان أم القرى وقد انتقل شعراؤها من مسلمة الفتح إلى الجبهة الإسلامية جندًا لله ولرسوله.

* * *

﴿ويومَ حُنَيْنٍ إذ أعجبتكم كثرتُكم﴾

ترددت فى أفق مكة، عقب الفتح، سائعات عن احتشاد «هـوازن وثقيف» ومن والاهما، لحرب المسلمين وهم بمكة غير بعيد. فبعث ﷺ من أصحابه مَن جاءه بالنبأ اليقين: أنهم أجمعوا على حرب رسول الله ﷺ والذين آمنوا معه.

وخرج المصطفى ﷺ فى غزوة حنين إلى هوازن فى الآلاف العشرة الذين شهدوا معه فتح مكة، ومعهم ألفان من أهل مكة.

وكادت مأساة «أُحُد» تتكرر..

بلغ القائد الرسول ﷺ بجنده منحدرا فى وادٍ من تهامة، سبقهم إليه المشركون من هوازن وأحلافها، فكمنوا لهم فى شِعابه وأحنائه ومضايقه، ثم انحطوا بغتةً فى عَماية الصبح، فشدوا عليهم، فولوا راجعين لا يلوى أحدٌ على أحد، لم يبق منهم مع المصطفى ﷺ سوى نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته.

يومَها تكلم رجال من المنافقين ومن المكيين حديثى العهد بالإسلام بما فى أنفسهم من الضغن، وقال أبو سفيان فى شماتة: لا تنتهى هزيمتهم دون البحر.

وعقَّب آخر، جبلة بن الحنبل: ألا بطل السحر اليوم!

وبطَل السحر حقًّا، لكنه سحر الغفلة والضلال.

تدارك المصطفى ﷺ الموقف، فأمر عمه «العباس بن عبد المطلب» - وكان جهير الصوت - فصاح بالمسلمين يستنفرهم للجهاد مع نبيهم المصطفى ﷺ، ويسترجعهم إلى أماكنهم حوله، وإنّ واحدةً من الصحابيات «أم سليم بنت ملحان» لَتَثبتُ مع القلة المؤمنة وإنها لحاملٌ بعبدالله بن أبى طلحة، وقد حزمت وسطها بِبرْدٍ لها تتقى الإجهاض، ومعها خنجر مشهر، فيقول ﷺ: «أم سليم»؟

وتجيب: نعم، بأبى أنت وأمى يا رسول الله، اقتل هؤلاء الذين ينهزمون عنك كما تقتل الذين يقاتلونك، فإنهم لذلك أهل.

---

(١) السيرة لابن هشام ١٤٣/٤، طبقات ابن سعد ٩٨/٢.

قال ﷺ: «أو يكفى الله يا أم سليم؟»[1].

ويسألها زوجها أبو طلحة: ما هذا الخنجر معك يا أم سليم؟ أجابت: خنجر أخذته، إن دَنَا منى أحد من المشركين بَعَجتُه به..

* * *

وعاد المسلمون على صوت النفير، والتحم الفريقان وحمى الوطيس، فكان النصر للمؤمنين.

وكانت تجربة أخرى، يُذكرهم الله بها بعد غزوة تبوك، فى السنة التالية، التاسعة للهجرة، فيقول تعالى فى سورة التوبة:

﴿ .... لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾

(صدق الله العظيم)

* * *

بعد الملحمة، سار النبى ﷺ والآلاف من جنده إلى (الجعرانة) فى طريقة لقضاء عمرته الأولى بعد الفتح. ومعهم سبى هوازن وغنائم حنين، فتمهل ﷺ فى قَسم السبى، متوقعا أن يقدم وفدهم لفداء هذا السبى. وقسم الأموال، فزاد فى عطاء كبار المكيين، مسلمة الفتح.

وصح ما توقعه النبى عليه الصلاة والسلام: قدم وفد هوازن، أربعة عشر رجلا، يتقدمهم «زهير بن صرد الجُشَمى» شاعرهم، وأبو برقان السعدى، عم المصطفى عليه الصلاة والسلام،

---

(١) السيرة: ٨٨/٤.

من الرضاعة – فسألوا النبي ﷺ أن يمن عليهم بالسبي، وتوسلوا إليه بما لهم من حق الرحم، إذ أرضعته السيدة حليمة السعدية. وقال قائلهم: إن في الحظائر – مستودع السبي – عماتك وخالاتك يارسول الله، وأنشد زهير قصيدته التي مطلعها:

امننْ علينا رسول الله في كرم * فإنك المرء نرجوه وننتظر

وذكره فيها بالعمات والخالات من بني سعد، من هوازن، قال عليه الصلاة والسلام:

«ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم» وقالت قريش – سوى نفر قليل –: ما كان لنا فهو لله ولرسوله، وقالت الأنصار: ما كان لنا لهو لله ولرسوله.

* * *

ومن منازل الأنصار خرجت قالة تعبر عن ضيقهم وقلقهم لما رأوا من سخائه في عطاء المؤلفة قلوبهم.

قالوا: «لقد لقي والله رسول الله ﷺ قومه».

وبلغت قالتهم سمع المصطفى ﷺ، نقلها إليه «سعدُ بن عبادة» شاكيًا له ﷺ ما تجد الأنصار من قلق وضيق.

سأله المصطفى ﷺ:

«فأين أنت من ذلك يا سعد؟»

وردّ نقيب الأنصار: يارسول الله، ما أنا إلا من قومي.

فلم يضق ﷺ بصاحبه، بل طلب إليه أن يجمع له قومه من الأنصار، ثم خرج إليهم المصطفى ﷺ فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

«يا معشر الأنصار، ما قالةٌ بلغتني عنكم وجِدةٌ وجدتموها عليّ في أنفسكم؟ ألم آتكم ضُلالا فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداءً فألّف بين قلوبكم؟».

أجابوا: بلى، الله ورسوله أمَنُّ وأفضل.

سألهم ﷺ: «ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟».

فسألوا بدورهم: بماذا نجيبك يارسول الله؟ لله ولرسوله المنُّ والفضل.

قال ﷺ: «أما والله لو شئتم لقلتم فلصَدقتم ولصُدِّقتم: أتيتَنا مكَذَّبًا فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلاً فآسيناك.. أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم، في لعاعة من الدنيا تألفتُ بها قومًا ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن

يذهب الناس بالشاةِ والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذى نفسُ محمد بيده، لولا الهجرة لكنت آمرأً من الأنصار، لو سلك الناس شِعبًا وسلكت الأنصارُ شِعبا، لسلكتُ شِعبَ الأنصار! اللهم ارحم الأنصارَ، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار».

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وهتفوا جميعًا بصوت واحد: «رضينا برسول الله ﷺ قسما وحظا».

وقضى ﷺ عمرته فى ذى القعدة من السنة الثامنة، وعاد إلى دار هجرته فى رحل الأنصار.

* * *

استقبلت المدينة ركب المصطفى ﷺ منصرفه من الفتح وحنين ظافرا منصورا، وفى كتيبة الصحابة الشعراء رضى الله عنهم «بُجَير بن زهير بن أبى سلمى».

وفى حزب المشركين أخوه «كعب بن زهير» وفى السيرة أن بجيرا أشفق على أخيه فكتب إليه يحذره من مثل مصير مَن حارب الإسلام وآذى النبى ﷺ، وقال ينصحه: «إن كانت لك فى نفسك حاجة فَطِرْ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه يعفو عمن جاءه تائبًا» وكان كعب قد قال يخاطب أخاه فى قصيدة بعث بها إليه:

ألا أبلغا عنى بجيرا رسالة	فهل لك فيما قلت ويحك هل لكا
فبيّنْ لنا إن كنت لست بفاعل	على أى شىء غير ذلك دَلَّكا
على خُلُقٍ لم تُلْفِ أما ولا أبا	عليه ولم تدرك أخًا لكا

فردّ عليه بجير:

مَنْ مُبلغٍ كعبا: فهل لك فى التى	تلوم عليها باطلا وهى أحزمُ
إلى الله، لا العُزَّى ولا اللات، وحده	فتنجو إذا كان النجاء وتسلم
لدى يوم لا ينجو وليس بمفلتٍ	من النار إلا طاهر القلب مُسْلم

فلما بلغ كعبا كتاب أخيه، ضاقت به الأرض وأشفق على نفسه وأرجف به المرجفون أنه مقتول، فنظم لاميته المشهورة [بانت سعاد][1] المِدْحة النبوية الكبرى وقدم بها المدينة خفية فنزل على رجل يعرفه من جهينة. فغدا به إلى النبى ﷺ حين صلى الصبح، واستأمنه إذ جاء تائبا مسلما، فأمنه ﷺ وأذن له فأنشده مدحته، فخلع عليه المصطفى بردته وانضم كعب إلى كتيبة الصحابة الشعراء رضى الله عنهم.

* * *

(١) النقل من (عيون الأثر) من طريق ابن اسحاق، وبها خمسة وخمسون بيتا، مع شرح الغريب من ألفاظها.

٣ – المنافقون . . . والفاضحة

﴿ .... وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

صدق الله العظيم

* * *

استغرقت تلك الأحداثُ الكبارُ، ما بين غزوة مؤتة وفتح مكة وغزوة حنين، شهورَ السنة الثامنة للهجرة، من جمادى الأولى إلى ذى القعدة.

واعتمر المصطفى وعاد إلى المدينة كوعده للأنصار، فأقام بها إلى آخر صفر من سنة تسع، وقد نَجَمَ النفاق هناك وكثر الحديث عن «مؤتة» يلوك المنافقون فيه ما كان من غلبة الروم، ويتندرون بسذاجةِ الآلاف الثلاثة من المسلمين، يطمعون فى منازلة الإمبراطور هرقل، فى مائة ألفٍ من جنده!

وآن الأوان لتطهير دار الإسلام من جيوب النفاق التى كانت تهدده فى الصميم، بعد أن انتصر على المشركين من العرب والأعداءِ من يهود.

* * *

لقد كمن السمُّ فى أول الأمر، وإن ظهرت بوادرُ منه فى مثل إصرار «عبد الله بن أُبَيّ ابن سلول» على أن يُجير مواليه من يهود بنى قينقاع؛ وانخذاله بمن معه من منافقى المدينة، عن جند المصطفى ﷺ يومَ أُحُد؛ ثم نشاطه الخبيث فى فرية الإفك الذى تولى كِبْره.

وتتابعت البوادر مع ثقل أعباءِ الجهاد وتكاليفه، فى غزوة الأحزاب وغزوة مؤتة، ويوم حنين، دون أن يملك أحد أن ينفى المنافقين عن الإسلام وهم يتظاهرون به ويشهدون بألسنتهم أن لا إلـه إلا الله وأن محمدًا رسول الله، يحقنون بهذه الشهادة دماءَهم ويعتصمون بها من أن يرجمهم مؤمن بلعنة الردة.

والنوايا لله، هو وحده الذى يعلم سِرهم ونجواهم فليس للرسول إلا أن يكلهم إليه سبحانه، يحمى دينه منهم ويكتشف المستور من كفرهم.

وقد جاءَت «غزوة تبوك» فمزقتْ أقنعتهم، بعد أن توالت النُّذر منبهة إلى أن النفاق قد تمكن من مرضى القلوب حتى صار داءً عياءً لا يجدى فيه غيرُ البتر والتطهير.

* * *

فى مستهل رجب من السنة التاسعة للهجرة، أمر المصطفى أَصحابه بالتهيؤ لغزو الروم، تثبيتًا لجند الله فى لقاءِ عدو مرهوب، وليزيل التهيُّبَ الذى تركته التجربة الأُولى فى مؤتة.

وأراد الله سبحانه أن تكون هذه الغزوةُ تمحيصًا لإيمان المؤمنين، وفاضحةً لزيف المنافقين المحسوبين على الإسلام زورًا وادعاءً.

ولم يكن من عادة الرسول القائد، أن يصرح بوجهته فى كل مرة يخرج فيها بأَصحابه للجهاد، بل يكتفى بالتكنية عنها، تدريبًا لجند الإسلام على الامتثال لأمر الله والرسول.

لكنه فى هذه المرة، صرّح بوجهته لم يُكَنِّ عنها، لبُعدِ المسير وشدة الوقت وكثرة العدو الذى يصمد له، حتى يتأهب المسلمون لذلك أهبتَهم[1].

وذلك فى زمانٍ من عسرة الناس وشدة من الحر، وحين طابت الثمار بعد جدب، فطاب للناس المقامُ فى ثمارهم وظلالهم.

وبدأ المنافقون منهم ينتحلون الأعذار للتخلف والقعود، حتى إن أحدهم ليقول للمصطفى:

– يا رسول الله، أو تأذن لى ولا تَفتِنِّى؟ فوالله لقد عرف قومى أنه ما من رجلٍ بأشدَّ عجبًا بالنساءِ منى، وإنى أخشى إن رأَيتُ نساءَ بنى الأصفر – الروم – أن لا أَصبر!

فأعرض عنه ﷺ وقال: «قد أَذِنتُ لك».

ومشى بعضُهم إلى بعض، يتواصَون بالقعود قائلين: «لا تَنفِروا فى الحرِّ»..

زهدًا فى الجهاد وشكًّا فى المصير، وإرجافًا برسول الله ﷺ.

وانبث نفر منهم فى أحياءِ المدينة يُخذلون قومهم ويقولون: «أتحسَبون جلادَ بنى الأصفر كقتالِ العربِ بعضهم بعضًا؟».

---

(1) تفصيل الحديث عن غزوة تبوك، فى: السيرة: 4/159، والجزء الثانى من طبقات ابن سعد، والثالث من تاريخ الطبرى.

ولكن هؤلاءِ وهؤلاءِ، لم يبلغوا من التخذيل والإرجاف، ما بلغته مكيدةُ كبيرهم «عبدالله بن أُبَيّ»: لقد وجد اللعينُ فرصةَ العمر التى طال انتظاره لها، فتظاهر بالتأهب للخروج، وجمع إليه حشدًا من شيعته أهل النفاق ومن اغترَّ بهم، ثم ضرب عسكره على جِدَةٍ وانتظر حتى تمت التعبئة للجهاد وخرج المصطفى ﷺ بجنده من مكة، وما يشكُّ أحدٌ فى أن «ابنَ أُبَيّ ابن سلول» ماضٍ وراءه بعسكره، ولم يكن أقلَّ العسكرين!.

لكن الخبيث تحرك، لا إلى الشمال فى طريق الجيش المجاهد، وإنما انحاز بعسكره من أسفل مكة إلى الطريق المضاد!.

ومضى المصطفى ﷺ بالمؤمنين من جند الإسلام، وتخلف كل المنافقين، وتخلف معهم نفر قليل من ذوى العذر، ومن استثقلوا العبء، عن غير شك ولا نفاق!.

* * *

فى الطريق، لحق بالمصطفى ﷺ مَن لم يُطيقوا القعود ولهم عذرٌ فيه. منهم اثنان من البكائين، وهم سبعة من الصحابة التمسوا من رسول الله ﷺ أن يحملهم وكانوا أهلَ حاجة، فقال ﷺ: «لا أجد ما أحملكم عليه».

﴿فتَوَلَّوا وأعيُنُهم تَفِيضُ منَ الدمع حَزَنًا ألَّا يجدوا ما ينفقون﴾. وحدث أن مَرَّ اثنان منهم بابنِ عمير بن كعب النضرى، وهما يبكيان، فسألهما عن أمرهما فقالا:

– جئنا رسول الله ﷺ ليحملنا فلم نجد عنده ما يحملنا عليه، وليس عندنا ما نتقوَّى به على الخروج معه.

فأعطاهما بعيرًا له، وزوَّدَهما شيئًا من تمر، فارتحلا البعيرَ ولحقا بجندِ المصطفى..

وكذلك لحق بهم مَن صحا ضميرُه من غفوته، فكره أن يقعد مع القاعدين وليس من أهل النفاق.

فى الخبر أن «أبا خيثمة الأنصاري، مالكَ بن قيس» رجع ذات يوم حارٍّ بعد مسير الرسول ﷺ بأيام، فوجد امرأتين له فى عَرِيشَين ببستانه، قد رشَّت كلٌّ منهما عريشَها وبردت له فيه ماء، وهيأت له طعاما؛ فلما رأى ذلك كله أنكره، وقد يحدث نفسه:

– رسولُ الله ﷺ فى الضحِّ والريح والحر، وأبو خيثمة فى ظلٍّ بارد وطعام مُهيَّإٍ وامرأةٍ حسناءَ، فى ماله مقيم؟ ما هذا بالنصف!؟.

ثم التفت إلى امرأتيه وقال:

«والله لا أدخل عريش واحدةٍ منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ، فهيِّئا لى زادًا».

وركب راحلته، وخرج يغذُّ السيرَ حتى لحق بجند الإسلام فى تبوك[1].

* * *

وفى الطريق أيضا، تخلَّف الرجلُ بعد الرجل، ممن خرجوا فى أول الأمر مُكرَهين، ثم استثقلوا مشقةَ السفر وعبءَ الجهاد.

ويقول الصحابة للمصطفى ﷺ وهو ماض فى طريقه إلى وجهته:

- يا رسولَ الله، تخلف فلان...

فيقول عليه الصلاة والسلام:

«دعوه، فإن يكُ فيه خيرٌ فسيُلحقه الله تعالى بكم. وإن يك غيرَ ذلك فقد أراحكم الله منه».

حتى قيل له مرة:

- يا رسول الله، قد تخلف «أبو ذرٍّ» وأبطأ به بعيره.

فقال المصطفى ﷺ، مثل ما كان يقوله فى الرجل يتخلف.

لكن أبا ذر لم يتخلف مختارًا، وإنما خذله بعيرُه بعد أن أبطأ به، فما كان منه رضى الله عنه إلا أن أخذ متاعه فحمله على ظهره، ومشى يتبع أثر الركب المجاهد، فبينا رسول الله ﷺ فى منزل ببعض مراحل الطريق، نظر أحد الصحابة فلمح من بعيد شخصًا يمشى، فقال:

- يا رسول الله، إن هذا الرجل يمشى على الطريق وحده.

قال عليه الصلاة والسلام وهو ينظر إلى الجهة التى يشير إليها صاحبه:

«كُنْ أبا ذر».

فلما تأمله القوم، قالوا: يا رسول الله، هو والله أبو ذر!

وردّ المصطفى: «رحم الله أبا ذر، يمشى وحده، ويموت وحده، ويُبعث وحده...»[1].

* * *

---

(١) السيرة النبوية: ١٦٤/٤، والإصابة فى الكنى.

(١) السيرة: ١٦٧/٤، وانظر أبا ذر الغفارى فى طبقات الصحابة.

بلغ المصطفى ﷺ بجنده المؤمنين مدينة «تبوك».

وهناك أتاه «يُوحَنَّه» صاحب أيلة، فصالح نبيّ الإسلام وأعطاه الجزية.

وكذلك أتاه أهل جرباء وأذرح، فصالحوه على الجزية.

وتخلف «أكيدر بن عبد الملك النصراني» صاحب «دومة» فندب له المصطفى «خالد بن الوليد» في كتيبة من جنده. فأخرج «أكيدر» أخاه في فرسان دومة للقاءِ كتيبة خالد، ودار قتال سقط فيه أخو أكيدر قتيلًا، وانهزم فرسانه...

وعاد خالد بن الوليد إلى معسكر المسلمين، ومعه «أكيدر» قد نُزِعَ عنه قباؤه، وكان من ديباج مُخَوَّصٍ بالذهب.

قال المصطفى ﷺ وقد رأى أصحابه يلمسون القباءَ بأيديهم ويعجبون منه:

«أتعجبون من هذا؟ فوالذى نفسى بيده، لمَناديلُ سعدِ بن معاذ في الجنة، أحسنُ من هذا».

ثم أطلق المصطفى ﷺ صاحب دومة، بمصالحة على الجزية.

ورجع المصطفى ﷺ إلى المدينة، بعد أن بنى مسجدًا في «تبوك» وأقام بها بضع عشرة ليلة، لم يجاوزها إلى ما وراءَها من أرض الروم.

* * *

فماذا عمن تخلفوا بالمدينة لم يخرجوا للجهاد؟

أتاه المنافقون منهم، يحلفون له ويعتذرون، فلم يملك ﷺ إلا أن يقبل ظاهر عذرهم، مفوضًا أمرهم إلى العليم بما يسرون وما يعلنون.

وأما الذين تخلفوا تكاسلًا، عن غير شك ولا نفاق، فلم يجدوا ما يعتذرون به، وكرهوا أن يضيفوا إلى ذنب القعود عن الجهاد، وزر اختلاق عذرٍ يقدمونه إلى الرسول ﷺ، كما فعل المنافقون.

وأنكر ﷺ موقفهم، ونهى أصحابه أن يكلموا أحدًا منهم حتى يقضي الله فيهم، وكانوا ثلاثة: «كعب بن مالك، ومرارةُ بن الربيع، وهلال بن أُمية» صدَقوه القولَ أن لم يكن لهم عذر.

ونبذهم المجتمع الإسلامي نبذًا أليمًا، وكابدوا من تأنيب النفس اللوامة، ما الموتُ أهونُ منه وأرحم، وأترك لأحدهم «كعب بن مالك الأنصاري» وصفَ محنته وصاحبيه، فيما روى ابن اسحاق بالسيرة النبوية، عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب، عن أبيه قال:

«ما تخلفتُ عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط، غير أني تخلفتُ عنه في بدرٍ، وكانت غزوةً لم يعاتب الله ولا رسولُه أحدًا تخلف عنها...

«ولقد شهدتُ مع رسول الله ﷺ العقبة وحين تواثقنا على الإسلام، وما أُحِبُّ أن لي بها مشهدَ بدرٍ، وإن كانت غزوةُ بدرٍ هي أذْكَرُ في الناس منها – يعني: من العقبة.

«وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة...

«وكان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة يغزوها إلا وَرَّى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة، فغزاها ﷺ في حرٍّ شديد واستقبل سفرًا بعيدًا، واستقبل غزوَ عدوٍ كثير، فجلَّى للناس أمرهم ليتأهبوا لذلك أهبتَه، والمسلمون كثير، لا يجمعهم كتابٌ حافظ – أي ديوان مكتوب – فقلَّ رجلٌ يريد أن يتغيب إلا ظن أن سيخفى له ذلك، ما لم ينزل فيه وحيٌ من الله...

«فتجهز رسول الله ﷺ وتجهز المسلمون معه، وجعلت أغدو لأتجهز معهم فأرجع ولم أقض حاجة فأقول في نفسي: «أنا قادر على ذلك إذا أردت» فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى شمر بالناس الجدُّ فأصبح ﷺ غاديًا والمسلمون معه، ولم أقضِ من جهازي شيئًا، فقلت: «أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحق بهم». فغدوتُ بعد أن فصلوا لأتجهز، فرجعت ولم أقضِ شيئًا، ثم غدوت فرجعت ولم أقضِ شيئًا. فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا وتفرط الغزو – يعني فات وسبق – فهممت أن أرتحل فأدركهم، وليتني فعلت، فلم أفعل.

«وجعلت إذا خرجتُ في الناس بالمدينة بعد خروج رسول الله ﷺ فطُفت فيهم، يحزنني أني لا أرى إلا رجلًا مطعونًا عليه في النفاق، أو رجلًا ممن عذر الله من الضعفاء.

«ولم يذكرني ﷺ حتى بلغ تبوك؛ فقال وهو جالس في القوم: «ما فعل كعبُ بن مالك؟» فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله، حبَسهُ بُرداه، والنظر في عِطفيه. فقال له معاذ بن جبل: بئس ما قلتَ! والله يا رسول الله ما علمنا منه إلا خيرًا، فسكت رسول الله ﷺ.

«فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلًا من تبوك، حضرني بَثِّي، فجعلت أتذكر الكذب وأقول: «بماذا أخرج من سخطة رسول الله ﷺ غدًا؟» وأستعين على ذلك كلَّ ذي رأي من أهلي، فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أظل قادمًا، زاح عني الباطل وعرفت أني لا أنجو

إلا بالصدق، فأجمعتُ أن أصدقه. وصبح رسول الله المدينة، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس، فلما فعل جاءه المُخَلفون فجعلوا يحلفون له ويعتذرون، وكانوا بضعة وثمانين رجلًا. فيقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وأيمانهم ويستغفر لهم، ويَكِلُ سرائرهم إلى الله تعالى. حتى جئت فسلمت، فتبسم تبسمَ المغضب، ثم قال لى: «تعاله» فجئت أمشى حتى جلست بين يديه فقال لى:

«ما خلَّفك؟ ألم تكن ابتعتَ ظهرَك؟».

قلت: إنى يا رسول الله، والله لو جلستُ عند غيرك من أهل الدنيا لرأيتُ أنى سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أُعطيتُ جدلًا. ولكنْ والله لقد علمتُ لئن حدثتُك اليوم حديثًا كذبًا لترضينّ عنى، وليُوشِكن اللهُ أن يُسخطَك علىَّ، ولئن حدثتُك حديثًا صِدقًا تجدُ علىَّ فيه، إنى لأرجو عُقباى من اللهِ فيه. لا واللهِ ما كان لى عذر! واللهِ ما كنت قط أقوى ولا أيسرَ منى حين تخلفت عنك..

فقال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدقت فيه، فقم حتى يقضى الله فيك».

فقمت، وثار معي رجال من بنى سلمة فاتبعونى؛ فقالوا لى:

– والله ما علمناك كنتَ أذنبتَ ذنبًا قبل هذا، ولقد عجزت عن أن لا تكون اعتذرتَ إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به إليه المخلفون، قد كان كافيك ذنبَك استغفارُ رسولِ الله ﷺ لك.

«فواللّهِ ما زالوا بى حتى أردتُ أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأُكذب نفسى. ثم قلت لهم:

– هل لقى هذا أحدٌ غيرى؟

قالوا: نعم، رجلان قالا مثلك: مرارةُ بن الربيع، وهلالُ بن أُمية الواقفى.

«فذكروا لى رجلين صالحين فيهما أُسوةٌ، فصَمتُّ حين ذكروهما لى. ونهى رسولُ الله ﷺ عن كلامنا أيها الثلاثة، من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناسُ وتغيروا لنا حتى تنكرتْ لى نفسى والأرضُ، فما هى بالأرض التى كنتُ أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة. فأما صاحباى فاستكانا وقعدا فى بيوتهما، وأما أنا فكنتُ أشبَّ القوم وأجلدَهم، فكنت أخرج وأشهد الصلوات مع المسلمين وأطوف بالأسواق ولا يكلمنى أحد، وآتى رسولَ الله ﷺ فأُسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة فأقول فى نفسى: «هل حرّك شفتيه يرد السلام علىّ أو لا؟» ثم أُصلى قريبًا منه فأُسارقه النظر، فإذا أقبلتُ على صلاتى نظر إلىَّ، وإذا التفتُّ نحوه أعرض عنى.

«حتى إذا طال ذلك علىَّ من جفوة المسلمين، مشيت حتى تسوَّرت جدار حائط «أبى قتاده»

وهو ابن عمي وأحب الناس إليَّ، فسلمت عليه فوالله ما ردَّ عليَّ السلام. فقلت:

– يا أبا قتادة، أنشدك بالله، هل تعلم أنى أُحب الله ورسوله؟ فسكت. فعُدتُ فناشدته مرة بعد مرة، فسكت عنى فعدتُ فناشدته فقال: الله ورسوله أعلم.

«ففاضت عيناى، ووثبتُ فتسوَّرتُ الحائطَ ثم غدوتُ إلى السوق، فبينا أنا أمشى إذا نبطى يسأل عنى من نبط الشام، فجعل الناس يشيرون إليَّ، حتى جاءنى فدفع إليَّ كتابا من ملك غسان، فيه:

«أما بعد، فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك.. فالحق بنا نُواسِك».

«قلت حين قرأتها: وهذا من البلاء أيضا، قد بلغ بى ما وقعتُ فيه أن طمع فىَّ رجلٌ من أهل الشرك!

«فعمدتُ بالرسالة إلى تنُّور فسجَرتُه بها.

فأقمنا على ذلك حتى إذا مضت أربعون ليلة، من الخمسين، إذا رسولُ رسولِ الله يأتيى يأمره أن أعتزل امرأتى، قلت: أأُطلقها أم ماذا؟ قال: لا، بل اعتزلها ولا تقربها.

وأرسل إلى صاحبيَّ بمثل ذلك.

فقلت لامرأتى: ألحقى بأهلك فكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر ما هو قاض.

وجاءت امرأةُ «هلال بن أُمية» رسولَ الله ﷺ فقالت:

– يارسول الله، إن هلال بن أمية شيخ كبير ضائع لا خادم له، أفتكره أن أخدمه؟

قال: «لا، ولكن لايقربنك».

قالت: والله يا رسول الله ما به من حركة إليَّ، والله ما زال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومنا هذا، ولقد تخوفتُ على بصره..

«فقال لى بعض أهلى: لو استأذنتَ رسولَ الله لامرأتك، فقد أذِن لامرأة هلالِ بن أمية أن تخدمه.

قلت: والله لا أستأذنه بها، ما أدرى ما يقول ﷺ لى إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شاب.

«فلبثنا بعد ذلك عشر ليال، فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله المسلمين عن كلامنا، ثم صليت الصبح، صبح خمسين ليلة، على ظهر بيتٍ من بيوتنا.. إذ سمعت صوت صارخ أوفى على ظهر سلع يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك، أبشِرْ.

فخررت ساجدًا وعرفت أنْ قد جاء الفرج.

«ونزعت ثوبيَّ فكسوتهما من جاء يبشرني، والله ما أملك يومئذ غيرهما، واستعرتُ ثوبين فلبستهما ثم انطلقت اتيمم رسول الله ﷺ، وتلقاني الناس يبشرونني بالتوبة.. حتى دخلت المسجد، فلما سلمت على رسول ﷺ، قال لي ووجهه يبرق من السرور:

« أبشِرْ بخيرِ يومٍ مرَّ عليك منذ ولدتْك أُمُّك ».

قلت: أمن عندِك يارسول الله أم من عندِ الله؟

قال ﷺ: بل من عند الله ».

قلت: يارسول الله، إن من توبتي إلى الله عز وجل أن أنخلع من مالي، صدقةً إلى الله وإلى رسوله.

قال ﷺ: « أمسِك عليك بعضَ مالك فهو خير لك ».

وقلت: يارسول الله، إن الله نجاني بالصدق، وإن من توبتي إلى الله أن لا أحدث إلا صدقًا ما حييتُ »[1].

* * *

الآيات التي بُشِّر بها هؤلاء الثلاثة الذين خلَّفهم الرسول ﷺ حتى يقضي الله فيهم، هي آياتُ التوبة:

﴿ .... لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾

(صدق الله العظيم)

* * *

(١) من السيرة: ١/١٧٥، بإسناد إلى الزهري عن عبدالرحمن بن عبدالله بن كعب بن مالك.

ونزلت معها، من سورة التوبة فى أواخر العهد المدنى بعد غزوة تبوك، الآياتُ البينات (الفاضحة) لزيف المنافقين الممزقة لكل أقنعتهم، وفيها يعتب الله سبحانه على رسوله أن أَذِن لهم فى التخلف. وكان، لو لم يفعل، بحيث يكشف عن خبث سريرتهم ويتبين له كفرُهم وارتيابهم:

﴿ إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون ﴿٤٥﴾ * ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين ﴿٤٦﴾ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين ﴿٤٧﴾ لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون ﴿٤٨﴾ ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ألا فى الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴿٤٩﴾ إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون ﴿٥٠﴾ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴿٥١﴾ قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون ﴿٥٢﴾ ﴾

(صدق الله العظيم)

* * *

وتمضى الآيات بحكم الله فيهم: تنفيهم عن الإسلام أحياء وأمواتا، وتعزلهم عن مخالطة المؤمنين، وتُحرم خروجهم معهم إذا خرجوا للجهاد، حسمًا لشرّ الفتنة، وتنهى نبىَّ الإسلام نهيًا باتًا عن أن يستغفر لهم أو يُصلى على أحدٍ منهم مات أبدًا أو يقوم على قبره:

﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٨٠) فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٣) وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤) ﴾

(صدق الله العظيم)

* * *

ثم يفصل الله جلّ شأنه الحكم فى المتخلفين.

﴿ لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ (٩٢)

إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا
مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾
يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ
نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ
إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾
سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا
عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾
يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ
عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾

(صدق الله العظيم)

* * *

(٥)

﴿وَدخل الناس فى دين الله أفواجًا﴾

- سنة الوفود
- حجة الوداع
وآية إكمال الدين
وإتمام النعمة . .
- الرحيل . .

سنةُ الوفود

كانت غزوة تبوك فى شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة.

بعدها فيما بقى من شهور السنة، تتابعت وفودُ القبائل العربية على دار الهجرة، ساعية إليها من كل وجه، تبايع الرسول ﷺ على الإسلام.

أسلمت «ثقيف» وكانت قد امتنعت بالطائف يومَ حنين.

وقدم وفد «همدان» على رسول الله عليه الصلاة والسلام، مرجعَه من تبوك.

وجاءَ وفد «تميم»، وفيه: «قيس بن عاصم، وعطارد بن حاجب، والأقرع بن حابس، وعمرو بن الأهتم، والزبرقان بن بدر».

وجاءَ ضمام بن ثعلبة، فى وفد «بنى سعد بن بكر».

والجارودُ بن عمرو، فى وفد «عبد القيس».

والأشعثُ بن قيس فى وفد «كندة» وصرد بن عبد الله، فى وفد «الأزد».

كما قدم وفد «طيء» وفيهم سيدهم الفارس «زيد الخيل» الذى قال فيه المصطفى ﷺ: «ما ذُكر لى رجلٌ من العرب ثم جاءَنى، إلا رأيتُه دون ما يقال فيه، إلا زيد الخيل فإنه لم يبلغ كل ما كان فيه».

ودعاه المصطفى ﷺ: زيدَ الخير.

وجاءَ رجال من «بنى زبيد» فيهم عمرو بن معديكرب الفارس الشاعر.

ووفدُ بنى حنيفة، فيهم مسيلمة بن حبيب[1].

قال «ابن اسحاق» فى سنة الوفود[2]:

«وإنما كانت العربُ تربَّصُ بالإسلامِ أمرَ هذا الحيِّ من قريش وأمر رسولِ الله ﷺ، وذلك أن قريشًا كانوا إمامَ الناسِ وهاديهم، وأهلَ البيت الحرام، وصريحَ ولدِ إسماعيل بن إبراهيم

---

(١) هو مسيلمة الكذاب، الذى ارتد وادعى النبوة بعد النبى ﷺ. وقتل الكذاب فى حروب الرده

(٢) والطبرى فى تاريخه. السنة التاسعة من طريق ابن اسحاق.

عليهما السلام، وقادة العرب لا يُنكرُ ذلك، وكانت قريش هى التى نصبَتْ لحرب رسول الله ﷺ وخلافه، فلما افتُتحت مكةُ ودانت له قريش... دخلوا فى دين الله، كما قال عز وجل، أفواجًا، يضربون إليه من كلّ وجه.

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ:

﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ٣ ﴾

(صدق الله العظيم)

* * *

حجة الوَدَاع .. وَالرحيل !

﴿ .... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾

(صدق الله العظيم)

* * *

تطهرت ديار الإسلام من وباءِ يهود، أعداءِ البشر.

وتطهرت أرضُ المبعث وبلاد العرب من رِجس الوثنية، وسقطت أقنعةُ المنافقين، وعُزِلُوا عن المجتمع الإسلامى، ودخل الناسُ فى دين الله أفواجًا.

فهل بقِىَ من رسالة المصطفى ﷺ ما يؤديه فى عصرِ مبعثِه ؟

كان من المتوقع أن يحج ﷺ مرجعة من هوازن، فى ذى القعدة من السنة الثامنة للهجرة، بعد أن فُتحت مكة وتطهرت الكعبة من رجس الأصنام. لكنه ﷺ لم يشأ أن يشهد الموسم وهو وقتئذ خليط من المسلمين جند الفتح والمكيين مسلمة الفَتح، ومن المشركين من سائر القبائل العربية التى شهدت الموسم وهى على الشرك. وحجَّ بالمسلمين الصحابى «عَتَّاب بن أُسَيْد القرشى الأموى» : من مسلمة الفتح.

بعدها فى السنة التاسعة، كانت سنة وفود القبائل على النبى ﷺ ومبايعته فى دار هجرته ﴿ودخل الناس فى دين الله أفواجًا﴾ وفى الموسم بقايا من المشركين، وكثرة من المسلمين لا علم لهم بمناسك حجهم، فهى تحج على ما عهدت من بقايا حج ابراهيم واسماعيل عليهما السلام. وقد خرج أبوبكر من المدينة فى ثلاثمائة من المهاجرين والأنصار. وفى طريقه إليها لحق به «على بن أبى طالب كرم الله وجهه» مبعوثًا من النبى عليه الصلاة والسلام، على ناقته القصواء. فتلا على أهل الموسم سورة التوبة، ونادى فيهم : «ألا يحج بعد ذلك العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان». ومن وقتئذ خلص الحج للمسلمين.

بعد سنة الوفود، حجَّ ﷺ حجةَ الوداع في السنةِ العاشرة للهجرة، -وهي الحجة الأولى للإسلام، لم يحج قبلها بعد مبعثه- وفيها علَّم المسلمين مناسكَ الحج، وخطب فيهم خطبته المشهورة التي كانت الوصيةَ الأخيرةَ إلى المسلمين من نبيهم المصطفى عليه الصلاة والسلام، قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

«أيها الناس، اسمعوا قولي فإني لا أدري لعلِّي لا أَلقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقفِ أبدًا.

أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقَوا ربكم، كحرمةِ يومِكم هذا وكحرمةِ شهرِكم هذا. وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالِكم وقد بلَّغتُ، فمن كانت عنده أمانةٌ فليؤدِها إلى من ائتمنه عليها، وإن كلَّ ربا موضوع، ولكن لكم رءوس أموالكم لا تَظلِمون ولا تُظلَمون، قضى اللهُ أنه لا ربا، وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوعٌ كلُّه. وإنَّ كلَّ دمٍ كان في الجاهلية موضوع. وإن أولَ دمائكم أضعُ دمُ ابنِ ربيعةَ بنِ الحارث بن عبدالمطلب - وكان مسترضَعا في بني ليث فقتلته هُذيل - فهو أول ما أبدأ به من دماءِ الجاهلية.

أما بعد أيها الناس، فإن الشيطان قد يئس أن يُعبَد بأرضكم هذه أبدًا، ولكنه إن يُطَعْ فيما سوى ذلك فقد رَضِيَ بما تحقِرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم».

وبعد أن بيّن المصطفى ﷺ إبطال الإسلام للنسيء، وحدَّدَ الأشهرَ الأربعة الحرم، أوصى بالنساءِ خيرًا، ثم ختم خطبة الوداع بقوله:

«فاعقِلوا أيها الناس قولي فإني قد بلَّغتُ، وقد تركتُ فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلُّوا أبدًا: أمرًا بيِّنًا، كتابَ اللهِ وسنةَ نبيِّه. أيها الناس، اسمعوا قولي واعقلوه، تعلَمُنَّ أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لامرئٍ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيبِ نفسٍ منه فلا تظلِمُنَّ أنفسكم، اللهم هل بلغت؟».

هتف المسلمون جميعا، ممن شهدوا حجة الوداع: اللهم نعم.

فقال ﷺ: «اللهم أشهد».

* * *

فى حجة الوداع، نزل الوحى بآية إكمال الدين، وإتمام النعمة، قال تعالى:

﴿ .... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾

فأحس المصطفى ﷺ أن قد نُعِى إلى أمته، وأنه على وشك رحيل..

* * *

ورجع المصطفى ﷺ إلى المدينة فأقام بها بقيةَ ذى الحجة والمحرم وصفر.. وفيها جهَّز «أسامة بن زيد بن حارثة» رضى الله عنهما، ليخرج إلى الشام فى جند الإسلام، ومعه المهاجرون الأولون رضى الله عنهم..

وأمره ﷺ، أن يصل بالإسلام إلى تخومِ البلقاء من أرض فلسطين.

وبذا كأن المصطفى ﷺ أتم رسالته، وترك للمؤمنين من بعده أن ينشروا الدين الحقَّ فى الآفاق، وأن يحملوا لواءه الميمون إلى المشرق والمغرب!

* * *

الرحيل

تم يموت محمدُ بن عبد الله ﷺ، ويحيا المصطفى ﷺ فى رسالته، نبىَّ الإسلام المبعوثَ خاتمًا للنبيين ومصدقًا لما بين يديه من الدين كله.

وتكون آيتُه، بعد أن أتم رسالته، أن يجوز عليه المرضُ والموت، كما جازت عليه أعراضُ البشرية وهمومُها وعواطفها، من حزن وثكل وكره وضيق وكرب، مثلما تجوز على سائر البشر.

لكيلا يُفتَنَ به المسلمون فينسوا أنه بشرٌ رسول، كما فُتن من قبلهم، فاتخذوا نبيهم مع الله إلـهًا.

* * *

فى ليالٍ بقين من صفر، فى السنة الحادية عشرة للهجرة، شكا المصطفى ﷺ من مرضٍ ألمَّ به، فحسب آلُ البيت النبوى والمسلمون معهم، أنها وعكة طارئة لا تلبث أن تزول، دون أن يتصور أحدٌ منهم أنه مرض الموت.

وثقُل المرض على «محمد بن عبد الله» فاستأذن نساءه أمهات المؤمنين أن يُمرَّض فى بيت عائشة، وقال ﷺ:

«مُرُوا أبا بكرٍ فليُصَلِّ بالناسِ».

* * *

ولم يطُلْ عليه المرض..

أهلَّ شهر ربيع الأول، وخرج أهلُ المدينة لصلاةِ الصبح من يوم الاثنين، فبينا هم فى المسجد وأبو بكر يصلى بهم، رُفع الستر من باب بيت أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها، وخرج المصطفى ﷺ عاصبًا رأسه، فما كاد الناس يلمحونه حتى كادوا يفتنون فى صلاتهم برؤيته فرحًا به، لولا أن أشار إليهم أن «اثبتوا على صلاتكم».

وشعر أبو بكر بما كان من المصلين خلفه، فعرف أنهم لم يصنعوا ذلك إلا لرسول الله ﷺ، فنكص عن مُصلاه يفسح مكانه للمصطفى، لكنه دفعه وقال: «صلِّ بالناس».

وجلس ﷺ عن يمين أبي بكر، فصلَّ قاعدًا، حتى إذا قُضيت الصلاةُ أقبل المسلمون على نبيِّهم المصطفى فرحين مستبشرين، يهللون ويدعون ويباركون.

لم يدروا أنها صحوة الموت!

دخل المصطفى ﷺ بيته والوقتُ ضحى، فاضطجع على فراشه فى حجرِ زوجه عائشة، - التى اختار بيتها ليُمرَّض فيه - فما راعها إلا أن تقُل فى حجرها، ونظرت فى وجهه فإذا بصرُه قد شخص وهو يقول: «بل الرفيق الأعلى من الجنة»[1]

* * *

من بيت المصطفى ﷺ علا نحيبُ النساء فصك مسمع المدينة التى كانت قد استبشرت برؤية الرسول ﷺ فى صلاة الصبح من ذلك اليوم!

وفى ذهول المباغتة، وجم الناس بين مصدق ومكذب، وكان «عمر بن الخطاب» أشد مَنْ أنكروا أن يكون محمد ﷺ قد مات!

وجاء أبو بكر، وعمرُ فى المسجد يتوعد من يزعم أن رسول الله ﷺ قد مات، قال: عفا الله عنه:

«إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ قد توفى! وإن رسول الله ﷺ والله ما مات، ولكنه ذهب إلى ربِّه كما ذهب موسى بنُ عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلةً ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات، ووالله ليرجعنَّ رسولُ الله ﷺ كما رجع موسى، فليَقطَعنَّ أيدى رجالٍ وأرجلهم زعموا أن رسول الله ﷺ مات!».

تركه أبو بكر لم يكلمه، ومضى لا يلتفت إلى شىء حتى دخل على المصطفى ﷺ فى بيت ابنته عائشة، فإذا هو مسجى هناك، فأقبل عليه محزونًا حتى كشف عن وجهه فقبَّله، وقال: «بأبى أنت وأمى، أما الموتة التى كتب الله عليك، فقد ذُقتَها، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبدا».

ثم ردّ البُردَ على الوجه الحبيب.

---

(١) السيرة: ٤/٣٠٤.

وخرج إلى الناس المحتشدين فى المسجد، وَ «عُمر بن الخطاب» ما يزال يكلمهم فدنا منه وقال مترفقًا، قد أحس ما أخذ ابن الخطاب من وقع الصدمة:

– على رِسْلِكَ يا عمر، أنصتْ!

فلما لم يلتفت إليه، أقبل على الناس فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

«أيها الناس، مَن كان يعبدُ محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومَن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت».

ثم تلا الآية، من سورة آل عمران:

﴿ .... وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

فكأن الناسَ لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذ..

أما عمر بن الخطاب، فما هو إلا أن سمع أبا بكر تلاها، حتى وقع إلى الأرض ما تحمله رجلاه، وقد عرف أن محمدًا قد مات..

* * *

جهَّزوه للرحيل يومَ الثلاثاء.

ثم فتحوا باب بيته لألوف المسلمين فدخلوا عليه يودعونه ويصلُّون عليه أرسالاً: الرجال منهم أولاً، ثم النساء، ثم الصبيان.

ودفنوه حيث قُبض، فى بيت زوجه عائشة بنت أبى بكر رضى الله عنهما.

رفعوا فراشه فحُفِر له تحته، ثم أضجعوه هناك فى ليل الأربعاء من ذلك الشهر، ربيع الأول، السنة الحادية عشرة من هجرته.

* * *

دفنوا محمدَ بن عبد الله الهاشمى القرشى ﷺ.

وعاش النبى الرسولُ ﷺ، خاتم النبيين.

ذاك الذى اصطفاه الله فأرسله بالهدى ودينِ الحق ليُظهرَه على الدين كلّه ولو كره الكافرون. فى فجر تلك الليلة الغراء من شهرِ رمضانَ المبارك، التى خرج فيها مع النور البازغ يتلو الكلمات الأولى من هذا القرآن:

معجزةَ نبوة، وكتابَ شريعة، ولواء عقيدة وجهت التاريخ وحررت الإنسان.

والنور الذى حَدَا مَسرى البشرية الأمية من ليل الجاهلية،

وقاد مسعاها إلى آفاق المثل العليا للحق والخير والجمال.

لِلَّهِ الحمد والمنة:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ② ﴾

(صدق الله العظيم)

* * *

رقم الإيداع	١٩٩٢ / ٧٤٥٥
الترقيم الدولي	ISBN 977 - 02 - 3784 - 1

١ / ٩٠ / ١٧٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible]